الأندلس

أرض الفردوس المفقود

تأليف

مجموعة كتاب

الكتاب: الأندلس .. أرض الفردوس المفقود

الكاتب: مجموعة كتاب

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الأندلس .. أرض الفردوس المفقود/ مجموعة كتاب

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٤٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ٨١ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٤٧٤ / ٢٠٢٠

الأندلس
أرض الفردوس المفقود

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

الأَنْدَلُس، وهي المعروفة أيضاً في الخطاب الشعبي الغربي خُصوصاً والعربي والإسلامي أحياناً باسم «إسپانيا الإسلاميَّة» أو «أيبيريا الإسلاميَّة»، هي إقليمٌ وحضارةٌ إسلاميَّة قامت في أوروبا الغربيَّة وتحديداً في شبه الجزيرة الأيبيريَّة، على الأراضي التي تُشكِّلُ اليوم إسپانيا والپرتغال، وفي ذُروة مجدها وقوَّتها خلال القرن الثامن الميلاديّ امتدَّت وُصولاً إلى سپتمانيا في جنوب فرنسا المُعاصرة. غير أنَّ التسمية عادةً ما يُقصد بها فقط الإشارة إلى الأراضي الأيبيريَّة التي فتحها المُسلمون ، وبقيت تحت ظل الخِلافة الإسلاميَّة والدُويلات والإمارات الكثيرة التي قامت في رُبوعها وانفصلت عن السُلطة المركزيَّة في دمشق ومن ثُمَّ بغداد، مُنذ سنة ٧١١م حتَّى سنة ١٤٩٢م حينما سقطت الأندلس بيد اللاتين الإفرنج وأُخرج منها المُسلمون، علماً بأنَّه طيلة هذه الفترة كانت حُدودها تتغيَّر، فتتقلَّص ثُمَّ تتوسَّع، ثُمَّ تعود فتتقلَّص، وهكذا، استناداً إلى نتائج الحرب بين المُسلمين والإفرنج.

لم يكن للأندلس دور كبير في التأثير على أوروبا والممالك المجاورة لها قبل خول المسلمين بها، وعند قيام الدولة الأموية في الأندلس كان يقصد قرطبة العديد من أبناء أوروبا لطلب العلم، وقد دام الحكم الإسلامي للأندلس قرابة ٨٠٠ سنة ، وفي العصر الحاضر لا تزال منطقة جنوب إسبانيا تُعرف باسم الأندلس وتُعتبر إحدى المقاطعات التي تُشكل إسبانيا الحديثة وتحتفظ بالعديد من المباني التي يعود تاريخها إلى عهد الدولة الإسلامية في الأندلس، وتحمل اللغة الإسبانية كثيراً من الكلمات التي يعود أصلها إلى اللغة العربية..

وقد قارن الطبيب الأمريكي المؤرخ فيكتور روبنسون بين الحالة الصحية وغيرها في الأندلس وفي أوروبا خلال فترة الفتح الإسلامي للأندلس فقال: "كانت أوروبا في ظلام حالك، في حين كانت قرطبة تضيئها المصابيح، وكانت أوروبا غارقة

في الوحل، في حين كانت قرطبة مرصوفة الشوارع".

وإننا لنلمس فضل المسلمين وعظيم أثر مجدهم حينما نرى بإسبانيا الأراضي المهجورة التي كانت أيام المسلمين جنات تجري من تحتها الأنهار، فحينما نذكر تلك البلاد التي كانت في عصور العرب تموج بالعلم والعلماء، نشعر بالركود العام بعد الرفعة والازدهار.. إن تاريخ إسبانيا في العصور الوسطى لم يعرف الانفصال الجغرافي ولا العنصري بين المسلمين والمسيحيين واليهود، ولولا تعايش هذه الطوائف الثلاث في إسبانيا، لما خرجت من دائرة التخلف والظلام الذي كانت تعيشه باقي الدول الأوربية، وكان المستعربون حلقة الاتصال بين شطري إسبانيا المسلمة والنصرانية، فتفاعلتا وتعرضتا للتأثير المتبادل.

مع الفتح الإسلامي للأندلس فتحت صفحة لالتقاء ثقافتين مُختلفتين هما العربية الإسلامية واللاتينية المسيحية، اتصلتا وتفاعلتا فتعرضتا للتأثير المتبادل عبر عصور التعايش المشترك. والاعتقاد بوجود هذا التأثير هو الدافع الأول لأعمال الترجمة التي قامت بها شخصيات إسلامية ومسيحية وأفنى فيها كثير من الباحثين المشهورين قسطاً من حياتهم في تحديد حجمها وأهميتها محاولين معرفة النسب ودرجات هذا التأثير؛ وكان من البديهي في ظل القوانين الإسلامية السمحاء أن يتمتع الجميع بالحقوق الدينية والدنيوية التي يضمنها الإسلام لكل من ينضوي تحت لوائه.

وكان من الطبيعي كذلك أن يترك هذا الاندماج بصمات بارزة في حياة السكان حتى بعد سقوط الأندلس وقيام محاكم التفتيش باضطهاد المسلمين وإرغامهم على التنصير أو التهجير، وقد لاحظ المستعرب الإسباني خوان برنيط (**Juan-Vernet**) في كتابه "المسلمون الإسبان" (**Los Musulmanes Españoles**): إنه من العسير جداً أن نُحدد مدى التأثير الإسلامي في الجزيرة الإيبيرية، وذلك أن الأندلس كانت دائماً هدفاً للهجرات الشرقية مما يكون له أثره فيما قبل الإسلام

بكثير على أن هناك أشياء ماثلة لا يمكن الشك في أنها إسلامية، وذلك ما هو موجود في اللغة من ألفاظ وتعبيرات وعادات مثل **Ojala** التي هي (إن شاء الله)، ومثلها كثير..

كما يُضيف قائلاً: إن ما نقله الإسلام إلى إسبانيا له وزنه المهم في تكوينها وإنعاشها، كما أن له تأثيراً غير مباشر في الناحية الروحية، أما في الناحية المادية، فأثره مباشر وواضح، وأن أوروبا ما اكتسبت من الثقافة الإسلامية إلا عن طريق إسبانيا، وبالجملة فتأثير الإسلام بارز في العلم والفلسفة والتصوف.

كما يعتقد الكاتب الإسباني أميريكو كاسترو أن عادة تغسيل الموتى قد أخذت عن المسلمين، وعادة تغطية وجوه النساء كانت تُمارس حتى وقت قريب في بعض مناطق "ألمرية" و"قادس"، ومن سالف العادات أيضاً كان جلوس النساء على الأرض؛ وقد سادت هذه العادة إسبانيا في القرن الثامن عشر.

ويقول الأديب الأسباني الكبير سرفانتيس (**Cervantes**) في روايته "دون كيخوتة" أن سانشو بانثا كان يأمل أن تجلس زوجته في الكنيسة على (القطائف) و(المخدات) وهما كلمتان عربيتان، ثم إن هناك تعبيرات التأدب يتحقق معناها إذا بحثناها في ضوء التأثير الإسلامي، مثلاً أن نقول (الدار دارك) لمن يزورها لأول مرة، وعند انصراف الزائر يُقال له: لقد نزلت منزلك، ومنزلنا تحت أمرك

ومن الشائع أيضاً سماع إن شاء الله أو بمشيئة الله، إلى اللقاء غداً إن شاء الله، وهي جُمل تجري على ألسنة الإسبان باعتبارها شيئاً طبيعياً جداً. ويبدو له أن الأسبان قد استخدموا وما زالوا كلمة (رب)، أكثر من الشعوب الرومانيقية الأخرى؛ كما أن صيغة "حفظه الله" هي صيغة ذات أصل إسلامي، بقي بعض آثارها في الأوساط الملكية وتحيات الفلاحين الأندلسيين، وما زال أهل الريف الأندلسي يقولون حتى أيامنا هذه في سلام الله، وهي مأخوذة عن التحية العربية السلام عليكم.

شهدت بلاد الأندلس تطوراً كبيراً ونهضة شاملة على كافة المستويات في ظل حكم العرب المسلمين لها، فقد اهتم الأمراء بتنشيط الصناعة والتجارة، وعملوا على تنظيم جيش قوى وأسطول بحري كبير للدفاع عن البلاد. ولا يخفى على أحد أن الحركة العلمية في بلاد الأندلس قد بدأت منذ استقرار المسلمين على أرضها، وكانت أهم ملامح هذه الحركة تشجيع الحكام والأمراء على التعليم، وبناء المدارس والمكتبات، وكان بعض الحكام يدفعون الأموال الطائلة لشراء الكتب، وتشجيع الحركة العلمية التي قامت على أسس إسلامية ومنهج تجريبي في العلوم.

قدمت الأندلس نهضة شاملة في العلوم النظرية والعملية، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتخبط في ظلام الجهل والتخلف، إلى أن بدأ انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا شيئاً فشيئاً من خلال الترجمة.

ووقف خلف كل هذه الإنجازات المئات من أعلام المسلمين بالأندلس بكافة المجالات، فمن أشهر علماء القرآن وعلم الحديث الشريف الإمام القرطبي صاحب كتاب "الجامع لأحكام القرآن"، وفى الفقه شهدت الأندلس انتشاراً كبيراً لمذهب الإمام مالك بن أنس، ثُم تبعه المذهب الشافعي، ولعل أجمل ما يُدرس في العلوم النظرية الأدب الأندلسي الذي ازدهر مع تطور البحث في علوم اللغة العربية.

كما برز فيها علماء الفلسفة والكلام، ومن أشهرهم الفيلسوف الشهير ابن رشد، كما كان هناك العديد من العلماء الذين برعوا في علم التاريخ والجغرافيا ومنهم ابن الفرضي، ومحمد بن الحارث الخشني، وكان أبو القاسم المجريطي من أوائل الذين اشتعلوا بالرياضيات والكيمياء في الأندلس. كما برع عباس بن فرناس في علم الهندسة، وهو أيضاً صاحب أول محاولة للطيران، ونبغ في علم الفلك أبو عبيدة القرطبي، فيما كان أشهر أطباء الأندلس من العرب، يأتي على رأسهم أبو القاسم الزهراوي الذي برع في الطب والصيدلة، وبرع فيهما أيضاً الطبيب العلامة ابن البيطار الذي اشتهر بدراسة النبات وساهم في تقدم الزراعة بالأندلس.

كما قام عدد من العلماء المسلمين بإسهامات عديدة في العلم في مختلف المجالات على فترات متعاقبة من الزمن، كل على حسب اهتماماته سواء كانت علمية تطبيقية أو دينية أو لغوية أو فلسفية أو اجتماعية في تلك المنطقة التي تغيرت تماماً علي العرب الذين جعلوها جنة الله في أرضه..

وهذا الكتاب غني بتاريخه الزاخر بأخبار عرب الأندلس وأحوالهم بها؛ وكيف أنهم طوروها وعمروها، لذا فهو كتاب قيم – بأقلام نخبة من المفكرين والمؤرخين العرب – ننهل منه العلم والمعرفة من خلال التاريخ المجيد للعرب في الأندلس.

خمسة قرون على الخروج من الأندلس[**]

د. الطاهر أحمد مكي[*]

ثمة قاعدة انتهى إليها علماء التاريخ: إن الإسلام إذا بلغ أرضا استقر فيها إلى الأبد، وكانت إسبانيا وصقلية الاستثناء الوحيد في هذه القاعدة! فكيف كانت بداية الفتح.. وكيف انتهى أفول الخروج؟

الحق أن إزاحة الإسلام عن إسبانيا بعد عمر طويل وحضارة زاهرة، ظاهرة تستأهل الدرس العميق، والغوص وراء أسبابها الخفية والظاهرة، لأن الأسباب إذا تشابهت– مهما تكررت– تؤدي إلى نتائج متقاربة، وإذن فنحن مهددون بأكثر من أندلس أخرى إذا لم نكن في يقظة حذرة مما حولنا، أو يدبر لنا.

وقبل أن آتي إلى بعض هذه الأسباب– ولا أزعم أنني سأتناولها كلها أو أقدر وحدي على استقصائها جميعها في هذه العجالة– أود أن أصحح لبسا تقع فيه الكثرة الغالبة من المثقفين، وهو أن إسبانيا كانت بلدا مستقلا، جاء العرب فاحتلوه زمنا، ثم تجمع الإسبان فحرروه منهم، وهي مقولة مغلوطة من أولها إلى آخرها.

لم تجئ حركة الفتح الأولى عفوا، ولا كانت مجرد مغامرة، بل جاءت وليدة تخطيط محكم، ودراسة واعية، وإدراك جيد بما كان يجري على أرض

[**] العربي– العدد ٤٠٠– مارس ١٩٩٢م.

[*] ناقد مصري راحل

إسبانيا نفسها، وكان عبور طارق بن زياد، بعد عبورين سبقاه، وحملة استطلاع تبينت الواقع، ومعلومات تؤكد أن الدولة القوطية تتفكك، والصراع بين أمرائها على أشده، وهم ليسوا بأقرب إلى السكان من البربر المسلمين، فقد جاءوها من الشمال جموعا وثنية همجية، ثم استقروا فيها حاكمين، ومن ثم فإن قطاعا عريضا من المجتمع الإسباني كان يغذي عملية العبور هذه، والبقية الأخرى لم يكن الأمر كله يعنيها في شيء على الإطلاق، قلة فحسب كانت خائفة ومذعورة: الإقطاعيون وملاك العبيد. وكان هؤلاء مع رقيق الأرض، يمثلون الأغلبية الساحقة من الشعب، ويئنون تحت ضغوط شخصية ونفسية ومادية هائلة، ويتمنون الخلاص على يد أي مخلوق.

كان هناك صراع قوي بين الأجناس والطبقات والأديان، فلم تكن إسبانيا مسيحية كلها في ذاك الوقت، بل كان فيها إلى جانب الكاثوليك طوائف أخرى، من الوثنيين والأريوسيين واليهود، في فترة أبعد ما تكون عن التسامح الديني أو التعايش بين الطوائف.

ولم تكن الدولة على وفاق مع المجتمع، وتفتقد القاعدة الاجتماعية التي تقوم عليها.

وحتى رجال الدين الكاثوليك كانوا يطمحون إلى تغيير النظام القائم، ولم يرعبهم في شيء أن يعيشوا في ظل الإسلام.

كان لابد إذن من قارعة، من الداخل أو الخارج، تذهب بهذا النظام الذي ينتمي إلى العصر القديم، تتمثل في جنس جديد، أو موجة جديدة من الشمال أو الجنوب، تذهب بهؤلاء القائمين في طليطلة من القوط. وكان محالا أن تجئ من الداخل، لأن المجتمع عاجز عن خلق أي شيء، تعوزه

الحيوية والحماسة، مريض بلا علاج، وما كان ممكنا أن تجيء من الشمال، لأن فرنسا كانت تعاني من المشكلات نفسها تقريبا، فكان الإسلام هو القارعة!.

ويمكن القول إذن، (والقول لمؤرخ إسباني)، إن المسلمين عبروا المضيق في مهمة قدرية للقضاء بعنف على نظام قائم لا توجد قوة غيره قادرة على أن تأتي عليه في ضربة قاضية، وأن تشغل مكانه.

ومن المؤكد أن تخطيطا على مستوى عال تم في مدينة سبتة بين أبناء الملك الذي أزيح عن العرش وحاكم المدينة، وكان صديقا لهم، وبين موسى ابن نصير القائد العام، وطارق بن زياد قائد الحملة، وفيه تم تحييد جانب كبير من النبلاء والقواد حتى لا يقاوموا، وآخرون أخذوا جانب المسلمين صراحة، وتعكس الخطة معرفة واعية بطبيعة الأرض التي سوف يجري القتال فوقها، فبعد اثني عشر قرنا من الفتح الإسلامي سلكت قوات الجنرال فرانكو- حين ثار على النظام الجمهوري عام ١٩٣٦ وكان في المغرب- في طريقها إلى إسبانيا، الطريق نفسه الذي سلكه موسى بن نصير: الجزيرة الخضراء، فإشبيلية، فماردة، فطليطلة.

كان البربر أول من دخل الأندلس، فقد كان جيش طارق بربريا كله، واحتملوا صدمة الفتح الأولى، واتصلت هجرتهم إليه لقرب بلادهم منه، وتشابه مناخ أوطانهم به، وكثرة القلاقل عندهم. وبعدهم جاء العرب، يمنيين، أو مضريين، مع موسى بن نصير أولا، ومع بلج بن بشر القيسي فيما بعد، وفي أفواج قليلة مع عبد الرحمن الداخل أخيرا، وبقيت الأغلبية الساحقة من السكان من أهل البلاد الأصليين، ايبيريين أو سلتيين أو قوطا أو أفارقة أو فينيقيين، إلى جانب قلة من اليهود قدمت إلى إسبانيا قبل المسلمين بزمن

طويل. وقد أسلمت الأغلبية العظمى من أهل البلاد، واحتفظت قلة محدودة بعقيدتها الكاثوليكية، ولكنها تعربت فيما عداها، لغة وعادات وحياة وسلوكا، ولذلك عرفوا باسم المستعربين وكان المسلمون الذين من أصل إسباني أشد الجميع تحمسا للدين الجديد.

بعد أقل من نصف قرن من الزمان، مع قدوم عبد الرحمن بن معاوية، وتوليه الإمارة، استقل الأندلس، وأصبح دولة لا سلطان لأحد عليها غير أبنائها. نعم كان الأمير عربيا قرشيا جاء من المشرق، لكن ألم يكن لذريق ملكها قبيل الفتح قوطيا جاء من شمال أوربا؟.

في ظل الأمن والاستقرار والتعايش والرخاء، سوف تتأصل الحضارة الإسلامية وتزدهر، وتعطي خير ثمارها، وسوف تصبح قرطبة العاصمة من كبريات مدن العالم، ويضرب بها المثل في العلم والرفاهية والرقي، وتبلغ شهرتها الخافقين.

مع أول القرن الثامن الميلادي جاء العرب إلى الأندلس، ومع نهاية القرن العاشر أصبح بهم دولة مرهوبة الجانب، مركزية السلطة، يسودها الأمن، وتفيض بالخير: الحقول خضراء زاهية، والبيوت أنيقة مريحة، والحمامات كثيرة ونظيفة، وأنظمة الري دقيقة ومحكمة، والأقوات موفورة بأرخص الأسعار، ويتحرك الناس في صحة بادية وملابس نظيفة، وانكمش الفقر أو تلاشى.

وقد صنع هذا المجد عربيان عظيمان، كان الأول خليفة، وهو عبد الرحمن الناصر، وكان الثاني حاجبا أو رئيسا للوزراء في لغتنا المعاصرة، وهو المنصور بن أبي عامر، وكما تكون إنجازات العباقرة عظيمة تجيء أخطاؤهم من المستوى نفسه.

كان الخطأ الذي وقع فيه الاثنان– والتبعة على الأول– أكثر، لأنه الذي بدأ، والثاني سار على طريقه– أنهما لكي ينفردا بالأمر، ويتمكنا من السلطة، أتيا على النفوذ العربي تماما، استغنيا عن أبناء البيوتات، وأذلا كبار الرجال فيها، واستعاضا عنهم بولاء الرقيق من الصقالبة، والنازحين من الإفارقة، وأولئك ولاؤهم مأجور، وهؤلاء إحساسهم بالوطن واهن، ولم يكن للقاعدة العريضة من الجماهير دور طليعي، بل مجرد مادة مهيأة للثورة، حين يبلغ السوء مبلغه، وتنحدر الحال إلى قدر لا يحتمل، ويجيء الزعيم المنتظر ليقودها، في الحال تلبى نداءه، وتصطف وراءه، وتمضي معه بلا تردد إلى نهاية الطريق، دون أن تعرف بدءا ماذا يريد.

حيث توفي المنصور بن أبي عامر خلفه ابنه من بعده، وكان دون أبيه قدرة وموهبة، ولم يبق غير سنوات ثم لحق به، وكانت هذه السنوات القليلة كافية لكي يتجمع كل أولئك الذين يريدون أن ينقضوا على السلطة، يريدونها لهم، أو لأناس يرضون عنهم، وتحول الأمر إلى فوضى، وكل الذين في الأندلس بدأوا يتقاتلون لغير سبب، أو لسبب مفرط في الأنانية، يهجمون ويرتدون، وخلال التقدم والانسحاب يدمرون وينهبون، حتى عاد كل شيء أسود قاتما في العين وفي الأمل، وخرائب وأنقاضا في الواقع وفي الحياة، وماتت الضمائر في النفوس، وانحلت عقدة الولاء للجماعة، واستبيحت كل الحرمات، وانقض كل خوان على جانب من الدولة، وأعلن نفسه أميرا، ووسط هذه المصائب برزت طائفتان– إن كان مثل هذا يعد تميزا– جماعة من الفقهاء، وللحق والتاريخ ليسوا كلهم، يقدمون لكل حدث فتوى ولكل جريمة مبررا، وفي خدمة الأقوى دائما، وطوائف من الشعراء، وكانوا صحفيي ذلك الأمس البعيد، يتغنون بمن يدفع أكثر، ولمن يقدم لهم رفاهية أعظم، وتحول

الفن الجميل والنبيل على أيديهم إلى سلعة تباع وتشتري، وغرقوا في الأنانية فأخذوا يدورون حول أنفسهم غزلا وخمرا ومديحا، وفي جو كهذا أمسك الخيرون بأنفسهم، وتواروا خجلا، أو هاجروا إلى أرض بعيدة، أو دفعوا الثمن معاناة وسجنا وقتلا.

واهتزت السلطة المركزية، وتهاوت الخلافة وسطا على أمجادها جماعة من السفهاء، وقام على أنقاضها قرابة ثلاثين من الأمراء، يتقاتلون طمعا، ويتدافعون حول أشبار، ويعلنون الحرب من أجل أمتار، ويدفعون كلهم الجزية للعدو المسيحي الرابض على الحدود في الشمال وهم صغار، ولم يكن بأقوى منهم لو اتحدوا.

وقد ورثوا في كل مكان ذهبوا إليه أمجاد الأمس الباذخة، ولم يضيفوا إليها جديدا، ومضوا يبعثرونها بلا حساب، شأن السفيه حين يتلقى ثروة لم يبذل فيها جهدا، ولا كلفته مشقة، وتحول الأندلس على امتداده العريض إلى مجتمع مستهلك، ينفق في بذخ دون أن ينتج شيئا، أو شيئا قليلا لا أهمية له.

طوال أيام "الفتنة"، وعلى امتداد عصر الطوائف، كانت الاستعانة بالأعداء من نصارى الشمال شيئا مألوفا، وكان هؤلاء يقاتلون إلى جانب كل المتصارعين، ويذكون بينهم روح العداوة والبغضاء، فهم هنا أو هناك إنما يقتلون أعداءهم على المدى البعيد، ويقبضون ثمن ذلك ذهبا وفضة نقدا، وسلاحا وملابس ومواشي وأغذية وخيلا وبغالا تساق إليهم عينا، وقبل ذلك كله حصونا وقلاعا يتنازل عنها الأمراء المسلمون لصالحهم، فيحتلونها بلا قتال، ويستولون على ما حولها من أراض دون أن يرسلوا سهما أو يخسروا جنديا واحدا.

في بداية عصر الفتنة كان في قرطبة العاصمة أكثر من فرد يتنازعون على الخلافة، ووراء كل واحد جموع جائعة، وأجانب مفسدون، وغوغاء مخربون، يلتفون حوله، ويغذون أطماعه. وبينما واضح الصقلبي يتولى الحجابة بعد مصرع الخليفة المهدي في ظل الخليفة هشام المؤيد، وكان محاصرا وضعيفا، ويطمح أن يصبح ما كأنه المنصور بن أبي عامر من قبل، كان سليمان المستعين- مطالب آخر بالخلافة- يطلب عون ملك قشتالة، ويعده بأن يتنازل له عن عدد من القلاع والحصون تقع على الحدود بين الدولتين، واستولى عليها المنصور من قبل تأمينا لحدود الدولة، فوجد الكونت القشتالي الفرصة مواتية لتوسيع رقعة مملكته دون حاجة إلى القيام بحملة حربية ضد الأندلس، فأرسل إلى واضح يعلمه بعرض سليمان المستعين، ويطلب إليه أن يتنازل له عن هذه الحصون والقلاع لأنها في قبضته، وإلا فسوف يساعد المستعين وأنصاره البربر.

لم يجرؤ واضح على اتخاذ القرار وحده، فدعا قاضي الجماعة والفقهاء والعدول، وأبلغهم رسالة شانجه كونت قشتالة، وطلب منهم الرأي، فأخرس الخوف من البربر والقشتاليين الإحساس بالشرف القومي في أعماق هؤلاء السادة، وكان رأيهم أن يستجيب لمطالب النصراني.

وفي شهر سبتمبر من عام ١٠١٠م، وقع واضح معاهدة مع شانجه تنازل له فيها عن أكثر من مائتي حصن وقلعة، واتخذ بقية الأعداء من نصارى الشمال من الحادث مثلا يحتذى، وأصبحوا بشيء من التهديد والصخب يستطيعون أن يأخذوا ما يريدون من حصون وقواعد، ولم يجرؤ أحد على أن يرفض لهم طلبا، وكان على القرطبيين، وقد وقعوا في قبضة حكام ضعاف مستبدين، أن يحنوا رءوسهم أمام أعداء دينهم، وأن يعانوا نزوات حكامهم،

وأن يتعرضوا للنهب والمظالم، وأن يتحملوا كل النتائج التي تعرض للشعوب حين تذهب للثورة، وتلقي بنفسها في أتون الفتن، دون أن يكون على رأسها قائد عظيم محنك، ووراءها هدف واضح محدد، ودون أن تدفعها أفكار سامية عظيمة.

وعلى أنقاض الخلافة قام عصر الطوائف وبلغ الغاية في الشر والخير على السواء، ومع التفرقة ضاعت القوة الواحدة الموجهة للسياسة الأندلسية العامة، واختفى المثل الأندلسي الأعلى، وظهر اليهود على المسرح السياسي، ومكنوا لأنفسهم في إمارة غرناطة زمنا، وتغيرت الأمور حول الأندلس تغيرا حاسما، فقد استيقظت إسبانيا النصرانية ومدت يدها إلى أوربا، ونظم أهل المغرب أمورهم وأقاموا دولة المرابطين القوية، وبين النصارى في الشمال والمغاربة في الجنوب، وقف ملوك الطوائف، وقد وهن أمرهم، وأضعفهم الترف والبذخ، لا يكاد سلطان أحد متهم يتخطى حدود مدينته، وسادت العصر كله روح من البذخ المسرف، والإجرام السافر الذي لا يتورع عن شيء من المطامع والغزوات إلى الخناجر والسموم.

وبين صخب الحياة اللاهية، وعربدة اللحظات الماجنة، وغيبة الوعي بالغد والمصير، استيقظ الأندلس كله على كبرى القوارع.

وقدر لمدينة طليطلة أن تكون أولى المدى الكبرى الذاهبة، ورغم أنها لم تسقط في حرب، ولم يخسرها المسلمون في قتال، بل ذهبت نتيجة خدعة ماكرة من ألفونسو السادس، واستسلام مهين من القادر يحيي بن ذي النون أمير المدينة، كانت الضربة القاصمة التي شالت بعدها كفة المسلمين ورجح جانب الكاثوليك، وكانت محنة حقيقية لما تمثله طليطلة من ثقل في حياة الأندلس السياسية والحربية والشعورية، فقد كانت عاصمة إسبانيا على

أيام القوط، وأحيط فتحها على يد طارق ابن زياد بأساطير جميلة، ذات خيال ممتع، عما لقي فيها من كنوز وثروات وسلاح، ولم تفقد أهميتها حتى بعد أن أصبحت العاصمة قرطبة.

في البدء آلى ألفونسو على نفسه أن يحافظ على حياة مسلمي طليطلة، وحياة نسائهم وأطفالهم، وألا يلحق ضررا بأملاكهم، وتعهد بأن يسمح لمن يريد أن يخرج بالخروج، ولمن يريد البقاء أن يبقى، ولا يطلب من هذا إلا أن يدفع ضريبة الرأس، ومن يهاجر يمكنه أن يعود في الحال، ويسترد أملاكه مهما عظمت قيمتها دون معارضة، وأجاب أهل طليطلة إلى كل الضمانات التي طلبوها فيما يتصل بحرية ممارسة شعائرهم الدينية، والحفاظ على جامعهم الكبير.

غير أن الكاثوليك مالبثوا أن تنكروا لعهودهم، ونقضوا المعاهدة لأسابيع من دخولهم طليطلة (٦ من مايو سنة ١٠٨٥م)، فحولوا المسجد إلى كنيسة في يوليو من العام نفسه، وحيل بين المهاجرين والعودة إلى ديارهم، وضيق على المسلمين في أداء شعائرهم أولا، ثم أكرهوا على اعتناق الكاثوليكية فيما بعد، حين أزفت شمس الإسلام الأندلسي على المغيب.

ولم يجد المعتمد بن عباد بدًا، وقد رأى الخطر الأجنبي ماثلا، أن يستعين بدولة المرابطين القوية في المغرب، وعندما حذره ابنه الرشيد من أن المرابطين إذا جاءوا قد لا يذهبون، كانت جملته التي لصقت في ذاكرة التاريخ حتى يومنا: "لأن أرعى الجمال في الصحراء خير من أن أرعى الخنازير في قشتالة". وقد استجاب المرابطون لدعوته، كان انتصار المسلمين باهرا في معركة الزلاقة، وجاءت بعد سقوط طليطلة بعام واحد، وقاتل المعتمد في بسالة نادرة، وصبر في المعركة صبرا لم يعهد مثله لأحد، وألقى عليه ملك قشتالة

بثقل جيشه كله، لأنه رآه وراء هذه الحرب، واشتد عليه ومن معه البلاء، وأثخن جراحا، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغه، وعقرت تحته ثلاثة أفراس، كلما هلك واحد قدم له آخر، وظل يقاسي حياض الموت، ويضرب يمينا وشمالا، وحين أطبقت جيوش المسلمين على جيش ألفونسو وأصحابه ونصرائه من كل بقية دول أوربا، وصدقوا الحملة عليهم، ولوا ظهورهم، وأعطوا أعناقهم، والسيوف تصفعهم، والرماح تطعنهم، وتفرق جيش ألفونسو شذر مذر، وغطت جثث جنوده ساحة المعركة، فلا يستطيع المرء أن يتحرك خلالها إلى على الجثث خوضا في الدماء.

ومع ذلك ارتكب المسلمون خطأ قاتلا، فقد قنعوا بالنصر في المعركة، ولم يتابعوا العدو في ارتداده، ولم يحرروا حتى طليطلة نفسها، التي من أجلها عبرت قوات المرابطين إلى الأندلس، مما أتاح الفرصة لألفونسو لكي يضمد جراحه، ويستجمع قواه، وتظل دولته شوكة في ظهر المسلمين طوال حياته وحياة خلفائه من بعده.

لكن أمير المرابطين يوسف بن تاشفين قرر، لأسباب سياسية ارتآها، وليس هنا موضع مناقشتها، أن يزيح أمراء الطوائف جميعا عن عروشهم، وبذلك تحول الأندلس إلى مقاطعة في إمبراطورية المرابطين، ثم الموحدين من بعدهم، وهي فترة بدأت مع آخر القرن الحادي عشر الميلادي واستمرت حتى الربع الأول من القرن الثالث عشر.

ورغم إحساس الأندلسيين القوي بأن حكامهم أجانب عنهم، ودونهم حضارة ورقيا وثقافة، كان عزاؤهم الوحيد على الدوام مقولة المعتمد التي ألمحنا إليها: لأن يخضعوا لإخوانهم في الدين خير من أن يقعوا في أنياب حكم أجنبي جائر لقوم كافرين، لا يرعون فيهم إلا ولا ذمة، وظل رضاهم عن

الموحدين ما بقي هؤلاء يدفعون عنهم عدوان النصارى في الشمال، حتى كانت وقيعة العقاب، وكانت بين الموحدين ومعهم الأندلسيون من جانب، والجيوش الكاثوليكية مجتمعة من جانب آخر، تضم ملوك قشتالة وليون ونبرة وأرغون وتساعدهم قوات أجنبية، ومن ورائهم البابا يخطط ويمنح البركات للجنود الذاهبين للميدان، ويمنح القتلى منهم قصورا في الجنة بلا حساب.

وهي معركة خسرها المسلمون، وحصد الموت أبرياء المقاتلين والمتطوعة، وبلغ الشهداء عددا لم تعرفه أي معركة أخرى في تاريخ الإسلام، حتى أن السائر في ريف المغرب– كما يقول ابن أبي زرع المؤرخ– كان يقطع المسافات الطويلة دون أن يرى رجلا، لأن زهرة الرجال ذهبت صرعى ذلك اليوم الأسيف.

وعندما يعجز أي نظام عن حماية حدوده فإن ذلك بداية النهاية، وقد ولدت هذه الهزيمة إحساسا عميقا لدى الأندلسيين بأن الموحدين أصبحوا عاجزين عن حماية الحدود الأندلسية في مواجهتهم اليومية مع نصارى الشمال، وقد مات الخليفة الموحدي غمًا بعد المعركة بقليل، وبدأت فترة من الفوضى، وظهرت طوائف تقاوم حكم الموحدين وتثور عليه، ويتقاتلون فيما بينهم أيضا، وبدأ المتنافسون يستعينون بملوك الشمال من النصارى، كما صنع أسلافهم ملوك الطوائف من قبل، دون أن يتعظوا والفارق أن ملوك النصارى في الشمال أصبحوا في القرن الثالث عشر أعز سلطانا وأقوى جيوشا، وأوسع أرضا، وبدأوا يتخطفون المدن الأندلسية واحدة وراء أخرى، انهارت الجبهة الشرقية فسقطت بلنسية، ومرسية، وجيان، وشاطبة وفي الوسط سقطت قرطبة عاصمة الخلافة من قبل، وإشبيلية بعدها، ولم يأت منتصف القرن الثالث عشر الميلادي حتى كانت معظم بسائط الأندلس وقواعده المهمة قد سقطت

في قبضة الدولة الكاثوليكية خلال ظروف دامية من المحن والاختلافات والفوضى والشقاء، وانكمشت رقعة الإسلام في الأندلس.

كان الإحباط الذي أصاب المسلمين في هذه الفترة مرا، فقد رأوا العديد من القلاع الإسلامية تنتقل إلى قشتالة المسيحية، ورأوا كيف خربت هذه أراضيهم وحقولهم وبساتينهم، وأدركوا أن عليهم، إذا أرادوا الحياة، أن يدافعوا بأنفسهم عن وطنهم وأراضيهم وأعراضهم، ومن هنا تفجرت الثورات في كل مكان، ثم تركزت حول شخصيتين: ابن هود وابن الأحمر.

في البدء كانت الأحداث إلى جانب الأول منهما، فانضمت إليه أغلب المدن الباقية في قبضة المسلمين، وطمح أن يستقل بالأندلس تحت راية الخليفة العباسي، واتخذ لنفسه لقب "المتوكل"، وقبله الأندلسيون كراهية في الموحدين لا حبًا فيه، فلم يكن الرجل الذي يبحثون عنه، فقد تعاون منذ البدء مع أعدائهم، وكانوا ينفرون في أعماقهم من الحكام المسلمين الذين يتعاونون مع الكفار، ويستعينون بهم على بقية إخوانهم المسلمين، وبعد قليل اغتيل ابن هود في مدينة ألمرية لأسباب نسائية، فخلا الجو لابن الأحمر، فأسرع الناس إليه رغبة في الوحدة والأمان، وما إن استقر به الحال قليلا حتى عقد هدنة مع ملك قشتالة ثم معاهدة أصبح ابن الأحمر بمقتضاها رعية له، ويدفع له الجزية، وتنازل له عن قلعة جيان.

وبدأ التأثير القشتالي يجتاح المجتمع الإسلامي، في الملابس والجيش والسلاح وأنماط السلوك وحياة الناس، مما أزعج المواطنين، وطوى جوانحهم على غضب مكتوم، وتوزعهم القلق والاضطراب، وبدأت الخيانات تعمل عملها، وأخذ النصارى يغذون كل أسباب الفرقة والفساد. ولكن قوة الرأي العام التي تجمعت استطاعت أن تغير هذه السياسة، وأن تحمل الحكام على

التخلي عن قشتالة المسيحية، والتوجه إلى المسلمين في المغرب والمشرق والاعتماد عليهم.

غير أن الأندلس كان قد بلغ المرحلة التي أشار إليها ابن خلدون وشهد الأحداث عن قرب، وهو ما يدعوه بوهن العصبية، أو إن شئت تدهور الولاء للجماعة، فقد شهد العصر ألوانا من التمزق والخيانة لا يعرف لها العالم الإسلامي مثيلا، فقد أصبح من المألوف أن يتآمر الأخ على أخيه، وأن يقتل الابن أباه لكي يخلفه في الحكم، وكلهم يلوذون بالعدو المسيحي، لاجئين حين يهزمون، ويطلبون عونه جيوشا وسلاحا وأموالا، وهو يرحب بهم، ويعينهم حين يكون ذلك في صالحه، ويسلمهم لأعدائهم حين يدفع له هؤلاء الأعداء الثمن، ومع الخيانة شاعت الرشاوى، وبدأ الأندلس يسلك طريقه نحو النهاية مهرولا، ويتلفت حوله فلا يجد من أحد عونا ولا نصيحة فالمغرب مشغول باضطراباته، ومصر متدهورة اقتصاديا، وعاجزة عن عون أحد، والأتراك أقوياء في الحرب، قصار النظر في السياسة، ومشغولون بحروبهم في البلقان، فلم يعيروا الأندلس أي انتباه، وفيما بعد سوف تجيء هزيمتهم القاصمة في معركة "لبانتي" على يد إسبانيا التي كانت يومًا شعبً مسلمًا.

في ٢ من يناير ١٤٩٢، وكان الوزراء الخونة، والمستشارون المرتشون من قبل الأعداء، قد أقنعوا أبا عبد الله الصغير ملك غرناطة بألاّ فائدة، وأن الشروط التي يقدمها لهم العدو ليس هناك أفضل منها، وكلهم قبضوا في الخفاء، فقبل أن يسلم مقابل ضيعة سوف يطرد منها فيما بعد، فجاء في الصباح الباكر الممطر يسلم مفاتيح المدينة للزوجين: إيزابيل ملكة قشتالة وفرناندو ملك أرغون، ورحل بعدها مباشرة هو وحريمه وجواريه، وحين اجتاز القصور والحدائق، وألقى النظرة الأخيرة وهو على قمة الجبل على غرناطة

عاصمة ملكه بكى، وجاءه الرد من أمه عائشة الحرة: ابك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه كالرجال.

وما حدث بعد التقسيم كان مرعبا، ولما يدرس، ولم تكتب صفحاته- بعد، لأننا لا نملك وثائقه بين أيدينا، فقد تنكر المنتصرون لكل حرف خطوة في المعاهدة، وحملوا الناس على اعتناق الكاثوليكية كرها، والإعدام والحرق ينتظر من يرفض، أو يراوغ، أو يشك في عمله، وبعد قرن وربع قرن من الزمان تقرر طرد المسلمين جميعا من إسبانيا، وكانوا قانونا في الأقل قد أصبحوا كاثوليكا، ولم يكن هؤلاء المطرودون عربا ولا غزاة، بل ينحدرون من أصول إسبانية بعيدة في جملتهم، وكل جريمتهم أنهم كانوا يتكلمون العربية، ويدينون بالإسلام، لقد استؤصلوا ماديا وجسميا، وويل للضعيف الذي يطمئن إلى وعد القوي أو يركن إلى حمايته، لقد ذهبوا، ولم يعد لهم أثر:

كـأن لـم يكـن بـين الحجـون إلـى الصـفا
أنـيس ولـم يسـمر بمكـة سـامر

الأسباب المعاصرون والحضارة العربية في الأندلس[**]

سلمى الحفار الكزبري[*]

الجديد في موضوع الحضارة العربية الإسلامية التي سطعت أنوارها على العالم من الأندلس، في العصورة الغابرة، وجنت منها الحضارة الإنسانية فوائد كبيرة، هو اهتمام المؤرخين والباحثين الإسبان بها في العصر الحديث.

إن اهتمامهم المتزايد بالكشف عن كنوزها مما يسترعي الانتباه، ويدل على تطور ملحوظ في نظرتهم إليها، إذ أمسوا يعدونها تراثا فكريا وفنيا مشتركا. لقد سماها المستعرب الأرجنتيني الدكتور "أوزفالدو ماتشادو"، في أبحاثه المنشورة في النصف الأول من القرن العشرين: "المعجزة العربية"، وقد سبقه وعاصره وتبعه رهط من المستعربين الأوربيين الذين اطلعوا على سماتها، وألقوا الأضواء على ما قدمت من خدمات جلى للفكر الإنساني، والتقدم عبر المؤلفات العلمية والفلسفية والأدبية التي وضعها أعلامها العرب المشهورون. أما اهتمام الإسبان الكبير في يومنا الحاضر بالكشف عن هذا التراث، وتلك الحضارة، والإقبال على تدريسها، ونشر الأبحاث والمجلات والكتب عنها، فإن له دوافع أخرى– في ظني– وهي زوال رواسب التعصب العرقي والديني الذي بلغ ذروة حدته في القرن الخامس عشر الميلادي، ولا ريب في أن البعد الزمني قد أثر في توضيح رؤيتهم لذلك الماضي الحضاري المشترك،

[**] العربي– العدد ٣٨٠– يوليو ١٩٩٠م.

[*] كاتبة من لبنان

فأخذوا يتبصرون فيه بروح صافية، وأفكار جديدة بناءة، ويعترفون بالآثار والبصمات العربية المترسخة في تقاليدهم، ولغتهم، وفنونهم، بكثير من الموضوعية والاعتزاز، إن من يزور المكتبات الإسبانية في سائر أنحاء إسبانيا، لا في الأندلس فحسب، يندهش لوفرة الكتب المنشورة، المخصصة لتاريخ الحضارة العربية فيها، فهي تشمل سائر العلوم والفنون، بأقلام مؤرخين معاصرين وأساتذة جامعيين، وكتاب وموسيقيين وشعراء.

إن من هذه الكتب القيمة التي أحاطت بمعالم تلك الحضارة دراسة موسعة وضعها الدكتور خوان فيرنيه، الأستاذ بجامعة برشلونة، وهو مستعرب وكاتب مرموق، نشرها باللغة الإسبانية سنة ١٩٧٨، بعنوان: الثقافة الإسبانية العربية في الشرق والغرب. ثم ترجم كتابه إلى اللغة الفرنسية، ونشرته دار سندباد في باريس سنة ١٩٨٥، بعنوان "بم تدين الثقافة لعرب إسبانيا؟"، ولقد صدره بمقدمة قال فيها: إنه رمى إلى غاية صعبة، هي جرد مآثر عرب إسبانيا في خدمة الثقافة، وأشار إلى أنه قصد بكلمة: "العرب" اللغة العربية التي شاعت في إسبانيا عامة، وفي الأندلس خاصة، في القرون الوسطى، والتي كان يتكلمها ويكتبها حينذاك أولئك الذين وفدوا إلى الأندلس من عرب وفرس وترك ويهود، إلى جانب الإسبان المستعربين أنفسهم. ثم أضاف ما يلي: "إن للغة العربية الفضل الأكبر في نقل العلوم الشرقية القديمة، والعلوم الإسلامية إلى اللغة اللاتينية واللغات المشتقة منها، أي إلى الغرب، مما كان له أثر كبير في انتشار العلوم الواسع في عصر النهضة الأوربية".

وجواب عن سؤال يتردد كثيرًا على ألسنة الناس، ويشغل بالهم، وهو: "من هم عرب إسبانيا؟ وكيف يكون لهم ذلك الأثر العظيم، وقد كانوا أقلية فيها، إبان الفتح، يقول الدكتور فيرنيه في كتابه الذي تقدمت الإشارة إليه:

(عرف الغزو الإسلامي، القادم من الغرب إلى إسبانيا عبر إفريقيا، موجتين عربيتين: أولاهما موجة موسى بن نصير، الحجازي المنبت، الدمشقي النشأة، سنة ٧١٢م، والثانية موجة بلج بن بشر، القائد الدمشقي الذي قدم إلى الأندلس سنة ٧٤٠م، ويقدر عدد جنود هاتين الموجتين بما بين ثلاثين ألفا، وأربعين ألف عنصر، من العرب والبربر، لكن العنصر العربي فيهما كان الأقوى، وإن كان أقل عددا، فتنشر اللغة العربية، والتقاليد والفنون الهندسية، في شبه الجزيرة الأيبيرية. وهكذا تمكنت هذه الطبقة التي سيطرت على إسبانيا كلها، في غضون مائة سنة فقط، من تعريب عدد كبير من الإسبان، وأضحت اللغة العربية هي اللغة السائدة في البلاد، لما كان للمسيطرين عليها سياسيا من نفوذ، ولتفوق ثقافتهم على ثقافة القوط المسيحيين).

وفي فصل موسع من كتابه عن العلوم والفنون العربية التي ازدهرت في الأندلس قال الأستاذ خوان فيرنيه: "إن من جملة الخدمات التي أداها العرب للثقافة الإنسانية نقل خبراتهم في الملاحة البحرية، وهندسة السفن وصنعها، ووضع الخرائط الجغرافية والمائية، بسبب السبق الذي أحرزوه في معرفة أحوال الطقس وتقلباته. لقد أدخلوا هذه العلوم إلى الأندلس في زمن مبكر، فإليهم يرجع الفضل في عبور المحيط الأطلسي بعد ذلك بقرون عدة. ولا ريب في أنهم استفادوا من تقدم الفينيقيين الذين سبقوهم في إتقان الملاحة، في سواحل البحر المتوسط، لكنهم طوروا تلك العلوم، وبرعوا فيها، إذ بنوا الأساطيل التجارية والحربية، وسيروها في مياه الخليج، وفي البحر الأبيض المتوسط، وأضحوا أسياد البحر إبان حكمهم للأندلس، ولقد كانت صناعة الورق آخر ما أدخلوه إليها في القرن الحادي عشر الميلادي، مما ساعد كثيرًا في نقل التراث، ونشر الذخائر العلمية النفيسة".

لقد أحاط الأستاذ فيرنيه بكل ما قدمه العرب من خدمات جلى للغرب إبان وجودهم الطويل المستمر في الأندلس، فتحدث عن تفوقهم في العلوم كالفلك والطب والجغرافيا والجبر والري والزراعة والفلسفة، وفي الفنون كالهندسة والزخرفة والشعر والموسيقا والأدب، مما حدا به إلى القول بأن غزوهم لإسبانيا كان غزوا ثقافيا وفنيا مذهلا بسرعته واتساعه، وأنه مازال يدهش المؤرخين، إذ لم يسبق له مثيل في التاريخ.

وإذا قرأنا كتاب اللغوي المعاصر، الأستاذ "رافائيل لابيسا" الذي نشره سنة ١٩٦٢ بعنوان: "تاريخ اللغة الإسبانية"، نجد في أحد فصوله القيمة ما يلي: "تأتي أهمية العنصر العربي في اللغة الإسبانية بالدرجة الثانية بعد العنصر اللاتيني، ويوجد في لغتنا اليوم ماينوف على أربعة آلاف كلمة عربية، ماعدا التعابير الدارجة على ألسنة الأندلسيين المأخوذة منها، فقد تبناها الناس وتوارثوها جيلا بعد جيل، بدافع تفاعل حضارة العرب في أرضهم قديما، وتأثرهم بأسلوب حياتهم وتفكيرهم، إلى جانب تأثرهم بلغتهم".

من تلك التعابير الدارجة في لغة الإسبان الأندلسيين، في يومنا الحاضر قولهم للصديق: "سلمك الله"، وللشحاذ: "ليرزقك الله"، وإذا عزموا على أمر ما يقولون: "إن شاء الله" وإن طربوا لشيء أو أعجبوا به، كالمغني والراقص ومصارع الثيران يصيحون: "**Ole**"، أي: الله، أما إذا ما مدحوا إنسانا طيبا فيقولون له: "ليبارك الله الأم التي وضعتك". إنها تعابير خاصة بالأندلسيين وحدهم، لا أثر لوجود ما يماثلها في سائر اللغات الأوربية المعروفة، بل ربما يوجد ما يشابهها في اللغة البرتغالية. كما أنه توجد في اللغة الإسبانية عامة كلمات وأسماء جغرافية كثيرة من أصل عربي، بعضها بقي على حاله، وأكثرها أصابه بعض التحريف، لكن هنالك قواميس خاصة، ترجع تلك الكلمات

والأسماء إلى أصلها العربي، وجلها يبتدئ بأل التعريف: "كالمخدة" و"الضيعة" و"الرز" و"السكر" و"الكحول" و"الجبر"، وغيرها كثير. أما الكلمات المحرفة، ذات الأصل العربي التي لا تبتدئ بأل التعريف، فمنها: "حتى" و"فلان" و"بطاقة" و"الشقيقة" أي: الألم الذي يصيب نصف الرأس وغيرها. إن المعاجم والدراسات اللغوية التي أشرت إليها قد وضعها علماء إسبان في هذا القرن، من أهمها قاموس ضخم، قدم له المؤرخ العالم: "رامون مندث بيدال"، نشر، وأعيدت طبعاته مرات عدة، بعنوان: "فوكس"، ومنها كذلك كتاب: "تاريخ أسماء المواقع الجغرافية العربية في إسبانيا" الذي حققه ونشره العالم المستعرب المشهور آسين بالاتيوس، واستند في فصوله إلى دراسات سابقة في هذا الموضوع، قام بها مستعربون معروفون، أمثال: دوزي، وكوديرا، وغوميث مورينو، وسيمونيه، وستيجر.

يقول المثال العربي: "ليس الخبر كالعيان"، وهو ينطبق على ما آلت إليه آثار الحضارة العربية وبصماتها الظاهرة الخالدة في يومنا الحاضر، لأن من يزور مدن الأندلس العريقة وقراها الوادعة، وسواحلها الفضية الممتدة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، يشاهد عن كثب عظمة تلك الآثار وجمالها، ويرى بدهشة، بصمات عربية في التكوين الفسيولوجي للأندلسيين، وطباعهم وتقاليدهم الاجتماعية، وميوليهم الفنية.

لقد ذكرني الخوض في هذا الموضوع أبياتا أنشدها أبو البقاء الرندي، في مرثيته المشهورة، إذ قال:

وكـــان مـــا كـــان مِـــنْ مُلـــكِ ومِـــنْ ملـــكِ

كَمَـا حكَـى عَـنْ خيـالِ الطَّيـف وسـنانُ

فاسْـــأل بلنســـيّة مـــا شــــأْن مرســـيَة

وأيــــن شـــاطبهُ أمْ أيــــن جيَـــانُ

وأيــــن قرطبـــة، دارُ العلـــوم، فكـــم

مــن عــالم قــدْ سَــمَا فيهــا لــهُ شَــانُ

قواعـــدُ كُــــنَّ أركـــان بـــلادِ فمـــا

عســـى البقــاءُ، إذا لــم تبــقَ أركــان

كتب الرندى مرثيته الرائعة عندما اضطرمت الفتنة في الأندلس، في القرن الثالث عشر الميلادي، وسقطت قواعدها الكبرى، ولم يبق للعرب سوى مملكة غرناطة الصغيرة، ولو بعث اليوم من قبره– رحمه الله– لذهل من خلود آثار أسلافه، وما تحظى به من اهتمام وإقبال عليها، لعله يجد في ترسخها وخلودها عزاء لحرقته على زوال صانعيها.

الآثار الإسلامية في شمال الأندلس[**]

د. ماريا ميلاجروس[*]

من المعروف أن مدينتي تطيلة وسرقسطة اللتين تبعدان عن بعضهما ٥٠كم فقط، كانتا مهمتين جدا بالنسبة للأندلس الشمالية. أسست تطيلة في القرن الثامن الميلادي بعد الفتح الإسلامي مباشرة، وكانت فترتها في أعظم أيام دولة بني قاسي في القرن التاسع. أما سرقسطة، وتأسيسها روماني، فكانت مدة ازدهارها أثناء القرن الحادي عشر، في فترة ملوك الطوائف، وهي مدة انتهت لسوء الحظ بغزوة المرابطين.

وقد بقي قليل من الآثار الإسلامية المنسوبة إلى هذه الفترة في مدينة تطيلة، لكنها لا تحصى في سرقسطة وفيها قصر الجعفرية، تلك الجوهرة المعمارية.

فرض الموقف الجديد بعض التغيرات على الجالية الكبيرة من المسلمين الذين كانوا يسكنون على تلك الأراضي. فبعضهم- وربما الصفوة منهم- هاجر إلى الجنوب، بحثا عن الحماية في إشبيلية أو في أي مدينة أخرى من المدن الجنوبية. رحلت معهم أسرة شاعرنا العظيم: أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة، الملقب بالأعمى التطيلي الذي كان مازال طفلا صغيرا في تلك الأيام بلا شك. وفيما بعد أوحى لهذا الشاعر ألم الانفصال عن مسقط

[**] العربي- العدد ٣٦١- ديسمبر ١٩٨٨.

[*] معهد الألسن- قسم اللغة العربية- مدريد- إسبانيا.

رأسه بتلك القصيدة التي مطلعها:

يـــا نـــازح الـــدار ســـل خيالـــك

ينبيـــــك أن صـــــرت كالخيـــــال

وبكل تأكيد- كما يقول محقق "توشيع التوشيح"، وهو البير مطلق- لو لم يسجل الصفدي موشحة الأعمى التطيلي هذه، لضاعت منا إلى أبد الآبدين.

مكث معظم السكان المسلمين في مكانهم عند وادي الابرو، ملتجئين إلى الامتيازات التي منحها لهم الملك الفونس الأول. ولو لم يكونوا هم الذين يزرعون بساتين وادي الابرو الخصبة، فمن كان سيحل محلهم؟

على أي حال، أراد الملك تشجيع استمرار الفلاحين الذين كانوا يدفعون الضرائب نفسها كما كان في الفترة السابقة بالضبط وهي العشر. وكذلك كانوا يحتفظون بمساجدهم وقضاتهم وقوانينهم الخاصة.

أما السكان الذين كانوا يمارسون حرفا، وخاصة في الفن المعماري، فقد كانوا يلبون طلبات سادتهم الجدد، لكنهم احتفظوا على مر السنين والقرون بالوفاء للفنون والأساليب الفنية الموروثة عن أسلافهم. وهكذا ظهر الفن "المدجن" الإسباني، وهو أسلوب فني، احتفظ بمعظم العناصر العربية، وتطور في الأراضي النصرانية.

في نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر بني قصر ملوك نفارة في مدينة أليتي على بعد ٥٠كم من تطيلة، بطلب من الملك النفاري كارلوس الثالث "النبيل". وفي هذا العمل اشترك بنشاط الفنانون المسلمون الذين كانوا يعيشون في تطيلة وسرقسطة أو الذين جاءوا من بلنسية.

وقد صنع هؤلاء الفنانون جميع بطائن السقوف التي كانت تغطي حجر القصر. كما تذكر لنا المخطوطات، وكان رئيس العمال في ذلك الحين سلامة السرقسطي، ثم لوبي بربكانو الذي كان له معمله في تطيلة ثم نقله فيما بعد إلى أليتي. ومن جهة أخرى، عينت الملكة ليونور العامل يوسف لتغطية سقف حجرتها. البلنسيون: وقد جاء محمد، وأمير وعصمت الباني أيضا ليصنعوا آلافا من القيشاني للمصلى الملكي.

وفي عام ١٤١٣م انتقل المسلمان لوبي شيديت وإبراهيم أبوتاي من تطيلة إلى أليتي، لبناء فرن لصناعة القيشاني للقصر. وفي عام ١٤٠٥ عينت الملكة ليونور المسلم التطيلي عز ليصنع حصائر أسل للبلاط، وقد كلف التطيلي لوبي المرابط بإحضار شجر الأترج من سرقسطة لحديقة الملك. وقد أدخل أيضا بعض المزروعات الجديدة مثل الزعفران.

كما بني جبا وقنوات من الرصاص لتوزيع المياه موجودة حتى الآن، وكذلك ساقية لرفع المياه من النهر إلى الجب ثم صنع العامل عوض الله بعض القنوات من الفخار لري حديقة الملك في عام ١٤١٠.

في بداية القرن التاسع عشر، في أيام الغزو الفرنسي، احترق هذا القصر، فضاع كل ذلك الغي الفني التراثي، وبقي جزء منه، وهو بعض اللوحات المزخرفة التي تزين جدران حجرة صغيرة– "كغرفة السفراء"– في الطابق الأول من القصر.

ذكريات الأندلس في أدب المهجر**

عيسى الناعوري*

لم يقتصر تأثير الأندلس في المهجريين على استكمال الوثبة التحريرية للشعر العربي التي بدأها الأندلسيون بالموشحات. فهناك تأثيرات أخرى، من استيحاء أمجاد العرب في ذلك الفردوس الذي أضاعوه، فبكوه مثل النساء، لأنهم لم يعرفوا كيف يحافظون عليه مثل الرجال!

وأكثر ما نجد ذلك التأثير الاستيحائي، في أدب المهجر الجنوبي، والسبب في ذلك هو أن شعراء المهجر الجنوبي يعيشون بين أقوام ذوي صلة وثيقة بالإسبان– أهل الأندلس– وهذه الصلة وحدها كافية للتأثير العميق المباشر. يضاف إلى ذلك أنهم قد اتصلوا ببعض شعراء الإسبان الذين يذكرونهم بعهود الأندلس البائدة، كالشاعر الشهير "فرانسيسكو فيلاسباسا"، الذي عاش مدة من عمره في البرازيل، واتصل به عدد من شعراء العرب هناك، ومن بينهم فوزي المعلوف.

وهو الذي وضع مقدمة المطولة الشعرية المشهورة "على بساط الريح"، وترجمها شعرا إلى اللغة الإسبانية. ويروي أنه كان يحب العرب كثيرا. وقد رثى أيامهم في الأندلس بقصائد جميلة، ترجم فوزي المعلوف إحداها بعنوان "غرناطة"، وهذه بعض أبيات من ترجمة المعلوف:

** العربي– العدد الخامس– إبريل ١٩٥٩.

* شاعر راحل من فلسطين.

غرناطـــــــــــــة، أواه غرناطـــــــــــــة

لـــم يبـــق شـــيء لـــك مـــن صـــولتِكْ

هــــل نهـــرُك الجـــاري ســـوى أدمـــع

تجـــري علـــى مـــا دال مـــن دولتـــكْ

والنّســــــــمة الغاديــــــة الرائحــــــة

هــــل هـــــي إلاّ زفـــــرة نائحـــــة

مــــا عُـــدت فـــي النهـــر كســـلطانة

جبهَتُهـــا فـــــي مائـــــه ســــاطعة

للقبــــــة الحمـــــراء فــــــي تاجهـــــا

وهــــــجٌ، وللمئذنــــــة اللامعــــــة

آه علـــــــى أمجـــــادك الضّـــــائعة

شـــــيَّعتُها بــــــالنظرة الدامعـــــة

على أنه قد يكون هناك سبب ثالث يذكر شعراء المهجر بالأندلس، ويجعل لها في شعرهم ونثرهم مكانا بارزا، ذلك هو شعورهم بأن هناك شبها بينهم وبين العرب القدامى، الذي انطلقوا من مشرقهم البعيد إلى بلاد الأندلس القاصية، واستطاعوا أن يجعلوا هناك دولة للأدب العربي الرفيع، وأن يجددوا في ضروب الشعر تجديدا رائعا. فهم، كذلك، مغتربون في أقاصي الأرض، ولكنهم استطاعوا أن يقيموا للأدب العربي مملكة عظيمة، وأن يدهشوا المشرق العربي بأدبهم الجديد الباهر، كما أدهشه من قبل أسلافهم العرب الأندلسيون بموشحاتهم الجميلة.

وما دمنا قد ذكرنا فوزي المعلوف فيما تقدم، فلا بد أن نذكر أن أثر الأندلس لم يظهر في شعره فحسب. بل ظهر كذلك في نثره. فقد وضع رواية عنوانها "ابن حامد أو سقوط غرناطة" وهي مسرحية ذات خمسة فصول. وقد مثلت على مسارح البرازيل، ثم نشرتها مجلة "العصبة" بدلا من عددها العاشر من سنتها الثانية عشرة، وصدرت في ديسمبر من عام ١٩٥٢، وأعيد طبعها مرتين بعد ذلك في لبنان.

وللشاعر إلياس فرحات موشح جميل بعنوان "تحية الأندلس" يستهله بقوله:

أيقظـــــــتُ ذكـــــــراك آمـــــــالا جســـــــاما

كُـــنَ فـــي أرجوحـــة الصّـــدرِ نيامـــا

وشـــــــجانا بُلبـــــــلٌ حولـــــــك حامـــــــا

فســـــقانا مـــــن أغانيـــــه مُـــــداما

قـــــــد رأى منـــــــك دلالاً وإحتشـــــــاما

فـــانثنى حيـــرانَ، صـــبًّا مُســـتهاما

لـــيس يـــدري كيـــف يُقْريـــك الســـلاما؟

وهي قصيدة طويلة استوحاها الشاعر من محاضرة ألقاها الشاعر الإسباني "فرانسيسكو فيلاسباسا"– المتقدم ذكره– في مدينة "سان باولو"، منوها فيها بأمجاد العرب في الأندلس، ومباهيا بأنه هو نفسه من أصل عربي أندلسي.

فهاج ذلك شاعرية "فرحات" و"القروي" فنظم كل منهما موشحا جميلا في ذكرى الأندلس. وكان الموشحان على نسق واحد، حتى لتكاد تتلاقى

فيهما بعض التعابير والأبيات عينها. وكانت قصيدة القروي بعنوان "تحية الأندلس" كذلك، يستهلها بقوله:

خَبِّرينـــــــا كيـــــــف نُقْريـــــــك السَّـــــــلاما

طيّـــــبَ النشْـــــر كأنفـــــاس الخُزامـــــي

والشَّـــــــذا المحيـــــــي بســـــــوريّة الفطامـــــا

غـــــادر الشـــــامَ وبيـــــروتَ وهامـــــا

فـــــي بـــــلاد حـــــرة لـــــم تُحْـــــنِ هامـــــا

وأنـــــوفِ لـــــم يُقـــــبِّلْن الرغامـــــا

خبِّرينـــــــا كيـــــــف نُقريـــــــك الســـــــلاما؟

وللشاعر إلياس طعمة "أبو الفضل الوليد" قصائد متعددة مستوحاة من ذكريات الأندلس، نذكر منها قصيدتين "في حمراء غرناطة" و"إلى فتاة أندلسية" من ديوانه "الأنفاس الملتهبة".

يقول في الأولى:

أمعاهِـــــدَ الحمـــــراء هـــــل تـــــدْرينا

مـــــاذا لقيـــــتِ مـــــن العـــــدا ولَقينـــــا

نَزَعـــــوك منـــــا بعـــــد تكســـــير الظّبـــــى

فبِـــــئْس مَـــــنْ فقـــــدوك تفتخرينـــــا

هـــــذا جلالـــــك عـــــن جَمالِـــــكِ مُخبـــــرٌ

فلأنـــــت رســـــمُ المجـــــدِ مـــــن ماضـــــينا

ويقول في الثانية:

هـــذا المُحيّـــا خلـــيطُ اللـــون والنّســـب
فيـــــه تلاقـــــى دم الإســـــبان والعـــــرب

علـــــى جبينـــــك تـــــاريخٌ صـــــحائفه
مكتوبـــــة بحـــــروف النُّـــــور والـــــذَّهب

يـــا قرطبيـــة، هـــل شـــاقتك قرطبـــة
مثلـــي، فهزَّتـــك نَوْبـــات مـــن الطَّـــربَ

لـــيسَ الجمـــالُ الـــذي أشـــتاق روعتـــه
مـــن حمـــرة الـــروم، بـــل مـــن ســـمرة العـــرب

ولم يكتف أندلسيونا الجدد- المهجريون- بأن استوحوا أمجاد الأندلس وأيامها الجميلة في شعرهم ونثرهم، فقد دعيت رابطة أدباء المهجر الجنوبي الكبرى في البرازيل باسم "العصبة الأندلسية"، وإليها ينتمي القسم الأكبر والأكثر شهرة هنالك من الأدباء والشعراء، من أمثال: القروي، وشفيق معلوف، وعقل الجر، وشكر الله الجر، ونصر سمعان، وحتى غراب، وغيرهم، ومن هؤلاء أديب كان يكتب في "العصبة" دائما بتوقيع "أندلسي" ولست أعرف من هو ذلك الأديب.

ولقد أصدر الشاعر "شكر الله الجر" مجلة هناك دعاها "الأندلس الجديدة".

وحينما ألقى الشاعر "فيلا سباسا" محاضرته في "سان باولو" عن الأندلس وتبارى أدباء العرب هناك في تكريمه- ومن بينهم القروى وفرحات-

ألقى كذلك شكر الله الجر قصيدة بعنوان الأندلسية يقول فيها:

أُسَــــــرحُ فـــــــي محاســــــنها العيونـــــــا
وأذْرف فــــــي معالمهــــــا الشّــــــئونا
بـــــلاد كيــــــف جـــــال الطـــــرف فيهـــــا
يـــــرى أثـــــر الجــــــدود الغابرينـــــا
تكـــــــادُ قبــــــورهم ممَّـــــــا حَوَتْـــــــه
يقدِّســــــها الـــــورى حجــــرًا وطينـــــا
تَقلَّــــــص ظلُّهـــــــم عنهـــــا وكانَـــــتْ
أعـــــزَّ بمــــــن حَـــــوَت مـــــنهم عَرينَـــــا

وله قصيدة عنوانها "على شواطئ الأندلس" يقول فيها:

لَـــــكَ الله فـــــي الغـــــربِ مـــــن شــــاطئٍ
إلـــــى الشّـــــرق فـــــي مجـــــده يَرْجـــــعُ
تمُـــــــرُّ فتخشــــــع فيــــــك النّفـــــوس
ومَــــــنْ ذا لماضــــــيك لا يَخْشَــــــعُ

ولشفيق معلوف قصيدة بعنوان "غرناطة" قال فيها:

لاعــــــينُ، غرناطــــــــة، ولا أثـــــــرُ
دالـــــتْ، فهيهـــــات تنفـــــع الــــذِّكَر
أهكـــــــذا النســـــــر بعــــــد رفعتــــــه

إلـــــى حضـــــيض الهـــــوان ينحـــــدِرُ!

تـــــالله قصـــــر الحمـــــراء، لا برحـــــت

ترويـــــك منـــــا المـــــدامع الحُمـــــرُ

أنـــــت علـــــى الشـــــرق عبـــــرةٌ بقَيـــــتْ

فـــــي مُقلـــــة الغـــــرب كلهـــــا عِبَـــــرُ

أما المهجر الشمالي فلا نعرف أحدا من أدبائه استلهم الأندلس في شيء من أدبه، أو استوحى منها ذكريات أو أمجادا قومية، سوى "أمين الريحاني". وهذا بالنسبة إلى الريحاني طبيعي جدا، فهو أديب قومي، وقف قلمه وفكره وحياته على أمته العربية. والأندلس جزء عظيم الأهمية من تاريخ الأمة العربية، والحضارة العربية، وشحنة كبيرة من أمجادها وبطولاتها وعلومها. ولقد كان غريبا ألا يلتفت إليها الريحاني، وأغرب من ذلك ألا يزور الأندلس بنفسه– لا بخياله وحده– ويقف على آيات الفن العربي الرائعة في بقايا قصورها ومعابدها.

لقد زار الريحاني الأندلس، وكتب عن زيارته تلك مقالا بعنوان "نور الأندلس"، نجده في مستهل الجزء الثالث من "الريحانيات". وقد جاء ذلك في المقال في ٢٢ صفحة من طبعة "الريحانيات" الثانية.

ولئن كانت تغلب على الريحاني روح الرحالة المؤرخ، فلقد كان في هذا المقال رحالة، وشاعرا خياليا، ومصورا عظيم البراعة.

وقد استهل الريحاني مقاله بقوله:

"من حسنات الحياة زيارة الأندلس، ومن الكفارات عن ذنوب الناطق

بالضاد الحج إلى الحمراء.. ومن حظي أني كنت من الحاجين..".

ويمضي في الحديث حتى يقول:

"طلول كانت بالأمس معاهد وقصورا، وقصور كانت يوما دائرة المجد وقطب الحبور. في قناطرها وقبابها وأبوابها صناعة دقيقة نادرة، وفي كل رسم من رسومها آية جمال تدهش حتى اليوم أرباب الفن. وفي كل بيت من الشعر على جدرانها درة من المعنى، أو زهرة الفن. وفي كل بيت من الشعر على جدرانها درة من المعنى، أو زهرة من التقوى، منقوشة في بلاط منقطع النظير لونا وتذهيبا.. لله عزك يا ابن أمية، ومجدك يا ابن عباد!

أي "عبد الرحمن" و"المنصور" و"المعتمد"، من شادوا معاهد العلم والدين:

طالما اهتزت النفس لذكر مآثركم، وطالما وقفت العين شغفا عند أسمائكم في التاريخ. ولطالما تاقت النفس مني والعين إلى مشاهدة ما تبقى من تلك الآثار المجيدة. وها قد استجيبت طلبتي، وتحقق أكبر آمالي، فقد وطئت أرضا عطرتها شمائل العرب، وجُلتُ بلادا عمَّرتها همم العرب، ووقفت أمام عروش هدمتها عصبية العرب..".

هكذا يتحدث الريحاني عن أندلس العرب، ويستوحي تاريخهم وأمجادهم من عمرانها ومن أطلالها، ويمجد أيامهم وحضارتهم، وعلومهم وفنونهم، بروح العربي المخلص المؤمن.

وأكتفي بهذا المقدار من الأمثلة على تأثير الأندلس في أدب المهجر من حيث إلهاب العاطفة القومية، وإثارة الإحساس الوطني.

غير أني أود أن أضيف ههنا إلى الأسباب التي تقدم ذكرها لهذا التأثير الأندلسي سببا آخر، وهو أن من دواعي الوطنية أن يعتز العربي بماضيه المجيد، وأن يذكر قومه به، ويحثهم على بناء مجد مثله.

وأدباء المهجر وشعراؤه عرب أحرار يحبون قومهم، ويحنون إلى أمجادهم، ويودون لبلادهم العربية المجد والرفعة، فلا عجب أن نراهم يستوحون أمجاد الماضي، لكي يبني قومهم أمجادا جديدة مثلها في الحاضر.

المقري أغرب سفير**

د. حسين مؤنس*

هذا الرجل محدث لبق، جمع فأوعى، وحافظ، ضم صدره من الأخبار والحكايات والتواريخ والأشعار ما لم يجمع مثله، إلا الأقلون من أهل الآداب، وقد وهب الله لأحمد بن محمد المقري، قدرة نادرة على الحكاية والرواية والاسترسال حتى ليصرف سامعه عن نفسه، وعن الموضوع الذي يطلب، وتنقضي الساعات بين شعر ونثر وخبر وحكاية وترجمة وتاريخ، منظومة كلها في سلك رفيع يكاد يخفى، حتى إذا انتبهت إلى نفسك لم تجد من الموضوع الذي طلبت إلا أشتاتا متفرقة ولمحات متباعدة، ولكنك لا تأسى على ما ضاع من وقتك، فإن كل ما سمعت منه لطيف طريف، ينفعك في مطالب شتى.

ولكنك إذا صبرت مع الرجل إلى آخر حديثه، واسترسلت معه كيف شاء حتى وصلت إلى آخر الكتاب، أحسست رغم كل شيء بأنه أعطاك صورة متكاملة لموضوعك، صورة تكاد تجمع كل ما تطلب، كأنما كان الرجل يؤلف على هذه الطريقة التي جرى عليها نفر من المؤلفين الألمان في نهاية القرن الماضي، وأطلقوا عليها طريقة الجشتالت، أي طريقة الصورة الكلية، الصورة الجامعة، لأنهم كانوا يؤلفون على طريقة الرسام الرمزي، نقطة هنا وخط

** العربي– العدد (٥٢)– مارس ١٩٦٣م.

* باحث مصري راحل في التاريخ الإسلامي.

هناك، وبضعة من لون في طرف، فإذا الصورة أمامك تنطق بما يريد، ولو ذهبت تبحث عن العين لم تجدها أو الأنف لم تعثر عليه، ولكن صورة الرجل أمامك تنطق بشبهه، فماذا تري؟

وأغرب ما في هذه الخصلة عند المقرّي أنها هي بالذات سبب امتيازه وذيوع اسمه، فإن كتابيه الكبيرين "نفح الطيب" و"أزهار الرياض" يدور كل منهما على ترجمة رجل، الأول يترجم للسان الدين بن الخطيب، والثاني يترجم للقاضي عياض بن موسى السبتي، ففي الكتاب الأول يبدأ المقري بمقدمة طويلة تستطرد وتطول حتى تصل إلى خمسة أجزاء من طبعة القاهرة سنة ١٩٤٩.

وهذه المقدمة هي سر شهرة الكتاب، فهي في الواقع صورة كاملة للأندلس، تاريخه وجغرافيته، وأدبه وفنه وعلمه، وقد جمع الرجل فيها من الأخبار والمقتطفات والنقول والأشعار والتراجم ما يمكنك معه أن تكتب في أي موضوع من موضوعات الأندلس مستعينًا بها وحدها.

وفي الكتاب الثاني يبدأ بنسب عياض، فتحمد الله وتحسب أنه يدخل في الموضوع هذه المرة منذ الصفحة الأولى، فإذا به يعود سيرته الأولى، ويترك عياضا ليتحدث عن موطنه سبتة، وما وصفها به الناس من شعر ونثر، ومن ظهر فيها من الأعلام، ومن سبتة ينتقل إلى غرناطة، ومنها إلى المرية أو قرطبة، ويطوف بك طوافا بعيدا، ثم يعود إلى غرناطة، ويتذكر صاحبه ابن الخطيب، فيمضي في حديثه، حتى ينهى الجزء الأول عند صفحة ٣٦٦ وأنت بعد لم تعرف عن عياض إلا القليل.

ولكن هذه الاستطرادات كلها ذات قيمة كبرى، فقد حدثك المقري عن

ناس وبلاد وأشياء لا تجدها عند غيره، وقدم لك- عفوا- زادا ينفعك في أكثر من مطلب من مطالب الأدب والتاريخ.

وحياة المقري في ذاتها طرفة مثل مؤلفاته، فهو رجل مغربي جزائري من أهل تلمسان، غادر مسقط رأسه، وهو بعد في مداخل الشباب إلى المغرب الأقصى، وعاش فيه ودرس، وتولى أرفع المناصب العلمية، ثم رحل إلى المشرق وقطع بقية أيامه بين مصر والحجاز والشام وفلسطين يدرس ويُدرس ويؤلف حتى تدركه منيته في القاهرة بعد عمر مديد. وأنت إذ تقرأ وصفه لرحلاته تحسب أنه رجل محظوظ سعيد، فهو لا ينزل بلدا إلا تهلل واستبشر ومدحه وأطرى أهله، ولكنك إذا أمعنت النظر، وتعمقت السطور أحسست برجل محزون مثقل القلب دائم الهم، حمل من متاعب الأيام ما لم يحمله غيره، وأحس بما أصاب الإسلام على أيامه من آلام ومآس أضعاف ما أحس به غيره. وهو يضحك ليستر الآلام، ويؤلف لينسى الهموم، دون إسراف في شكوى أو أثقال بتألم، وهذه في رأيي من أجمل خصال هذه الرجل الفريد.

ولد أبو العباس أحمد بن محمد بن يحيي التلمساني المعروف بالمقرّي حوالي سنة ١٠٠٠ هجرية (١٥٩١- ١٥٩٢ ميلادية) في مدينة تلمسان على شاطئ البحر في غرب جمهورية الجزائر، وكان أجداده من قرية جزائرية تعرف بمقرّة، وكانوا من أهل الفضل والنباهة والعلم، فقد كان عمه أبو عثمان سعيد المقرّي مفتيا لتلمسان، وكان أبوه محمد بن يحيي التلمساني من أهل العلم والدراية، والمقري يذكر أباه في مؤلفاته ويروي كيف أخذ عنه علما كثيرا.

وقد درس أحمد المقري في تلمسان دراسة واسعة، حتى قرأ صحيح البخاري على عمه سبع مرات، وروى عنه الصحاح الستة بسنده وإسناد

شيوخه إلى القاضي عياض، ثم غادر تلمسان إلى فاس، لأسباب لا يفصح عنها، وهو من هذه الناحية متستر جدا، ينتقل من بلد لبلد دون أن تعرف السبب، ولكنه يجمل أسباب تنقله الدائم وترحاله المتصل في عبارة يسيرة ساقها في مجال الاعتذار عن عدم التأليف عندما طلب إليه ذلك، قال: "...وأنْى يطيق سلوك هذا المضيق من اكتحلت جفونه بالسهاد، ونبت جنوبه عن المهاد، وسدد نحوه الأسف سهمه، وشغل باله ووهمه، فما سام بارقة أمل إلا في النادر، ولا ورد منهل صفاء إلا وكدره مكدر غادر، وقد كثر الجفاء، وبرح بلا شك الخفاء، واستوخمت الموارد والمصادر..." وهي عبارة طويلة تنطق بما قاساه على طول أيامه من الحسد والمكر والخداع.

دخل المقري مدينة فاس شابا يطلب العلم، فأحاط منه بالكثير في فترة وجيزة، ثم عاد إلى تلمسان لفترة قصيرة، ثم بارحها إلى فاس مرة أخرى، وهناك نجده في سنة ١٠٢٢هـ ١٦١٣م أماما لجامع القرويين ومفتيا فيه، وقد وصل المقري إلى هذه المنزلة، وهو بعد في الثانية والعشرين من عمره، مما يدلنا على سعة علمه ونضوج شخصيته، فإن غيره لم يكن يصل إلى مثل هذه المرتبة إلا في السن العالية.

وبعد خمس سنوات في فاس طار ذكره خلالها، تاقت نفسه إلى الحج إلى بيت الله الحرام، فرحل إلى المشرق ونزل مصر سنة ١٠٢٧هـ ١٦١٧م، ويبدو أن الحج لم يكن إلا تعلة تعلل بها ليخرج من المغرب، فقد أخذ معه كتبه كلها، نعم إنه يقول إنه ترك كتبه هناك، وإنه ألف كتبه بعد ذلك من حفظه، ولكن الحقيقة، كما تدل على ذلك كتاباته، أنه أخذ معه من الكتب ذخيرة كبرى. ثم إنه عندما نزل مصر نزلها رجلا ميسورا على مال، بدليل أنه لم يكد يستقر فيها حتى تزوج من بيت السادة الوفائية، ولم يكن يستطيع

مصاهرة هؤلاء السادة إلا رجل أكثر من ميسور، وزواجه في مصر يدل على أنه كان قد عول على الاستقرار فيها. ومن مصر ذهب إلى الحجاز وأدى الفريضة سنة ١٠٢٨هـ ١٦١٨م، ثم عاد إلى القاهرة.

ويبدو أنه لم يجد في القاهرة ما كان يطلب من المكانة، فإنه له أبياتا من الشعر تدل على أنه لم يوفق إلى ما كان يتمنى:

تركـــت رســـوم عـــزي فـــي بـــلادي
وصـــرت بمصـــر منســـيَّ الرســـوم
ونفســـي عفتهـــا بالـــذل فيهـــا
وقلـــت لهـــا: عـــن العليـــاء صـــومي
ولـــي عـــزم كحـــد الســـيف مـــاض
ولكـــن الليـــالي مـــن خصـــومي

ولهذا نجده يشد رحاله إلى بيت المقدس سنة ١٠٢٩هـ ١٦١٩م ولم يطل به المقام هناك، فعاد إلى القاهرة حيث أقام إلى سنة ١٠٣٧هـ ١٦٢٧م دون أن يوفق في الأغلب إلى وظيفة كبرى من وظائف التدريس، فرحل إلى القدس ثانيا ومن هناك ذهب إلى الحجاز حيث حج وقرأ الحديث في الحرم النبوي على صاحبه أزكى السلام، وقد أشرقت نفسه بحماس عظيم عندما انتقل إلى مكة، فألقى دروسه هناك، واجتمع إليه الطلاب وبدأ اسمه يعلو، وقد تكررت زيارته للأراضي المقدسة بعد ذلك حتى بلغت حجاته سبعا.

ثم رحل إلى الشام، وهناك تفتحت له الأبواب على ما كان يتمنى، فقد وجد هناك جالية مغربية كبيرة، رحبت به وأحسنت استقباله وأطارت صيته،

فعاد إلى مصر وأخذ ما استطاع من أسبابه، ومضى إلى دمشق ليستقر فيها، وجلس يقرأ صحيح البخاري في الجامع الأموي تحت قبة النسر، وتزاحم الناس لسماعه، حتى ضاق بهم المقام، فانتقل بعد أيام إلى صحن الجامع، وأخذ يحاضر "تجاه القبة المعروفة بالباعونية" وتقاطر الناس عليه، وأقبل أكابر علماء دمشق يسمعون منه، واستمرت دروسه بنجاح عظيم حتى أصبح سامعوه ألوفا، وكان يوم ختمه حافلا جدا، اجتمع فيه الألوف من الناس وعلت الأصوات بالبكاء، فنقلت حلقة الدرس إلى وسط الصحن إلى الباب الذي يوضع فيه العلم النبوي في الجمعات من شهر رجب وشعبان ورمضان، وأتي له بكرسي الوعظ، فصعد عليه، وتكلم بكلام في العقائد والحديث لم يسمع نظيره أبدا، ونزل عن الكرسي، فازدحم الناس على تقبيل يده، وكان ذلك نهار الأربعاء سابع عشر شهر رمضان سنة ١٠٣٧هـ ١٦٢٧م، ولم يتفق لغيره من العلماء الواردين على دمشق ما اتفق له من الحظوة وإقبال الناس، كما قال المحبى في "خلاصة الأثر".

وهذا الإقبال هو الذي حبب إليه الشام وأهله، ولهذا نجده يمدح دمشق، وأهلها في مقدمة "نفخ الطيب" مدحا طويلا، واستقر عزمه على أن يقيم هناك إلى آخر عمره، فمضى إلى مصر ليأخذ ما بقى من أسبابه، فإذا كان ذلك نزل به المرض، ولزم الفراش حتى مات في جمادى الآخرة سنة ١٠٤١هـ يناير ١٦٣٢م وهو في الحادية والأربعين من العمر، وعلى أبواب الشهر وبعد الصيت.

ونظرة عامة على هذه الحياة القصيرة تدل على أنه كان قليل الصبر متعجلا للشهرة والمكانة، فقد نزل مصر وهو في السابعة والعشرين من عمره، ومصر إذ ذاك في زحمة من العلماء، والجامع الأزهر حافل بهم في كل فن،

وكان لابد من صبر حتى يصل إلى ما يريد، خاصة وقد أحسن الناس لقاءه وصاهر من أرفع بيوتات القاهرة، ولكنه تعجل ومضى يضرب في البلاد في نشاط وسرعة، ولاشك أنه كان واسع العلم عظيم الاستعداد للمحاضرة، كما رأينا من توفيقه في دمشق، وفي ثنايا كتبه نرى أن مكانته في مصر كانت عظيمة، فقد جالس الكبراء، ورجال الدولة وصاحب كبار العلماء، وحاضر في الجامع الأزهر، ولكنه- فيما يبدو- كان يطمع في مشيخة إحدى المدارس الكبرى، كما فعل ابن خلدون قبله، فلما طال به الانتظار- في تقديره- مضى عن مصر، وتجول حتى وجد في دمشق ما يطلب، فقد عرض عليه صديقه أحمد بن شاهين مشيخة المدرسة الجقمقية، وكان هذا هو السبب الرئيسي الذي حفزه إلى الانتقال إلى الشام نهائيًا.

كان أبو العباس أحمد المقري إذن من أئمة شيوخ الحديث في عصره، وكان إلى جانب ذلك واسع العلم جميل المحاضرة، يتكلم في الجموع فيثير المشاعر ويستدر الدموع، بما يلقى من الأخبار والمواعظ، ولو طال به العمر لبلغ في هذا المجال إلى أقصى مما كان يتمناه.

ولكن شهرته الحقيقية لم تأت من هذه النواحي، وإنما من ناحية كان هو يحسب أنها أقل أدواته، وهي العلم الواسع بشئون الأندلس والمغرب.

ذلك أن هذا الرجل جمع في صدره من العلم بتاريخ الغرب الإسلامي كله ما لا أظن أن غيره وصل إليه، باستثناء ابن خلدون، وربما امتاز عنه ابن خلدون بعلمه الواسع بشئون المغرب وقبائله وتاريخه، ولكن علم المقري بالبلاد نفسها وأهلها وأدبها وفنها كان غريبا حقا، وعلمه بالأندلس كان أوسع بكثير من علمه بالمغرب، فما من كتاب أندلسي أو ديوان شعر لواحد من شعرائه- على كثرتهم- إلا قرأه المقري هذا وحفظ منه الكثير، ولم يقتصر

حفظه على القصائد بل تعداه إلى الدواوين، وكان يحفظ إلى ذلك تراجم الشعراء والفقهاء والأمراء والخلفاء على نحو يثير الدهشة حقا.

وقد أقبل المقري بهذا العلم الزاخر إلى الشرق بعد سقوط غرناطة بنيف وقرن من الزمان، وكانت مأساة اضطهاد من بقي من أهلها المسلمين على أشدها، وكانت جماعاتهم تفد على بلاد المسلمين هاربة من المذابح وتقص على الناس مأساتها وتحدثهم بما كان للعرب والإسلام في الأندلس من مجد عظيم، ومأساة الإسلام في الأندلس واحدة من المآسي التي لم يشعر المسلمون بفداحتها إلا بعد أن تمت وانقطع الرجاء في استعادة ما كان، فكان الناس يجدون في الاستماع إلى حديث الأندلس شيئًا من السلوى عن المصاب، وكانوا يأملون طوال القرن السادس عشر كله أن ينهض خلفاء آل عثمان لاستعادة الوطن السليب، وفكر بعضهم في ذلك تفكيرا فاترا، ثم انصرفوا عنه، فلم يبق للناس من عزاء إلا الاستماع إلى الحديث واستقصاء الأخبار.

في هذا الوقت دخل أحمد المقري المشرق، وتحدث إلى الناس في مصر بتاريخ الأندلس وما كان لنا من العز فيه، واهتم بأحاديثه نفر من أهل السلطان، ولكن وقع هذه الأحاديث في الشام كان أبعد وأعمق أثرا، فقد حدثهم الرجل بأن الأندلس كانت شام المغرب، وأن الجغرافيين يقولون إن الأندلس شامية في هوائها، وأن مدن الأندلس تشبه مدن الشام حتى سميت إشبيلية حمصا، وغرناطة دمشق، وأن رصافة دمشق لها أختان في الأندلس، واحدة في قرطبة وواحدة في بلنسية، وأن الذين فتحوا الأندلس وعربوها هم جند الشام، وأن بني أمية الأندلسيين واصلوا مجد بني أمية المشارقة في أقصى الغرب، وهذا كله صحيح، وهو جدير بأن يفتن السامعين من أهل

دمشق، ويغريهم بالإقبال على هذا الرجل الطريف الذي طوى صدره الأندلس طيا.

وكان المقري يلقي بأحاديث الأندلس جملة يسيرة بعد جملة في مجالسه مع أهل العلم وسروات الناس، فجعلوا يستزيدونه منها، وهو يستجيب ويتدفق، وأعجب به لهذا رجل من سروات الشام يسمى أحمد أفندي بن شاهين، لابد أنه كان من أهل الحل والعقد، فإن المقري يخاطبه في إجلال وتقدير عظيمين، ولابد أنه كان كذلك من أصل تركي، واحد من أولئك الذين أعجبوا بالعرب وحضارتهم وأدبهم فأقبلوا يدرسون في شغف، وفي ذلك العصر كانت العربية تنشر سلطانها على الأتراك نشرا حثيثا، وكان علماؤهم يقبلون على الدرس والتأليف بها كما نرى في مؤلفات مصطفى طاشكبرى زادة وحاجي خليفة، وهي حركة لم يكتب لها الازدهار لأسباب سياسية شتى.

نقول إن هذا الرجل أحمد أفندي بن شاهين، أو الشاهيني كما يسميه المقري أحيانا، أعجب بحديث المقري، وخاصة ما دار منه على لسان الدين بن الخطيب كاتب غرناطة وساعدها الأكبر، وخاتمة الفحول في تاريخ الفكر الأندلسي، وكان المقري معجبا به إعجابًا شديدًا، ربما لأن أحد أجداد المقري وهو محمد بن محمد المقري كان من شيوخ لسان الدين، ولهذا كان المقري يحفظ من رسائله وأشعاره شيئا كثيرا جدا، وكان قد حمل معه إلى المشرق شيئا أكثر من مؤلفاته ورسائله وأشعاره.

ولهذا فقد طلب أحمد بن شاهين إلى أحمد المقري أن يؤلف له كتابا عن لسان الدين، وأحب المقري أن يعتذر عن عدم استطاعته الاستجابة لهذا المطلب، ولكن صديقه وراعيه أصر عليه، فلم يجد بدا من الإذعان وشرع في التأليف.

ورأى المقري أن يمهد لكتابه بمقدمة عن الأندلس، ومن حسن الحظ أنه رسم خطة هذه المقدمة على أن تكون كتابا كاملا عن ذلك الفردوس العربي المفقود، ويبدو أنه كان يحسب أن أحدا لن يكتب في الموضوع بعده، فحرص على أن يكون الكتاب شاملا لكل شيء، وساعده على ذلك محفوظه الواسع، والكتب الكثيرة التي أتى بها معه.

وقد رسم المقري كتابه على نحو فريد لم يسبقه إليه مؤلف غيره، وأعانه على ذلك أن الأندلس بلد استتم تاريخه. قطر عربي ولد والدولة الإسلامية في شبابها ثم غالته المقادير والدولة كلها في انحدار، أي أن تاريخه له بداية ونهاية، مما يجعل هذا التاريخ أشبه بالقصة التامة الفصول، أو كأنه مأساة إغريقية طويلة يهبط عليها الستار والنظارة في مقاعدهم يبكون.

وقد قسم المقري كتابه على ثمانية أبواب، الأول في صفة الأندلس وجغرافيتها، والثاني في فتحها وأمرائها من قبل بني أمية، والثالث في ذكر أمرائها وخلفائها من بني أمية ومن أعقبهم من ملوك الطوائف، والرابع عن قرطبة، والخامس فيمن رحل من الأندلسيين إلى المشرق، والسادس فيمن وفد على الأندلس من المشارقة، والسابع في "نبذة مما من الله به على أهل الأندلس من توقد الأذهان"، والثامن الأخير في "تغلب العدو الكافر على الجزيرة".

وكل باب من هذه إنما هو كتاب كبير يحشد المقري فيه كل ما حضره في الموضوع، ويورد فقرات طوالا من الكتب، حتى أنه في الفصل الأول يورد بضع رسائل كاملة مثل رسالتي ابن حزم، والشقندي في فضل الأندلس، ويتبع الأولى منهما برسالة ثالثة لابن سعيد في المعنى نفسه، والبابان الثاني والثالث إذا أضيف إليهما الأخير اجتمع لنا تاريخ كامل للأندلس، أما فصل قرطبة فلا

يقتصر على وصفها، بل يشمل مقارنات مع بلاد الأندلس الأخرى، ويقص عشرات الحكايات من نوادر أهلها وأشعار شعرائها، ويتمم ذلك الموضوع ما يحكيه في الفصل السابع، أما فصلا التراجم، فهما من أمتع فصوله وأحفلها بالفائدة والمعنى، فالأول يرينا كيف انتقل العلم المشرقي إلى الأندلس، والثاني ترى من خلاله كيف استعاد المشرق علمه عن طريق من هاجر من علماء الأندلس بعد انتشار عقد الخلافة خلال القرن الحادي عشر الميلادي وبداية المأساة.

وهذه في رأي الباحثين أحسن خطة وضعها مؤلف عربي في الكتابة عن بلد من بلاد العروبة، فقد سمحت له بعرض كل شيء يستحق العرض، فإذا أضفنا إلى ذلك استطراداته التي أشرنا إليها، وخروجه من موضوع لموضوع تبينا القيمة الكبرى لهذا الجزء من "نفح الطيب" للمقري ككنز للمعلومات عن الأندلس في كل ميدان.

وبعد هذا كله، بدأ المقري يقص سيرة ابن الخطيب، وهي في الواقع ليست سيرته وحده، بل سير أساتذته ومعاصريه وتاريخ كامل لغرناطة والمغرب من أوائل أيام بني نصر (بني الأحمر) إلى سقوط غرناطة، وفي هذا القسم من الكتاب تتسع استطرادات المقري حتى يكاد يخفى الخط الرئيسي للكتاب، ولهذا فإن هذ القسم من الكتاب عسير المطالعة، خاصة وأن الذين نشروا كتاب المقري هذا في أوربا اقتصروا على قسمه الأول وبقيته المطبوعة في بولاق ثم في مطابع أخرى في القاهرة غير مفهرسة، وكتاب كهذا لا يقرأ بغير فهارس مفصلة، ولا يعرف قدره إلا من استعان في قراءته ببيان واف عن كل ما فيه.

وعنوان الكتاب بعد ذلك متكلف بعض الشيء: "نفح الطيب، من

غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب". وسجعات العنوان تنبئ عن كتاب ثقيل، ولكنها روح العصر حفزت المقري على هذا التكلف، لأن الكتاب بعد ذلك سهل لطيف، فيما عدا المقدمة، فقد تبالغ فيها المقري فأثقلها بعض الشيء.

والكتاب الرئيسي الثاني للمقري موضوعه في الظاهر ترجمة لعلم من أعلام الفكر المغربي في القرن الخامس الهجري والنصف الأول من القرن السادس وهو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (١٥ شعبان ٤٧٦– ٧ جمادى الأولى أو رمضان ٥٤٤هـ ٢٩ ديسمبر ١٠٣٨– ١٣ أكتوبر أو ١١ ديسمبر ١١٤٩)، والكتاب يسمى "أزهار الرياض في أخبار عياض".

وعياض بن موسى من أجل من أخرج المغرب من أهل العلم، وكتبه الكبرى لا تزال بين أيدينا تقرأ كل يوم، منها: "الشفا في التعريف بحقوق المصطفى"، وهو ألطف وأبلغ ما كتب في شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم وفضائله، ثم "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك"، وهو عمدتنا الأساسية في طبقات المالكية إلى أيام عياض.

ولا شك أن المقري، وقد ترجم لعلم أندلسي، أراد أن يترجم لعلم مغربي حتى يقوم بحق وطنه الذي ولد ونشأ وتعلم فيه.

غير أننا نلاحظ أن عياضا وابن الخطيب كانا في حقيقة الأمر أندلسيين مغربيين، فقد درس كلاهما وعاش في المغرب والأندلس، وحياتهما رمز على وحدة التاريخين الأندلسي والمغربي.

وربما كان هذا هو الذي حفز المقري على اختيارهما، لأنه هو نفسه

كان مغربي الميلاد والنشأة ولكنه كان أندلسي الروح، وأنت إذ تقرأ شيئًا له تحس أنك تقرأ لأندلسي صميم، كأنه عاش في هذا القطر حياته كلها، واختلط حبه بدمائه، وهو في الحقيقة قد تبنى الأندلس بعد ضياعه، وقام في بلاد المشرق يتحدث عنه ويذكر الناس بمحاسنه، ولولا أن العبارة ثقيلة لقلنا إن كتابه الأول أعظم وأجمل مرثية كتبها عربي عن الفردوس المفقود.

وحنين المقري إلى الأندلس الذي لم يره، وانتسابه الروحي إلى بلد عربي مضى مع أمس الدابر هو الذي جعل منه أديبا ومفكرا عربيا إسلاميا بصورة قل أن نجدها عند غيره، فهو أندلسي مغربي جزائري مصري حجازي شامي، وبلاد العرب كلها أوطانه كما يقول النشيد العربي الحديث، وما أورده المقري في فاتحة "النفح" من مدائح لبلاد العرب جميعا يؤيد ذلك، ولقد جمعت في دراسة ماضية ما ذكره الرجل عن أنهار بلاد العروبة، فوجدته قد ذكر أعاظمها بتفصيل من نهري المنيو والأبرو في شمال إسبانيا إلى وادي أم الربيع في المغرب الأقصى ثم إلى الرافدين في أرض العراق، وهو يتحدث عنها ويذكر فضائلها، لأنها كلها أنهاره، ومجاريها شرايين في جسد واحد، هو جسد العروبة الفسيح.

وكتاب المقري عن عياض يختلف عن كتابه عن ابن الخطيب، فإن ترجمة عياض في حقيقتها قصيرة، وحياته كرجل كانت بسيطة قليلة الأحداث، ولكن المقري اتخذها وعاء ليصب فيه ما فاته ذكره في النفح، ومن ثم فهو مجموع شذرات ومقتطفات وحكايات وأشعار من كل لون، وفي هذا الكتاب تتجلى لنا ظاهرة الاستطراد على أوسع صورها، وفي معظم أجزاء الكتاب يختفي الخيط الرئيسي، ويصبح الكتاب مجموعة من المختارات والتراجم، حتى ليشبه من بعض الوجوه "مستطرف" الأبشيهي.

وللمقري مؤلفات أخرى، ولكنها لا تقارن بحال بكتابيه الرئيسيين، فهو يؤلف كتابا يسمى: "الدر الثمين في أسماء الهادئ الأمين" وآخر عنوانه "فتح المتعال في وصف النعال" يذكر فيه ما قيل في نعلي الرسول صلى الله عليه وسلم من شعر ونثر، وينشئ كتابا عنوانه "اتحاف السادة في جوامع حروف الزيادة" أي الصور المختلفة التي تجمع فيها حروف الزيادة مثل قولنا: سألتمونيها، والمقري يجمعها في قوله: "أهوى تلمسان" وهي بلده.

وهذه المؤلفات الأخيرة كتب بسيطة لا تخلد اسم مؤلف، مما يدل على أن الرجل كان إذا خرج عن الأندلس والمغرب لم يجد ما يؤلف فيه إلا البسائط، وربما كان هذا هو الذي جعل طريقه في مصر عسيرا، فقد أتى يطلب مشيخة، أي أستاذية، من مشيخات الحديث في بلد جمع الفحول في ذلك الميدان، وإذا كان هو قد قرأ البخاري سبع مرات، فقد كان في مصر من قرأه عشرين أو ثلاثين مرة، وسط هؤلاء أحس الرجل أنه ينفق وقته عبثا.

إلى حين قريب لم يكن لدينا عن الأندلس إلا نفح الطيب وكتب أخرى أقل قيمة، أي أن هذا الرجل صاحب الفضل الأول في إحياء ذكرى الأندلس ولفت نظرنا إلى أمجاده. إن المقري من هذه الناحية كان أغرب سفير في الوجود: سفير بلد ذاهب إلى عالم كان يدخل إذ ذاك في نوم عميق طويل.

ابن جبير العالم والفقيه[**]

د. نقولا زيادة[*]

يعتبر ابن جبير من كبار رحالي العرب، وهو- ولا شك- أكبر رحالي القرن الثاني عشر الميلادي.ولد الرجل في بلنسية بالأندلس سنة ١١٤٥م- ٥٤٠هـ وسمع من أبيه، وأخذ القراءات عن ابن أبي العيش، وعني بالأدب والشعر فبلغ فيهما الغاية، وخلف شعرا كثيرا. وأكبر آثاره الأدبية رحلته المسماة "تذكرة بالأخبار عن اتفاق الأسفار".

كان ابن جبير كاتبا للسيد ابن سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة، وكان هذا يوما على شرابه، فاستدعى ابن جبير ليكتب له، وناوله كأسا، لكن ابن جبير أظهر الامتعاض من ذلك لأنه لم يشرب قط في حياته. لكن السيد أقسم عليه أن يشرب منها سبعا، فقبل ابن جبير مرغما، فكافأه ابن سعيد بأن ملأ الكأس له سبع مرات بالدنانير، فقرر ابن جبير ساعتها أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير، وقد راق ذلك للسيد، فأسعفه وأعانه.

كان خروج ابن جبير من غرناطة يوم الخميس في ٨ شوال سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م ودخل الإسكندرية بعد شهر قضاه على ظهر البحر بين سبتة وبينها، وكانت سفرته تلك في سفينة للجنوبين. ومن الإسكندرية انتقل ابن جبير إلى القاهرة، ثم مر بقوص وعيذاب وجدة في طريقه إلى الأماكن

[**] العربي- العدد ١٨- مايو ١٩٦٠م.

[*] مؤرخ عربي كبير ولد في فلسطين ويعيش في لبنان.

المقدسة، وبعد ذلك اجتاز الطريق النجدي إلى الكوفة. وكانت بغداد والموصل بين المدن التي زارها في العراق، وكانت عودته بطريق حلب وحماة وحمص والنبك ودمشق وعكا. ومن هناك أقلع في مركب للإفرنج إلى صقلية مارا بصور، وكان وصوله إلى غرناطة في ٨ محرم سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م.

وكان من رفقاء الرحلة والحج جده لأمه، القاضي ابن عطية، وأبو جعفر الطيب.

وكان لابن جبير بعد ذلك رحلتان إلى المشرق، ذلك أنه لما شاع الخبر بفتح بيت المقدس على يد صلاح الدين، قوى عزم ابن جبير على رحلته الثانية، فخرج من غرناطة في ٩ ربيع الأول ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م، وعاد إليها في شعبان ٥٨٧/ ١١٩١م.

وبعد نحو ربع قرن قضاها ابن جبير في غرناطة ومالقة وفاس، مهتما باسماع الحديث والتصوف توفيت زوجته عاتكة أم المجد، وكان كلفه بها شديدًا، فاشتد حزنه عليها، وخرج من المغرب حاجًا، مجاورا في مكة وبيت المقدس، وعاد إلى القاهرة والإسكندرية، وشغل بالحديث حتى وفاته ٦١٤هـ/ ١٢١٧م.

وتذكرة ابن جبير هي أخبار رحلته الأولى، وقد دونها صاحبها على شبه مذكرات يومية يستعمل فيها دائما التاريخين القمري (مع السنة الهجرية) والشمسي (دون ذكر السنة). وقد عنى كاتبها بالرسوم الدينية والنواحي الاجتماعية عناية فائقة. فمشاعر الحج مدونة كلها، وصعوبات السفر ومواكب الأمراء، وتجارة مكة كلها موصوفة وصفا بارعا دقيقا. ورحلته فيها كثير من الصور التي توضح العلاقات بين أهل البلاد والصليبيين في سوريا. ويشير غير

مرة إلى الحياة الاقتصادية من حيث المزروعات والسلع المتبادلة.

وابن جبير شدد العناية بالبحث عن المدارس والمارستانات، وليس هذا بغريب على رجل عالم فقيه. وهو في كل هذا دقيق الملاحظة، سهل العبارة، واضح الأسلوب.

وقد أثر ابن جبير في كثير من الكتاب الذين جاءوا بعده، فنقلوا أجزاء كبيرة من رحلته. وليس أدل على ذلك من أن محرر رحلة ابن بطوطة نقل عنه وصف كل من حلب ودمشق وبغداد، على أنه من المؤسف أننا لا نجد في رحلته شيئا يدلنا على عدد السكان في أي من البلدان التي زارها.

وقد تناول ابن جبير في الجزء الأخير من رحلته صقلية بوصف رائع، وروى أخبارها بشكل يجعل هذا القسم مصدرًا رئيسيا من مصادر تاريخ صقلية في زمن وليم الثاني، وخاصة فيما يتعلق بعلاقة السكان المسلمين في الجزيرة بحكامها الأوربيين.

ولعل خير ما نفعله في هذه العجالة عن ابن جبير هو أن ننقل إلى القراء شيئا مما وصف به بعض الأماكن التي زارها.

– عيذاب، وهي مدينة على ساحل بحر جدة، غير مسورة، أكثر بيوتها أخصاص، وفيها الآن بناء مستحدث بالجص، وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، زائدا إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة. وهي في صحراء لا نبات فيها، ولا يؤكل فيها شيء إلا مجلوب. لكن أهلها ميسور عيشهم بسبب الحجاج، لأن لهم، على كل حمل طعام يجلبونه، ضريبة معلومة خفيفة المئونة، بالإضافة إلى الوظائفة المكوسية التي كانت قبل اليوم والتي ذكرنا رفع صلاح الدين لها، ولهم أيضا

من المرافق من الحاج أكراء الجلاب منهم وهي المراكب، فيجتمع لهم في ذلك مال كثير في حملهم إلى جدة، وردهم قت انقضاضهم من أداء الفريضة، وما من أهلها ذوي اليسار إلا من له الجلبة والجلبتان، فهي تعود عليهم برزق واسع.

وعن التجارة والحج قال: ويقوم بالتجارة قبائل شتى، كجلبة وسواها، يستعدون للوصول إلى هذه البلدة المباركة "مكة" قبل حلولها بعشرة أيام، فيجمعون بين السنة في العمرة، ومبرة البلد بضروب من الأطعمة، كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبياء إلى ما دونها، ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز فتجتمع مبرتهم بين الطعام والآدام والفاكهة. ويصلون في آلاف من العدد رجالاً وجمالاً موقرة، بجميع ما ذكر فيرغدون معايش أهل البلد والمجاورين فيه، يتقوتون ويدخرون، وترخص الأسعار وتعم المرافق، فيعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم إلى مبرة أخرى، ولولا هذه المبرة لكان أهل مكة في شظف من العيش.

وعن الموصل قال: باطن الداخل منها بيوت بعضها على بعض، مستديرة بجدارة المطيف بالبلد كله. وللمقاتلة في هذه البيوت حرز ووقاية، وهي من المرافق الحربية. وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها، ينتظمها سور عتيق البنية، مشيد البروج، وتتصل به دور السلطان. وقد فصل بينها وبين البلد شارع متسع، يمتد من أعلى البلد إلى أسفله، ودجلة شرقي البلد، وهي بالسور وأبراجه في مائها، وللبلدة ربض كبير، فيه المساجد والحمامات والخانات والأسواق.

وقال عن حلب: وأما البلد فموضوعه ضخم جدا، حفيل التركيب، بديع الحسن، واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط

صنعة إلى سماط صنعة أخرى، إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، وكلها مسقف بالخشب فكأنها في ظلال وارفة، فكل سوق منها تقيد الأبصار حسنا، وتستوقف المستوفز عجبا. وأما قيساريتها فحديثة بستان نظافة وجمالا، مطيفة بالجامع المكرم، لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها، ولو كان من المرائى الرياضة. وأكثر حوانيتها من الخشب البديع الصنعة، فقد اتصل السماط خزانة واحدة. وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش، وتفتحت كلها حوانيت، فجاء منظرها أجمل منظر. وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم.

وقراها عامرة منتظمة، لأنها على محرث عظيم، مد البصر عرضا وطولا، وخانات هذه الطريق كأنها القلاع امتناعا وحصانة، وأبوابها حديد، وهي من الوثاقة في غاية.

وحول الغوص على اللؤلؤ في البحر الأحمر قال: "وفي بحر عيذاب مغاص اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها، وأوان الغوص عليه في هذا التاريخ المقيد في هذه الأحرف، وهو شهر يونيو العجمي والشهر الذي يتلوه. ويستخرج منه جوفر نفيس له قيمة سنية، يذهب الغائصون عليه إلى تلك الجزائر في الزوارق ويقيمون فيها الأيام فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق، والمغاص منها قريب ليس ببعيد. ويستخرجونه في أصداف لها أزواج كأنها نوع من الحيتان أشبه شيء بالسلحفاة، فإذا شقت ظهرت الشفتان من داخلها كأنهما محارتا فضة، ثم يشقون عليها فيجدون فيها الحبة من الجوهر، قد غطى عليها لحم الصدف فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق".

قال: فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ رضي الدين القزويني، رئيس

الشافعية، وفقيه المدرسة النظامية، والمشار إليه بالتقديم في العلوم الأصولية، حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة أثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر، فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه في القراءة على كراسي موضوعة، فتوقوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونغمات مطربة. ثم اندفع الشيخ الإمام المذكور، فخطب خطبة سكون ووقار، وتصرف في أفانين من العلوم، من تفسير كتاب الله عز وجل، وإيراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتكلم على معانيه، ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب، فأجاب وما قصر، وتقدم وما تأخر، ودفعت إليه عدة رقاع فجمعها جملة في يده، وجعل يجاوب على كل واحدة منها، وينبذ بها إلى أن فرغ منها، وحان المساء فنزل وافترق الجميع، فكان مجلسه مجلس علم ووعظ، وقورا هينا لينا، ظهرت فيه البركة.

ابن رشد بين التأويل والتعددية**

د. نصر حامد أبو زيد*

لم يكن من قبيل المصادفة أن يولد هذا العقل في بيئة الأندلس، ملتقى العوالم والتقاء الثقافات بعد التقاء اللغات والأديان. إنها البيئة التي أنتجت عقلانية ابن رشد وصوفية ابن عربي وإشراقية ابن طفيل. إن "حي بن يقظان"– ودلالة الاسم لافتة– هو الباحث عن الحقيقة وراء اللغات والأديان، الحقيقة كما يصل إليها الإنسان المتوحد في الفلاة معتمدا على حواسه وتجاربه وخبراته منتقلا من الحسي إلى العقلي، ومن العقلي إلى ما وراء المادة والعالم، فيصل إلى الحقيقة التي لا تخالف ما وردت به الشرائع السماوية على لسان الرسل والأنبياء.

هذا الإنسان القادر على المعرفة، والقابل لممارسة حق الاختلاف النابع من اختلاف القدرات وتعددية التأويل، هو الإنسان الذي يحرص ابن رشد على إبرازه وتأكيد وجوده. ونحن في أزمتنا الراهنة التي تظهر وتتجلى على جميع المستويات والأصعدة– اجتماعية واقتصادية وثقافية وفكرية بل وحضارية– نحتاج إلى هذا الإنسان بوصفه أملنا الوحيد في اجتياز تلك الأزمة والعودة إلى المشاركة في صنع الحضارة الإنسانية والمساهمة في تقدم النوع البشري. نحن– بعبارة أخرى– في حاجة إلى استرداد عقلنا المهاجر– ابن

** العربي– العدد ٤١٤– مايو ١٩٩٣م.

* أستاذ جامعي مصري راحل

رشد– لا بمنطق "هذه بضاعتنا ردت إلينا"، بل بمنطق استرداد ذلك العقل مضافا إليه ما اكتسبه في صيرورته التاريخية وتحولاته الحضارية والفكرية. إن ابن رشد المطرود– والذي نفخر كثيرا بإنجازاته دون وجه حق– يحتاج منا أن نستقبله بروح جديدة وبوعي مغاير لذلك الوعي الذي تسبب في تهميشه أولا ثم في طرده بعد ذلك. وإنجازات ابن رشد عديدة ومهمة وتغطي كثيرا من مجالات المعرفة، ولا تزال تحتاج للدرس والتحليل من منظور الوعي بالأزمة الراهنة. لكني سأتوقف هنا أمام دلالتين أرى أنهما شديدتا الأهمية من منظور أزمة الفكر المعاصر في عالمنا العربي الإسلامي.

الدلالة الأولى هي دلالة "التعددية"، بكل ما تنطوي. عليه من دلالة "الاختلاف" لا في شئون الحياة والمجتمع فحسب، بل في شأن الدين والعقيدة أيضا. وإذا كان الاختلاف في شئون الحياة والمجتمع هو اختلاف مصالح وأغراض، فإن الاختلاف في شأن الدين والعقيدة هو اختلاف "تأويلات" ليست بمنأى تام عن اختلاف المصالح والأغراض. هكذا تفضي التعددية إلى التأويل من حيث إن جذرهما واحد في الحكمة الإلهية. وإذا كان "التأويل" يمثل الدلالة الثانية التي سنتوقف عندها في محاولة استعادة ابن رشد، فإن وقوعه فرعا للتعددية لا ينفي أنه يؤصل للتعددية. وبعبارة أخرى إذا كان تعدد التأويلات في فهم النصوص الدينية أمرا مشروعا، فإن الاختلاف والتعدد في شئون الحياة والمجتمع يكتسب به مشروعية أعمق تضاف إلى مشروعيته العقلية الخالصة.

والغريب أن كثيرا من الباحثين في زمن الميل إلى إلغاء التعدد والاختلاف لحساب هيمنة فصيل اجتماعي وسياسي واحد، وسيطرة اتجاه فكري واحد بعينه، فهموا من ابن رشد أن جل همه ومحور فلسفته هو إبراز

عدم الاختلاف بين الحكمة (الفلسفة) والشريعة. وتناسوا، أو بالأحرى تجاهلوا، أنه وهو يؤكد عدم الاختلاف كان يؤصل التعددية والاختلاف بين البشر. وكان في الوقت نفسه يؤكد أن رفع الاختلاف لا يتم إلا بآليات العقل الإنساني لاكتساب المعرفة البرهانية اليقينية من جانب، ولتأويل ما يتعارض مع هذه المعرفة تأويلا صحيحا من جانب آخر. وبعبارة أخرى اهتم الباحثون غالبا بثمرة فكر ابن رشد ونتيجته دون أن يكتسبوا آليات تفكيره ذاتها. وهذا النهج بعينه هو نهجنا في التعامل مع الفكر شرقيا كان أم غربيا، فلا نتعامل معه بوصفه فعالية متحركة دينامية، بقدر ما نهتم بالنتائج النفعية المباشرة.

لذلك اخترنا رسالته "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال" (تحقيق محمد عمارة، دار المعارف، مصر، ١٩٧٢م) لكي نحلل من خلالها الكيفية التي يتناول بها هذا "الاتصال"، دون أن نقف عند حدود النتيجة ونستثمرها استثمارا نفعيا. والرسالة تلخيص لفلسفة ابن رشد التي لا يمكن تناولها في المساحة المتاحة هنا، وهي الفلسفة التي لا تسعى إلى إلغاء الحكمة لحساب الشريعة كما توهم البعض، ولا لإلغاء الشريعة لحساب الحكمة كما توهم آخرون. والأحرى القول إنها فلسفة تؤكد عدم التناقض المعبر عنه بكلمة اتصال التي تؤكد التمايز والاختلاف في المناهج والأدوات والأساليب، وتؤكد في الوقت نفسه التآلف والانسجام. وبعبارة أخرى يذهب ابن رشد إلى أن حاجتنا إلى الشريعة لا تقل عن حاجتنا إلى الحكمة ولا تزيد لأنهما نهجان متمايزان في المعرفة تحتاج إليهما البشرية. وتعليل ذلك في تعدد طباع الناس، واختلاف استعدادهم.

إن طباع الناس– فيما يقول ابن رشد– تختلف في قابليتها لاكتساب المعرفة، التي يسميها "التصديق". فمن الناس من يكتسب المعرفة بالأقاويل

البرهانية، وهي الأقاويل الفلسفية، أي بآليات التفكير النظري التجريدي، ومنهم من لا يقبل عقله هذه البراهين ويكتفي بالأقاويل الجدلية التي يكتسب بها المعرفة كما يكتسب الفريق الأول معرفته بالبراهين. لكن ثمة فريقا ثالثا من البشر لا يقبل الأقاويل البرهانية ولا الأقاويل الجدلية، ولا يتسع طبعه إلا للأقاويل الخطابية (ص٣١). هذا الاختلاف في طبائع البشر لم يفض فقط إلى تعدد وسائل اكتساب المعرفة- الأقاويل- بل أفضى إلى أن تراعى الشرائع السماوية هذا الاختلاف. وهذه نقطة مهمة في خطاب ابن رشد الذي لا نحتاج إلى تأكيد أنه يرى أن المعرفة اليقينية هي المعرفة البرهانية، في حين أن المعرفة الجدلية معرفة ظنية فقط، ويبقى للمعرفة الخطابية أنها معرفة تخيلية.

رغم هذا التفاوت في قيمة المعرفة المنتجة في كل نمط من الأقاويل، حرصت الشرائع السماوية على استخدامها جميعا بما هي خطاب للناس جميعا، وليس خطابا لفريق من البشر دون فريق. لذلك عم التصديق بها كل إنسان، كما يقول ابن رشد "إلا من جحدها عنادا بلسانه أو لم تتقرر عنده طرق الدعاء فيها إلى الله تعالى لإغفاله ذلك من نفسه. ولذلك خص عليه الصلاة والسلام بالبعث إلى الأحمر والأسود. أعني لتضمن شريعته طرق الدعاء إلى الله تعالى، وذلك صريح في قوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (ص ٣١). إن تضمن الخطاب الإلهي لأنماط الدعوة الثلاثة- الحكمة والموعظة والجدل- يؤكد من منظور ابن رشد التسليم بتعدد الطباع. ولم يكن للخطاب الإلهي أن يتجاهل هذا التعدد الذي يرتد إلى الطبائع التي خلق الله الناس عليها من جهة، وإلى اختلاف المرجعيات الاجتماعية والمعرفية من جهة أخرى. وليس

اختلاف الطبائع من منظور ابن رشد مجرد اختلاف في الاستعداد الفطري الطبيعي، بل لهذا الاختلاف أسبابه في العادات الاجتماعية وفي طبيعة التعليم. يقول ابن رشد: "وأما الأشياء التي لخفائها لا تعلم إلا بالبرهان. فقد تلطف الله فيها لعباده الذين لا سبيل لهم إلى البرهان، إما من قبل فطرهم، وإما من قبل عاداتهم، وإما من قبل عدمهم أسباب التعلم، بأن ضرب لهم أمثالها وأشباها، ودعاهم إلى التصديق بتلك الأمثال، إذا كانت تلك الأمثال يمكن أن يقع التصديق بها بالأدلة المشتركة للجميع، أعني الجدلية والخطابية. وهذا هو السبب في أن انقسم الشرع إلى ظاهر وباطن، فإن الظاهر هو تلك الأمثال المضروبة لتلك المعاني، والباطن هو تلك المعاني التي لا تتجلى إلا لأهل البرهان" (ص ٤٦).

التعددية إذن القائمة في طباع البشر وفي اختلاف عاداتهم ومرجعياتهم أمر حرصت الشرائع على التعامل معه بوصفه حقيقة سابقة عليها. ولم تسع الشرائع لإلغاء التعددية أو للقضاء عليها بدليل أنها انطوت في بنية خطابها– الخطاب الإلهي– على تعددية مماثلة تجعل الخطاب مفتوحا لآفاق التأويل والفهم. إن ثنائية الظاهر والباطن التي يتضمنها الخطاب الإلهي ليست ثنائية تسعى إلى الإخفاء كما فهم بعض المتصوفة والباطنية، ولكنها ثنائية التعددية في البشر وتسمح لكل البشر بأن يكونوا مخاطبين. وبعبارة أخرى ليست الشرائع خطابا موجها للصفوة التي تمتلك حق احتكار الفهم والتأويل، بل هي خطاب للناس جميعا تعددت مستوياته مراعاة لاختلاف مستويات المخاطبين.

هذه التعددية المنعكسة في تعدد مستويات الخطاب الإلهي من شأنها أن تفضي إلى تعددية "التأويلات"، لكن هذا من شأنه لو ترك الأمر من دون ضابط معرفي أن يشوش المعرفة الدينية ويخضعها للأهواء، ويبدو أن ابن رشد

كان حريصا أشد الحرص على الضوابط المعرفية التي لا تلغي التعددية لا تسعى للقضاء عليها من باب خلفي تحت عناوين ويافطات مضللة. إن السبب في ورود الشرع فيه الظاهر والباطن هو اختلاف نظر الناس وتباين قرائحهم في التصديق، والسبب في ورود الظواهر المتعارضة فيه هو تنبيه الراسخين في العلم على التأويل الجامع بينها (ص٣٣- ٣٤) وهذا من شأنه أن يثير اعتراضا منشؤه "الإجماع". يورد ابن رشد الاعتراض على الوجه التالي:

إن في الشرع أشياء قد أجمع المسلمون على حملها على ظواهرها، وأشياء على تأويلها، وأشياء اختلفوا فيها. فهل يجوز أن يؤدي البرهان إلى تأويل ما أجمعوا على ظاهرة؟ أو ظاهر ما أجمعوا على تأويله؟ (ص٣٤) وبعبارة أخرى: هل يمكن أن يحدث تعارض بين الفهم والتأويل المعتمد على البرهان وبين الإجماع المعرفي؟ في سياق الرد على هذا الاعتراض يبدو ابن رشد حريصا أشد الحرص على السياج المعرفي- البرهان- بوصفه السياج العاصم من الزلل. والإجماع ليس سياجا معرفيا بمستوى السياج البرهاني، لأنه ينتمي إلى الظني في الغالب ولا ينتمي إلى البرهان. قد ينتمي الإجماع إلى مجال البرهان ويتمتع بدرجة المعرفة اليقينية في مجال الشئون العلمية، لكنه في مجال المعرفة النظرية- أو النظريات بلغة ابن رشد- لا يكاد يتجاوز حدود "الظني" والاحتمالي. وبعبارة أخرى لا يرقى الإجماع معرفيا لمستوى البرهان ويظل في حدود الجدلي. بالإضافة إلى ذلك- أي إلى ظنيته- فهو يكاد يكون مستحيل الوقوع، لأنه ليس ممكنا أن يتقرر الإجماع في مسألة ما في عصر ما إلا بأن يكون ذلك العصر عندنا محصورا، وأن يكون جميع العلماء الموجودين في ذلك العصر معلومين عندنا، أعني معلوما أشخاصهم

ومبلغ عددهم، وأن ينقل إلينا في المسألة مذهب كل واحد منهم فيها نقل تواتر، ويكون مع هذا كله قد صح عندنا أن العلماء الموجودين في ذلك الزمان متفقون على أنه ليس في الشرع ظاهر وباطن، وأن العلم بكل مسألة يجب أن لا يكتم عن أحد، وأن الناس طريقهم واحد في علم الشريعة (ص٣٥) وينتهي ابن رشد إلى أنه لا يمكن أن يتقرر في التأويلات التي خص الله العلماء بها، إجماع مستفيض، وهذا بين بنفسه عند من أنصف (ص٣٨).

هذا الحرص على التعدد والاختلاف لا ينفي وجود الثوابت المتفق عليها في الشرائع عند ابن رشد. وتتحدد تلك الثوابت في المعارف التي يمكن الوصول إليها بالطرائق الثلاث المذكورة- البرهان والجدل والخطابة- بالدرجة نفسها من الوضوح واليقين. وتتحدد هذه الثوابت في أصول من أهمها: "الإقرار بالله تبارك وتعالى، وبالنبوات وبالسعادة الأخروية والشقاء الأخروي. وذلك أن هذه الأصول الثلاثة تؤدي إليها أصناف الدلائل الثلاثة التي لا يعرى أحد من الناس من وقوع التصديق له من قبلها بالذي كلف معرفته، أعني: الدلائل الخطابية، والجدلية والبرهانية، فالجاحد لأمثال هذه الأشياء، إذا كانت أصلا من أصول الشرع، كافر، معاند بلسانه دون قلبه، أو بغفلة عن التعرض إلى معرفة دليلها، لأنه إن كان من أهل البرهان، فقد جعل له سبيل إلى التصديق بها بالبرهان، وإن كان من أهل الجدل فبالجدل، وإن كان من أهل الموعظة فبالموعظة" (٤٥- ٤٦). لكن هذه الأصول لا تتميز بالوضوح الذي لا يحتاج إلى التأويل إلا على مستوى المعرفة الكلية العامة، أي المعرفة غير التفصيلية. من هنا يميز ابن رشد بين مستويات ثلاثة في التأويل تتجاوب مع مستويات المعرفة الثلاثة: المستوى الأول هو مستوى الخطاب الذي يفهمه على ظاهره بلا تأويل، والمستوى الأول هو مستوى

الخطاب الذي يفهمه على ظاهره بلا تأويل، والمستوى الثاني هو المستوى المختلف فيه بين من يرون ضرورة تأويله وبين من يرون عدم تأويله. والمستوى الثالث هو المستوى الذي لا يتفق الجميع على ضرورة تأويله لأن حمله على الظاهر محال.

وفي المستويين الثاني والثالث يقع الخلاف بين العلماء في التأويل، وذلك بحسب مرتبة كل ما حد من معرفة البرهان، أو بسبب غموض الموضوع أو عواصته بلغة ابن رشد، أي لكونه عويصا– واشتباهه، والمخطئ في هذا معذور، أعني من العلماء (ص٥١). والمثال الذي يوضح أن الاختلاف في فهم الأصول اختلاف مشروع أن السعادة الأخروية والشقاء الأخروي من الأمور المقررة الظاهرة في الشريعة، أي من الأمور المعلومة بالطرق الثلاث: البرهانية والجدلية والخطابية. من هذه الزاوية يرى ابن رشد أن المتأول لهذا الأصل من أصول الشريعة كافر "مثل أن يعتقد أنه لا سعادة أخروية ها هنا ولا شقاء، وأنه إنما قصد بهذا القول أن يسلم الناس بعضهم من بعض في أبدانهم وحواسهم، وأنها حيلة، وأنه لا غاية للإنسان إلا وجوده المحسوس فقط" (ص٤٧). ومعنى ذلك أن تأويل الخطاب بهدف إلغائه وإنكار السعادة والشقاء الأخرويين هو التأويل المخالف للأصل، وليس كذلك الأمر في تأويل كيفية السعادة وكيفية الشقاء. يرى ابن رشد: "إن هذه المسألة، الأمر فيها يبين أنها من الصنف المختلف فيه، وذلك أنا نرى قوم ينسبون أنفسهم إلى البرهان، يقولون: إن الواجب حملها على ظواهرها إذ كان ليس ها هنا برهان يؤدي إلى استحالة الظاهر فيها، وهذه طريقة الأشعرية. وقوم آخرون أيضا ممن يتعاطى البرهان يتأولونها، وهؤلاء يختلفون في تأويلها اختلافا كثيرا. وفي هذا الصنف أبو حامد (الغزالي) معدود هو وكثير من المتصوفة، ومنهم من يجمع

فيها التأويلين كما فعل ذلك أبو حامد في بعض كتبه.

ويشبه أن يكون المخطئ في هذه المسألة من العلماء معذورا، والمصيب مشكورا أو مأجورا، وذلك إذا اعترف بالوجود، وتأول فيها نحوا من أنحاء التأويل، أعني في صفة المعاد لا في وجوده، إذا كان التأويل لا يؤدي إلى نفي الوجود، وإنما كان جحد الوجود في هذا كفرا، لأنه في أصل من أصول الشريعة، وهو مما يقع التصديق به بالطرق الثلاث المشتركة للأحمر والأسود" (ص٤٩– ٥١).

هكذا تتحدد الأصول عند ابن رشد– المجمع عليها دون خلاف– في الأصول التي لا يعذر أحد بجهالتها، إذا استخدمنا عبارة علماء أصول الفقه. وهذا تحديد ينفي عن الإجماع السلطة المعرفية البرهانية التي أضيفت عليه في سياق تاريخنا الفكري والعقلي. الإجماع المعرفي الذي هو إجماع العلماء، أمر عسير، فضلا عن أنه ظني وليس برهانيا. هكذا يصبح الاختلاف الناتج عن التعدد أمرا مقررا مفروغا منه، وليس قيمة في حاجة إلى إثبات أو اعتراف. وليس تعدد التأويلات واختلاف العلماء في التأويل إلا نتيجة طبيعية لهذا التعدد الطبيعي والاختلاف بين البشر. لكن إذا كانت الشريعة قد استخدمت في خطابها الأقاويل الثلاثة، وإذا كان البرهان هو المعرفة اليقينية، فمن الضروري أن يكون البرهان هو أساس التأويل ومعياره، لذلك نفهم التفرقة التي أكدناها في النص السابق والتي يضعها ابن رشد بين من ينسبون أنفسهم إلى البرهان وهم الأشعرية، وبين الفلاسفة ممن يتعاطى البرهان بالفعل. وللتأويل في خطاب ابن رشد جانبان: الأول ضرورة اعتماده على البرهان الذي يحدد مرجعية المعنى والدلالة، الثاني: أن يوافق قوانين اللغة العربية ولا يتعارض معها.

يحدد ابن رشد الجانب الأول على الوجه التالي: الشريعة حق، وهي تدعو إلى معرفة الحق، ومعنى ذلك أن النظر البرهاني لا يمكن أن يفضي إلى مخالفة الشرع: "فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له" (ص٣١-٣٢). وللبرهان في علاقته بالشريعة ثلاثة احتمالات: الاحتمال الأول أن يصل البرهان إلى حقائق سكت عنها الشرع سكوتا تاما، أي حقائق تقع خارج مجال الشريعة والدين. ولا مشكلة إزاء هذا الاحتمال الأول، فالفيلسوف هنا- أو صاحب البرهان- يخوض في شئون لا دخل للشريعة بها، ومثله في ذلك مثل الفقيه الذي يستنبط بالقياس الشرعي حكم ما سكت عنه الشرع من الأحكام (ص٣٢). لكن ثمة فارقا مهما يلح عليه ابن رشد بين درجة اليقين البرهاني عند الفيلسوف وبين المعرفة الظنية التي ينتجها القياس الشرعي عند الفقيه "فإن الفقيه إنما عنده قياس ظني، والعارف عنده قياس يقيني" (ص٣٣).

الاحتمال الثاني أن يكون هناك اتفاق بين الحقيقة التي نتوصل إليها بالبرهان وبين حقيقة ندركها من ظاهر الخطاب الشرعي، أي من ظاهر الدلالة اللغوية دون الحاجة إلى التأويل. ولا مشكلة على الإطلاق إزاء هذا الاحتمال الثاني، لأن الاتفاق بين البرهان والخطاب الشرعي اتفاق ملموس. تتركز المشكلة إذن في الاحتمال الثالث وهو أن يقع الاختلاف والتناقض بين الحقائق البرهانية وظاهر الخطاب الشرعي. وحل ذلك الاختلاف لا يكون إلا بالتأويل الذي يعتمد على طبيعة التعدد التي سبق الحديث عنها في الخطاب الإلهي مراعاة لأحوال المخاطبين وتعدد مستوياتهم. هذا إلى جانب اعتماده مبدأ "عدم مخالفة الحق للحق". لكن للتأويل شرطا مهما هو عدم مخالفة قوانين اللغة العربية، وهو الجانب الثاني من جوانب التأويل، الجانب الذي

يمثل وجها آخر لغويا للجانب الأول البرهاني. يقول ابن رشد محورا معنى التأويل ودلالته من الجانبين المشار إليهما:

ومعنى التأويل هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز، من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه، أو غيرك ذلك من الأشياء التي عددت في تعريف أصناف الكلام المجازي. وإذا كان الفقيه يفعل هذا في كثير من الأحكام الشرعية، فكم بالحري يفعل ذلك صاحب علم البرهان؟ فإن الفقيه إنما عنده قياس ظني، والعارف عنده قياس يقيني. ونحن نقطع قطعا أن كل ما أدى إليه البرهان، وخالفه ظاهر الشرع، أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي، وهذه القضية لا يشك فيها مسلم، ولا يرتاب فيها مؤمن، وما أعظم ازدياد اليقين بها عند من زاول هذا المعنى وجربه، وقصد هذا المقصد من الجمع بين المعقول والمنقول (ص٣٢-٣٣).

وإذا كان التأويل يستمد من مرجعية البرهان من جهة، ومن قوانين الكلام من جهة أخرى، فإن درجات الناس في العلم بالجهتين متفاوتة، وهذا هو الذي يجعل عملية الإجماع صعبة، بل مستحيلة. ومعنى ذلك أن الاختلاف والتعدد يظلان قائمين رغم بذل الوسع في الوصول إلى الحقائق البرهانية اليقينية من جهة، وفي فهم قوانين اللغة التي هي أساس التأويل من جهة أخرى. هكذا يفهم ابن رشد من الآية السابعة في سورة آل عمران أن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أن ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ معطوف على اسم الجلالة وأنهم يعلمون التأويل. وهو بهذا الفهم يعارض قراءة أخرى للآية يقف أصحابها عند

اسم الجلالة على أساس أنه نهاية الجملة، ويرون أن والراسخون في العلم بداية جملة جديدة، يقول ابن رشد جامعا أطراف القضية كلها:

"وقد تبين من قولنا أنه ليس يمكن أن يتقرر إجماع في أمثال هذه المسائل، لما روي عن كثير من السلف الأول، فضلا عن غيرهم، أن ها هنا تأويلات يجب ألان يفصح بها إلا لمن هو من أهل التأويل وهم الراسخون في العلم، لأن الاختيار عندنا هو الوقوف على قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، لأنه إذا لم يكن أهل العلم يعلمون التأويل، لم يكن عندهم مزية تصديق توجب لهم من الإيمان به ما لا يوجد عند غير أهل العلم. وقد وصفهم الله تعالى بأنهم المؤمنون به، وهذا إنما يحمل على الإيمان الذي يكون من قبل البرهان، وهذا لا يكون إلا مع العلم بالتأويل، فإن غير أهل العلم من المؤمنين هم من أهل الإيمان به لا من قبل البرهان. فإن كان هذا الإيمان الذي وصف الله به العلماء خاصا بهم، فيجب أن يكون بالبرهان، وإن كان بالبرهان فلا يكون إلا مع العلم بالتأويل، لأن الله عز وجل قد أخبر أن لها تأويلا هو الحقيقة، والبرهان لا يكون إلا على الحقيقة، وإذا كان ذلك كذلك، فلا يمكن أن يتقرر في التأويلات، التي خص الله العلماء بها، إجماع مستفيض، وهذا بين بنفسه عند من أنصف (ص٣٧– ٣٨).

لكن ابن رشد الداعي للتعددية والحريص عليها، المؤمن بحق الاختلاف، الذي يجعل من التأويل الصلة الجامعة بين البرهان والشريعة، كان ينتج خطابه في سياق ثقافي حضاري مؤذن بالأفول. وقد كانت محاولات ابن عربي للجمع والتوفيق بين فرق الأمة وفصائلها، بل بين الأمة وغيرها من الأمم، في منظومة فكرية تأويلية واسعة هي خاتمة المطاف في ثقافة التعدد وحضارة الاختلاف. وكان أبو حامد الغزالي قد سبقهما في القرن الخامس

الهجري– الحادي عشر الميلادي– في سبيل مشابه ولكن نحو غاية مغايرة: إلغاء العقل والبرهان لحساب النقل والسماع، وإن كان قد فعل ذلك بآليات البرهان ذاته، كان الغزالي قد وجه هجومه الحاد والقاسي والذي كان أشبه بالضربة القاضية في "تهافت الفلاسفة" حيث لجأ إلى تكفير الفلاسفة في مجموعة من القضايا والأفكار. ورغم أن ابن رشد حاول أن يكشف تهافت التهافت، ويستعيد للبرهان مكانته في مرجعية التأويل، فإنه لم يسلم هو نفسه من علامات التراجع التي كانت واضحة في الثقافة التي ينتمي إليها.

هذا الانحياز للبرهان وللتعددية والاختلاف حتى على مستوى التأويل هو ما يدعونا اليوم لاستدعاءا عقلنا المهاجر ابن رشد لحاجتنا إليه في ظروف واقعنا المأزوم على جميع الأصعدة، ولكن ونحن نستدعي ابن رشد لابد أن نضيف إليه ما حققته البشرية من إنجازات المساواة بين البشر، وفي مجال حقوق الإنسان.

ومن أهم تلك الحقوق حق المعرفة والتعلم واكتساب اليقين. وإن البرهان الذي انحاز له ابن رشد والتعددية والاختلاف اللذين حرص عليهما كان بمنزلة الأساس للإنجاز الإنساني في مجال حقوق الإنسان. من هنا فنحن حين نختلف مع حرص ابن رشد على التمايز والفصل بين المستويات، إنما نختلف معه ونحن على الأرض التي قهرها وساهم في إخصابها بثمار عقله. وقد يصح أن نقول في هذه الحالة: إنها بضاعتنا ردت إلينا، ولكن بشرط أن نفهم أنها البضاعة التي أضاف إليها الآخرون وبلوروها باستثمار أكثر جوانبها إشراقا وإيجابية.

إسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم**

د. ممدوح حسين*

التاريخ، هذا السجل الضخم لتراث الأمم والشعوب ولمختلف جوانب حياتها، تسطع في صفحاته أسماء، وتتوه في ثناياه أخرى فيطويها النسيان، وهو وإن كان قد أنصف البعض، فإنه حجب هذا الإنصاف عن البعض الآخر، وأضفى على آخرين ثوبا من تكريم مبالغ فيه لا يستحقونه، ومن بين الذين لم ينصفهم التاريخ في تراثنا العربي والإسلامي، عالم كانت حياته أشبه بومضة سريعة ومضت في سماء العلم والمعرفة في غرب العالم الإسلامي في أواخر القرن الثالث وصدر القرن الرابع للهجرة.

تعددت مواهبه، وبرع في أكثر من علم وأتقن أكثر من فن، ومع ذلك أغفله كثير من المؤرخين وكتاب التراجم والطبقات حتى أصبح التعرف عليه والتعريف به ليس بالأمر اليسير، وبالرغم من هذه الصعوبة التي نواجهها في التعرف على جميع أبعاد هذه الشخصية الفذة، فإن ذلك لا يمنعنا من محاولة تسليط بعض الضوء عليها، ويحدونا الأمل أن تكون هذه المحاولة نواة أو بداية لدراسة متخصصة توفي هذا العالم حقه، وتضعه في مكانته اللائقة به بين نظرائه.

وعالمنا هذا هو إسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم، ولكلا لقبي الطلاء

** العربي– العدد ٣٢٨– مارس ١٩٨٦.

* كاتب مصري .

والمنجم اللذين عرف بهما صلة مباشرة ببعض العلوم التي برع فيها، وكل ما نعرفه عن بداية حياته أنه ولد في القيروان في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة، ومن المعتقد أنه كان ينتسب إلى أسرة متواضعة، ولكن ضيق الحال به وبأسرته لم يقف حائلا دون اكتسابه حصيلة علمية ممتازة ومتعددة الجوانب.

بدأ إسماعيل بن يوسف حياته العلمية في بلده القيروان التي كانت وقتئذ أحد المراكز الحضارية المهمة في بلاد الإسلام، بل كانت منارة العلم والمعرفة في غرب العالم الإسلامي في ظل أمراء بني الأغلب الذين حبوها من العناية والاهتمام والرعاية القدر الكبير، فتعددت المدارس والمعاهد العلمية فيها وقصدها العلماء من شتى أنحاء بلاد الإسلام لما كان يبذله لهم هؤلاء الأمراء من عطاء سخي وما يحيطونهم به من مظاهر التكريم تقديرا لعلومهم ومواهبهم، وقصدها طلاب العلم من مختلف أنحاء غرب العالم الإسلامي فضلا عن شرقه للنهل من مناهلها العلمية العذبة العديدة والأخذ عن علمائها، وفي هذه البيئة الحضارية الزاهرة نشأ إسماعيل بن يوسف، فأخذ عن العديد من علماء بلده مبادئ العلوم الدينية وعلوم اللغة وما اتصل بهما من العلوم النقلية حتى إذا أدرك أنه قد نال بغيته سمت به همته للرحلة إلى الشرق في طلب المزيد من العلم شأنه في ذلك شأن النابهين من طلاب العلم المغاربة.

لم يكن إسماعيل بن يوسف حينما بدأ رحلته قد تجاوز مرحلة شبابه المبكر، فقصد مصر أولاً بها متنقلاً بين معاهدها العلمية ومجالس شيوخها، وبصفة خاصة جامع عمرو بن العاص في الفسطاط، ثم انتقل إلى الحجاز فأدى فريضة الحج، وحضر الكثير من حلقات الدرس التي كانت تعقد في الحرمين الشريفين ويحضرها نخبة من العلماء ما بين معلم ومتعلم، ولما كانت

سيرته في كتب التراجم والطبقات قد جاءت مقتضبة، فمن غير اليسير علينا أن نتعرف على أسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم أو اتصل بهم في كلا القطرين.

ورحل إسماعيل بن يوسف إلى العراق، وتنقل بين مراكزه العلمية إلى أن استقر به المقام في بغداد حاضرة الدنيا حينذاك. فتبحر في العلوم اللغوية بصفة خاصة حتى أتقنها، يدل على ذلك قول الزبيدي عند التعريف به (كان من ذوي العلم التام بالعربية) وقول جلال الدين السيوطي عنه (كان مقدما في علم العربية)، وابن الآبار الذي يصفه بأنه كان من ذوي العلم بالعربية (مع تميز بالأدب، وتصرف في قرض الشعر). ثم استهوته العلوم العقلية فدرس العديد من فروعها، وبرع على وجه الخصوص في علم الفلك والتنجيم، يؤكد ذلك تجلية كل من الزبيدي وابن الآبار له بقولهما: "كان غاية في علم النجامة" والسيوطي نقلا عن الشيخ مجد الدين في "البلغة": كان (غاية في علم النجامة) ومن هذا العلم اكتسب لقبه الأول (المنجم).

وطالت إقامته في العراق في طلب العلم، الأمر الذي أدى إلى نفاد ما تبقى لديه من نفقته القليلة أصلا، وتعذر عليه تجديدا لرقة حال أسرته كما تقدم، إلا أن ذلك لم يضعف همته عن مواصلة طلب العلم والعودة إلى بلده، فلم يجد غضاضة في العمل بيده لكسب قوته واستكمال دراسته، ويشاء الله سبحانه وتعالى أن ييسر له العمل في حانوت تخصص في صناعة العقاقير، وبصفة خاصة مستحضرات التجميل التي كانت تعرف بالطلاء كما يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، أي ما تختص بوسائل تجميل وجوه النساء وتطريتها بالأردهان والعقاقير المناسبة، وهو ما يسمى في عصرنا الحاضر (بالمكياج).

أقبل إسماعيل بن يوسف على عمله الجديد بنشاط العامل المخلص،

وهمة وصبر طالب العلم المثابر، ودقة واستقصاء العالم الباحث. كان يبحث ويستقصي جميع ما يتعلق بكل مستحضر ليعرف أسرار تركيبه ومنافعه، وما قد ينجم عن استعماله من مضار وأساليب معالجتها، ولم يكن نشاطه وإخلاصه ليخفيا على صاحب العمل بطبيعة الحال فأعجب به.

ولم يلبث أن منحه ثقته وأطلعه على أسرار هذه الصناعة حتى حذقها وعرف غامضها، ومن هذه الصناعة اكتسب لقبه الثاني (الطلاء) أي صانع الطلاء الذي أضيف إلى لقبه الأول، واشتهر بهما حتى وردا مقرونين باسمه في كتب التراجم والطبقات.

وغير خاف على أحد ما يتطلبه إتقان هذه الصناعة الدقيقة من مؤهلات، فمن غير اليسير على الكيميائي العادي أن يقتحم ميدانها لما تتطلبه من حذق ومعرفة تامتين بعلم الكيمياء فضلا عن الإلمام بالطب والصيدلة ومن هذه المستحضرات ما كان مفردا ومنها ما كان مركبا من مراهم ولبخات وأدهان للنظرية أو لعلاج بعض الأمراض الجلدية، ومنها ما كان للتزين، وهو ذو ألوان وأنواع واستعمالات مختلفة وقد روعي فيها جميعا أن تكون طيبة الرائحة حتى لا تعافها النفس أو تنفر منها، يضاف إلى ذلك مختلف أنواع العطور. وكل هذه الأنواع لاسيما المركبة منها كان يتطلب مهارة تامة وخبرة واسعة في معرفة كل مادة من المواد التي يتكون منها المستحضر فضلا عن خصائصها حتى تؤدي الغرض المطلوب.

ذلك أن أي خطأ في المقادير قد يؤدي إلى نتائج عكسية كالتهاب في البشرة أو ظهور بثور أو طفح عليها نتيجة لتفاعل هذه المواد كيميائيا مع البشرة، فضلا عن أن التركيب الكيميائي لطبقة الجلد الخارجية قد يختلف من شخص لآخر، وليس ذلك فحسب، بل إنه قد يختلف في نفس الشخص من

مرحلة إلى أخرى من مراحل حياته كما يقول خبراء التجميل.

ولم يقف عمل إسماعيل بن يوسف في هذه الصناعة الدقيقة حائلا دون مواصلة دراساته الأخرى، إذ تنقل في دراسته من علم إلى آخر من فروع العلم والمعرفة التي كان يشتغل بها العلماء في بغداد وقتئذ، حتى إذا نال منها غايته. غادر العراق إلى بلاد الشام، ثم إلى مصر ثانية حيث طاف في أرجائها في طلب المزيد مما كانت تميل إليه نفسه من العلوم الإنسانية والأدب والفلسفة والفنون الرياضية، إلى جانب الفلك والتنجيم وصناعة الطلاء، حتى إذا مهر في كل ذلك عاد إلى بلده القيروان.

كان عاهل الدولة الأغلبية حينذاك هو الأمير إبراهيم الثاني المعروف بالأصغر (سنة ٢٦١- ٢٨٩هـ) الذي يعتبر بحق من أهم أساطين النهضة الحضارية الزاهرة التي شهدتها إفريقيا في ظل تلك الدولة، ومن أشد أمرائها حبا للعلم وتكريما للعلماء ورعاية لهم، فضم بلاطه نخبة منهم حتى أصبح صورة مصغرة عن دار الخلافة في بغداد، وتوج جهوده في رعاية الحركة العلمية في دولته بإنشاء (بيت الحكمة) في "رقادة" بالقرب من القيروان، وقد كان جامعة بكل ما تعنيه هذه الكلمة، تدرس فيها مختلف العلوم، ويقوم على تدريسها أساتذة متخصصون فأشبه بذلك سميه في بغداد. فكانت هذه الجامعة بعثا جديدا وعاملا قويا لنشر الثقافة العربية الإسلامية في أنحاء المغرب الإسلامي بما كان يضمه من أقطار جنوب غرب أوربا.

لم تكن أنباء عودة الطلاء المنجم إلى القيروان لتخفى عن هذا الأمير العالم، فسرعان ما عرف بقدومه فاستدعاه إلى بلاطه في "رقاده" وطارحه في العديد من المسائل العلمية، مختبرا قدراته ومدى سعة علمه، فأعجب به أيما إعجاب لما رأى فيه من النجابة والبراعة في كل فن، وقربه من نفسه، وما هي

إلا فترة وجيزة حتى أصبح الطلاء من أقرب خواصه، فقد جمع حب العلم بينهما لاسيما شغفهما بعلم الفلك وفن التنجيم، فربط ذلك بينهما رباطا وثيقا لم ينفصم.

وبالرغم من هذا التقدير والمودة التي أحاط بها الأمير الأغلبي عالمنا (الطلاء المنجم) والمكانة السامية التي حظي بها لديه، فإن من المرجح أنه لم يستأثر به عن طلاب العلم، لإيمانه بأن العلم ملك للجميع، وأن حصر نشاط العالم في البلاط أشبه ما يكون بالحجر عليه، فهو بحاجة للطلاب بقدر حاجتهم إليه، ففيهم يرى نفسه ويتعرف على أبعاد شخصيته، وبتفاعله معهم- تأثيرا فيهم وتأثرا به- يكون أقدر على العطاء، واحتجابه عنهم هو أشبه بحجب الضوء عن النبتة التي من دونه لا تلبث أن تذوي وتذبل، لذلك فمن المعتقد أن الأمير إبراهيم الأصغر ألحقه مدرسا (ببيت الحكمة) التي ضمت حينذاك نخبة من خيرة علماء ذلك العصر مثل ابن الصايغ وأبي اليسر الشيباني اللغويين المعروفين، وإسحاق بن عمران وإسحق بن سليمان الإسرائيلي وزياد بن خلفون، وهم الأطباء ذائعو الصيت، وابن ظفر الطبيب الأديب الحكيم، وأبي سعيد عثمان بن سعيد المعروف بالصيقل وابن القيار الكيميائي الذي تخصص في صناعة النار الإغريقية، وغيرهم.

ومن الراجح أن الطلاء المنجم إلى جانب تدريسه الرياضيات والفلك عكف على تدريس الكيمياء، وإن صح هذا الترجيح فإنه يكون بذلك من أوائل من قاموا بتدريسها ليس في إفريقيا فحسب، وإنما في غرب العالم الإسلامي بأسره، وما جعلنا نكتفي بالترجيح فقط هو عدم وجود نص صريح- في المصادر القليلة التي تعرضت له- يؤكد ذلك أو ينفيه فضلا عن أن تلك المصادر قد أغفلت مؤلفاته إن كانت له مؤلفات، وأما السبب في ترجيحنا

هذا فهو معرفته الواسعة بهذا العلم الأمر الذي يجعلنا نشك كثيرا في أنه لم يمارس تدريسه في بيئة علمية تتلهف على كل ما هو جديد من علوم. وأيا كان الأمر، فقد أخذ الطلاء المنجم يؤثر في مسيرة الحركة العلمية في إفريقيا تأثيرا مباشرا إذ قصده طلاب العلم للأخذ عنه فضلا عن مناظراته ومناقشاته مع نظرائه من العلماء سواء في البلاط الأميري أو في بيت الحكمة.

وتمر الأيام بالطلاء المنجم وهو يقضي معظم أوقاته متنقلا بين القيروان وبلاط رقادة وجامعتها لمدة لا نعلمها على وجه التحديد قبل أن يقرر الارتحال إلى المشرق من جديد، ولكن هذه المرة بصحبة الأمير إبراهيم الأصغر. ذلك أن هذا الأمير عزم في سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠١م على السفر لأداء فريضة الحج بعد أن مهد الأمور في دولته، فرد المظالم وأمن البلاد وشرد أهل البغي والفساد، وتبرع بكل ممتلكاته للفقراء، وأظهر الزهد والنسك على حد قول ابن الأثير. فكان أن اختار الطلاء المنجم لمرافقته في هذه الرحلة الطويلة، ربما لأن نفسه كانت تألفه وتأتنس به، وربما لخبرته الواسعة في شئون الشرق وأقطاره بحكم تجوله في أنحائه أثناء رحلته السابقة، أو لكلا الأمرين معا. وعلم الطلاء المنجم بهذا الاختيار فرحب به بالرغم من مشقة السفر ومخاطره، ذلك أنه رأى فيه فرصة ذهبية ينبغي عليه اغتنامها لتحديد الصلة بمن بقي على قيد الحياة من شيوخه وأقرانه من ناحية، والاطلاع على ما استجد في ميدان العلم والمعرفة في المراكز العلمية المشرقية من ناحية ثانية، فضلا عن أداء فريضة الحج للمرة الثانية.

ومع أن الأمير إبراهيم الأصغر غير خط سيره من مصر إلى صقلية ليجمع بين فريضتي الحج والجهاد من ناحية، وتجنبا للمرور بمصر لما كان بينه وبين حاكمها هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون من فتور من ناحية

ثانية، إلا أن ذلك التغيير لم يخفف من حماس الطلاء المنجم، وبقي على عزمه على مصاحبة أميره في رحلته تلك، وفي أول سنة ٢٩٨هـ/ ٩٠٢م غادر الركب الأميري رقادة قاصدا سوسة، فدخلها الأمير مرتديا فروا مرقعا تشبها بالزهاد، ولم يكن زي مرافقيه وفي مقدمتهم عالمنا الطلاء المنجم أفضل من زيه، ومن سوسة أبحر بأسطوله إلى صقلية حيث قصد مدينة طبرمين إحدى مدنها المهمة التي لم تكن قد فتحت بعد، ففتحها بعد معركة دامية بينه وبين أهلها، ثم قصد مسينا حيث غزا نواحيها وثبت السيطرة الإسلامية على مجازها، ثم سار إلى كسنسه بإقليم قلورية في جنوب إيطاليا حيث وافته منيته أثناء حصارها في ليلة السبت الحادي عشر من ذي القعدة سنة ٢٩هـ/ ٢٦ أكتوبر سنة ٩٠٢م.

كان الطلاء المنجم رفيق الأمير إبراهيم المقرب في جميع هذه الحروب التي خاضها في صقلية وجنوب إيطاليا، وهو إذا كان قد شارك في أعمال الجهاد، فإننا نرجح أن ذلك لم ينسه واجبه كعالم. ونشك في أن المشتغلين بالعلم في صقلية لم يغتنموا فرصة وجوده في بلادهم لقصده والأخذ عنه. فإن صح هذا الترجيح، فإن ذلك يجعل للطلاء المنجم دورا رائدا في الحركة العلمية في صقلية في هذا الوقت المبكر من تاريخ هذه الحركة.

ويعود الطلاء المنجم إلى القيروان مع جثمان أميره، وقد أثقله الحزن الذي طفحت نفسه به الأمر الذي انعكس على حياته فأثر فيها تأثيرًا عميقًا، وظهر ذلك بوضوح في ابتعاده عن البلاط الأميري في رقادة تدريجيا، وبالرغم من أن مكانته في ذلك البلاط بقيت على حالها، وحفظ له الخليفة إبراهيم الأصغر كل ود وإجلال وتكريم، فإن نفسه على ما يبدو أبت عليه أن يخدم

أحدا بعد صديقه الراحل. حتى أصبح لا يزور البلاط إلا في أوقات متباعدة، وقنع بالعمل في مستحضرات التجميل للسيدات، فكان بذلك هو (أول من أدخل الطلاء البغدادي إلى القيروان) كما صرح به الزبيدي، ولهذا الأمر دلالته المهمة، إذ إنه يعني أن الطلاء المنجم كان من أول الذين اشتغلوا بالكيمياء الصناعية في غرب العالم الإسلامي.

وانقضى عهد الدولة الأغلبية ليبدأ عهد الدولة الفاطمية، وأخذ أعوان المهدي الفاطمي في ملاحقة رجالات العهد السابق، فانصرف الطلاء المنجم كليا إلى عمله مبتعدا عن كل ما يربطه بالحياة العامة خوفا على حياته، إلا أنه وبالرغم من هذا الاعتزال لم يسلم من الملاحقة، فسرعان ما وجد نفسه موضع تهمة خطيرة لا تقل عقوبتها عن الموت، إذ اتهمه صاحب دار الضرب (دار السكة) بعمل الدنانير والدراهم الزائفة، وهي تهمة قابلة للتصديق لما اشتهر به الطلاء المنجم من تبحر في علم الكيمياء، وما ارتبط في أذهان الناس وقتئذ من وهم عن إمكانية تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة بهذا العلم.

وحيال هذه التهمة التي يظهر أن سببها الحقيقي كان صلته السابقة بالأغالبة لم يجد الطلاء المنجم أمامه سوى الفرار من إفريقيا والالتجاء إلى الأندلس كما فعل الكثير من نظرائه، حيث قصد قرطبة واستقر بها في خلافة عبد الرحمن الناصر، ومنذ ذلك الوقت انقطعت عنا أخباره، فلا ندري هل التحق بخدمة خلفاء بني أمية كغيره من المهاجرين من رجالات الدولة الأغلبية وعلمائها، أم إنه واصل ابتعاده عن الحكام وقنع بعلم مستحضرات التجميل والارتزاق من بيعها. وإن كنا نرجح الافتراض الثاني وأنه لم يتصل بالبلاط الأموي عزوفًا عن خدمة الأمراء، إذ لو جرى هذا الاتصال لسلطت عليه

الأضواء واهتم بالترجمة له العدد الأكبر من كتاب التراجم والطبقات.

وعلى أي حال، فإذا كان لم يخدم الخليفة الناصر، فإنه لم يقطع صلته بالحركة العلمية في الأندلس، بدليل أن المعلومات التي وصلتنا عنه كان مصدرها الرئيسي هو الزبيدي في طبقاته، والمتوفى سنة ٣٧٩هـ أي أنه كان معاصرًا له تقريبًا، وبالتالي فإنه كان معروفًا لدى المشتغلين بالعلم في ذلك الوقت، الأمر الذي يستفاد منه أن الطلاء المنجم كان له تأثيره في الحركة العلمية في الأندلس أيضًا، بالإضافة إلى أثره في مثيلتها في كل من إفريقيا وصقلية. والأمر الذي نعلمه أنه مات في قرطبة في الربع الأول من القرن الرابع للهجرة بعد حياة حافلة بالعطاء والترحال في طلب العلم وبثه.

وبعد، فإن إسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم بجده ومثابرته وتجشمه مشاق الارتحال بين العديد من المراكز الحضارية طالبًا للعلم ومعلمًا ومجاهدًا يعتبر مثالاً طيبًا على مدى الترابط الوثيق الذي كان بين هذا المراكز شرقًا وغربًا بالرغم من بعد المسافات بينهما وصعوبة الانتقال، هذا الترابط الذي كان له أثره القوى في وحدة الفكر في بلاد الإسلام، كما يعتبر نموذجًا ممتازا على صبر المشتغلين بالعلم في هذه البلاد، وقوة عزيمتهم ومدى تصميمهم ورغبتهم في تشرب العلوم النافعة بالرغم من الصعوبات التي كانوا يواجهونها، والذي بهذه الصفات الحميدة التي غرسها فيهم الإسلام شادوا أرقى حضارة عرفتها البشرية في العصور الوسطى.

ابن زمرك للأديب والسياسي[**]

إبراهيم قطان[*]

كانت مملكة غرناطة في الأندلس، من أزهى الممالك الإسلامية، فقد دامت نحو قرنين من الزمان فتركت لنا صورة من أروع الصور الفكرية والأدبية والفروسية، وصفحة من أجمل صفحات الحضارة الإسلامية، والحضارة الإنسانية بصفة عامة.

أما عن الفن فلا يزال قصر الحمراء شاهدًا على مثال الفن الرفيع، والذوق البديع بالرغم من مضي القرون العديدة، وما طرأ عليه من تهديم وتخريب ونكبات، كانت مملكة غرناطة على صغرها، وضيق رقعتها تضم معظم التراث الأندلسي القومي والسياسي، وغدت مستودع الحضارة الأندلسية، والفكر الأندلسي، لأن معظم الأسر الأندلسية العريقة هاجرت إليها من القواعد والمدن التي احتلها الإسبان واستقرت بها.

تقع غرناطة في مكان جميل حباه الله بأروع ما تجود الطبيعة به من جمال، من جبال وأودية وسهول ومزارع وجنات تفيض بالخصب والخيرات وثروات معدنية. وأصبحت غرناطة بعد سقوط القواعد الأندلسية أعظم القواعد في الأندلس وأغناها وأكثرها ازدحاما بالسكان. يؤمها الناس من كل مكان، ويحج إليها الشعراء والأدباء والفرسان.

[**] العربي– العدد ٤٦– سبتمبر ١٩٦٢.

[*] كاتب مصري.

وهي في بقعة جميلة يطل عليها قصر الحمراء بمبانيه الزاهية، وتقابله جنة العريف التي هي من جنان الخلد حبا الله بها هذه الأرض، وميادينها الفسيحة، وقصورها البديعة وحدائقها وجنانها ومنتزهاتها البديعة، فهي من كل هذه المناظر المختلفة تشكل مدينة من أجمل مدن العصور الوسطى. وكانت حصينة جدًا، لها موقع طبيعي حصين. وقد عزز ذلك الموقع بأسوار عظيمة قوية، كان يتخللها كما قيل نحو ألف وثلاثمائة برج عال منيع يرد الطرف وهو كليل.

وكان سكانها في أيامها تلك مع أريافها وضواحيها نحو نصف مليون نفس، وكان في مقدور هذه العاصمة أن تجند وحدها زهاء خمسين ألف مقاتل، وكانت أبهاء قصر الحمراء تتسع وحدها لأربعين ألف رجل.

وقد وصف لنا لسان الدين بن الخطيب أديب الأندلس الكبير في ذلك العصر أحوال المجتمع الأندلسي وخواصه الجنسية والعقلية والاجتماعية.

فذكر أن الشعب الأندلسي كان يتمتع بصفات أخلاقية طيبة، وأن صورهم جميلة، وألوانهم بيضاء، وشعورهم سود، وقدودهم متوسطة، وألسنتهم عربية فصيحة، وأنسابهم عربية، وفيهم كثير من البربر والمهاجرين.

وكان نساؤهم يتميزن بالجمال والسحر، واعتدال السمن، ونعومة الجسم ورشاقة الحركة، ونبل الكلام، وحسن المجاورة ولكن يندر فيهن الطول. وقد بلغن في التفنن في الزينة والملبس شأوا بعيدًا، يُسرفن في الأصباغ والتزين بنفيس الحلي. وكان لباسهم أنيقا، ونظافتهم مضرب الأمثال.

وإذا أبصرتهم في المساجد أيام الجمع، كأنهم الأزهار المفتحة، في البطاح الكريمة، تحت الأهوية المعتدلة.

وكان احتفالهم بالأعياد أنيقًا، وكان الشعب الغرناطي يعشق مباهج الحياة والحفلات العامة، وكانت الحياة لديه كأنها سلسلة من الأعياد المتواصلة. وكان الغناء ذائعا، ويكثر في المنتديات والمقاهي العامة، ومع هذا فقد كانت الفروسية شعارهم. واستمرت في مملكة غرناطة على ازدهارها،وبقيت عصورًا تجتذب الأنظار باكتمالها وروعتها ورقة شمائلها.

في هذه المملكة العظيمة. وفي غرناطة العاصمة الجميلة الفاتنة ولد أبو عبد الله محمد بن يوسف ابن محمد الصريحي المعروف بابن زمرك. قال لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة: "ولد هذا الفاضل بغرناطة في رابع عشر شوال عام ثلاثة وثلاثين وسبع مائة. وهو من مفاخرها وكان صدرا من صدور طلبة الأندلس وأفراد نجبائها مختصًا مقبولاً، هشًا خلوبا، عذب الفكاهة، حلو المجالسة، حسن التوقيع، خفيف الروح، عظيم الانطباع، شره المذاكرة، فطنا بالمعاريض، حاضر الجواب، شعلة من شعل الذكاء، جوادا بما في يده، مشاركا لإخوانه، اضطلع بكثير من الأغراض، وشارك في جملة من الفنون، ونصب نفسه للناس متكلما، مستظهرا بالفنون التي بعد فيها شأوه، من عربية وبيان، وما تقذف به لجة الثقل من أخبار وتفسير، متشوقا مع ذلك إلى السلوك، مصاحبا للصوفية، ثم عانى الأدب، فكان أملك به. ورحل في طلب العلم والازدياد، فترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبي سالم بن أبي الحسن، وعرف في بابه بالإجادة. ثم رجع مع السلطان ابن الأحمر في طلب ملكه، فلطف محله منه، وخصه بكتابة سره. وثابت الحال، ودالت الدولة، وكانت له الطائلة، فأقره على رسمه.

وامتد في ميدان النظم والنثر باعه، فصدر عنه من المنظوم قصائد بعيدة الشأو في مدى الإجادة من الأغراض المتعددة، من ميلاديات وغيرها، وهو

بحاله الموصوفة إلى الآن أعانه الله وسدده".

"وأما شعره فمترام إلى نمط الإجادة. خفاجي النزعة، كَلِفٌ بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة، غزير المادة".

كان لسان الدين بن الخطيب هذا الذي كتب هذه الكتابة القيمة عن ابن زمرك هو الأديب الأول في زمنه. وقد كان قطب الشعر والنثر في عصره، وظل محور الحركة الفكرية في الأندلس والمغرب في أواسط القرن الثامن الهجري. وكان صاحب مدرسة، يقلده من حوله، ويسير على أثره كل من شدا شيئًا من الأدب، أو قال الشعر، وكان إلى جانب هذا الوزير الأول في دولة بني الأحمر، وصاحب الجاه العظيم، والكلمة النافذة، ولكنه لم يخل من الحاسدين، وكيد الكائدين، وكان يشعر بأن الأندلس إذا استمرت فيها هذه الأحوال من التناحر على المناصب، والتخاذل والتآمر، سيئول أمرها إلى الأعداء، وسيكون مصيرها إلى الفناء، وقد نوه بذلك في بعض رسائله.

ولما اشتد ساعد خصومه، وقويت شوكتهم، وأظلم الجو حوله، ترك الأندلس وهرب إلى المغرب، ولكن خصومه لم يتركوه ومازالوا يسعون به، وعلى رأسهم ابن زمرك تلميذه حتى أغروا به سلطان المغرب بمساعدة وزيره سليمان بن داود الذي كان من ألد خصوم ابن الخطيب، فقبض عليه السلطان وزجه في السجن ودس عليه الوزير سليمان بعض الأوغاد فقتلوه في سجنه، وأخذت جثته وأضرمت فيها النار ثم دفنت، وذلك في خبر طويل.

وهكذا ذهب هذا الأديب الكبير، والمفكر العظيم ضحية الجهالة والتعصب والأحقاد السياسية.

وكان الأولى أن أكتب عن ابن الخطيب لأنه كان العَلَمَ الفرد في تلك

الديار، ولكنه كُتب عنه كثيرًا، وكُتُب الأدب مملوءة بتراجمه وأدبه وشعره، فآثرت أن أكتب عن أديب مغمور لم يكتب عنه إلا القليل، ولم تذكر له ترجمة في كتب الأدب الحديثة.

كان ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب، أعظم شخصية تزعّمت بعده الحركة الأدبية بالأندلس.

وقد نوه ابن الخطيب بذكائه وخلاله، وتفوقه في الدرس والأدب، وأثنى على شعره كما تقدم، وقد عمل ابن زمرك في كتابه السر في كنف ابن الخطيب، وتحت رعايته. وقد مدحه في قصائد عديدة ومقطوعات كثيرة أورد المقرّي منها في أزهار الرياض جملة من ذلك قوله:

لـــــك الله مــــــن فـــــذَ الجلالـــــة أوحـــــد

تطاوعــه الآمــال فــي النهــي والأمــر

لـــك القلـــم الأعلـــى الـــذي طـــال فخـــره

علـى المرهفـات البـيض والأسـل السُّـمر

إلى أن يقول:

لـك الحسـب الوضـاح والسـؤدد الـذي

يضيق نطاقُ الوصف فيه عن الحصر

تشـــــرَف أفـــــق أنـــــت بـــــدر كمالـــــه

فغرناطـة تختـال تيهـا علـى مصـر

تكلـــل تـــاج الملـــك منـــك محاســـنا

وفـاخرت الأمـلاكَ منـك بنـو نصـر

فلازلـــت للعليـــاء تحمـــي ذمارهـــا

وتسحب أذيال الفخار على النَسر

وللعلــم فخــر الــدين والفتــك بالعــدا

شـأوت بـه يـا ابـن الخطيـب علـى

* * *

جبـــرت مهيضـــا مـــن جنـــاحي ورشـــته

وسهَلت لي من جانب الزمن الوعر

وبـــوأتني مـــن ذروة العـــز معتلـــى

وشـرَفتني مـن حيـث أدري ولا أدري

وســـوغتني الآمـــال عـــذبًا مسلســـلا

وأسـميت مـن ذكـري ورفعـت مـن

فـــدهري عيـــد بالســـرور وبـــالمنى

وكـل ليـالي العمـر لـي ليلـة القـدر

فأصـــبحت مغبوطـــا علـــى خيـــر نعمـــة

يقـــلُّ لأدناهـــا الكثيـــرُ مـــن الشـــكر

فهو كما نرى هنا يشيد بجلالة قدر ابن الخطيب وعلو قدره، وأنه تاج الملك، وملوك بني نصر يفاخرون به الملوك، وغرناطة تختال به تيها على مصر، ثم يعترف بأنه هو الذي رفع من قدره، وبوّأة ذروة العز، وشرفه من حيث يدري، ولكنه مع هذا كله كان ضالعا مع خصومه، وفي طليعة الساعين إلى هلاكه. وقد خَلَفَهُ في الوزارة عقب فراره من الأندلس.

وقد ترجم الأمير الأديب أبو الوليد إسماعيل ابن السلطان أبي الحجاج المعروف بالأمير ابن الأحمر في كتابه: "نثير الجمان" ترجمة طويلة ضافية للوزير ابن زمرك نقلها عنه المعرّي في "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض"، وكذلك في "نفح الطيب"، وقد حفظ لنا المقرّي في هذين الكتابين كنوزا عظيمة من أخبار الأندلس ومن الوثائق والرسائل المهمة، وكمية كبيرة من الشعر والأدب، ولولا المقري لضاع كثير من هذه الأخبار. رحم الله المقري وطيب ثراه.

يقول الأمير ابن الأحمر كما هو في أزهار الرياض: "ولنبدأ بالتعريف بحال هذا الرئيس المنبه عليه، ونظهر ما كنا نغمره من الميل إليه.

في كل ما له أو عليه. فنقول: هو الفقيه الكاتب الفذ الأوحد، أبو عبد الله محمد بن يوسف الصريحي ويعرف بابن زمرك، نشأ ضئيلا كالشهاب يتوقد، مختصر الجرم والأعين بإطالة فواضله تشهد".. إلى أن قال: "وصار صدرا في نوادي طلبة الأندلس وأفراد نجبائها".

وبقي ابن زمرك في خدمة بني الأحمر سبعًا وثلاثين سنة، يصرف الأمور ويدبر الملك وأمره نافذ وحظوته متزايدة، وكان يذهب في السفارة بين الملوك ويعقد الصلح، ويفاوض الإسبان، ويقوم خطيبًا في كل مناسبة، وينشد القصائد الطوال، مهنئا ومادحًا، ومفاخرًا. يقول ابن الأحمر: "وقد وقفنا على رقعة من رقاعه وهو يبدئ فيها ويعيد، ويقول: "خدمته سبعًا وثلاثين سنة، ثلاثًا بالمغرب وباقيها بالأندلس، أنشدته فيها ستا وستين قصيدة، في ستة وستين عيدًا وكل ما في منازله السعيدة...، من نظم رائق، ومدح فائق في القباب والطاقات والطرز وغير ذلك، فهو لي، وكنت أواكله وأواكل ابنه مولاي أبا الحجاج وهُما كبيرا ملك أهل الأرض، وهنأته بكذا وكذا قصيدة، وفوض لي في عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين، وصلح النصارى عقدته تسع مرات... إلخ".

ولما طالت أيامه في الحكم تغيرت أخلاقه، وانقلبت تلك الصفات الطيبة إلى ضدها. وسبحان الذي يغير ولا يتغير. ويصفه ابن الأحمر بقوله: "وكان من شأنه الاستخفاف بأولياء الأمور من حجاب الدولة، والاسترسال في الرد عليهم، مع الاستغراق في غمار الفتن، ومراعاة حظوظ نفسه استيلاء وغضبا.. وإذا به قد ساء مشهدا وغيبا.

وأوسع الضمائر شكًا وريبا، فمن نفس يروع سِربَها، ويكدَّر بالامتحان والامتهان شربها، ومن ضارعة خاشعةلله سُلبت، وطولبت بغير ما اكتسبت، وتعدت الأيدي إلى أقوام جليّة سعدوا بشقائه وامتُحنوا وهم المبرءون من تزويره واعتدائه... إلخ". وأطال في وصف شراسته وحدة لسانه.

واستمر على هذه الحال وهو يثير حوله الخصومة والبغض والأحقاد حتى تغلب عليه خصومه، وألَّبوا عليه السلطان، وفي ذات ليلة من ليالي سنة ٧٩٧ هجرية هاجمه جماعة في منزلة فقتلوه وولديه وخدمة شر قتلة، أمام أهله

وبناته. والذي يفهم من كلام ابن الأحمر أن قتله كان بأمر من السلطان، لأنه يقول: فهلك على يدي مخدومه.

وينوه المقرّي بما في ذلك من عبر الدهر إذ كان ابن زمرك هو الساعي إلى مقتل أستاذه ابن الخطيب، فكان أن دارت عليه الدائرة، وقتل مثله، ولكن بصورة أقسى وأشنع.

ابن زمرك فحل من فحول الشعراء، قوي الشعر، صافي الديباجة، نقي الألفاظ. وقد يتفوق في شاعريته على أستاذه ابن الخطيب، وإنتاجه في الشعر ولاسيما في الموشحات أكثر من ابن الخطيب. ولكنه يقصر عنه في كثير من نواحي التفكير والإنتاج. فقد ترك ابن الخطيب عددًا هائلا من المؤلفات والرسائل في مواضيع متعددة.

وأما ابن زمرك فلم يذكر له الذين كتبوا عنه غير مجموعة من الشعر فقط. وقد رأيت على جدران قصر الحمراء كثيرًا من شعر ابن زمرك مكتوبًا بخط جميل نافر واضح. من ذلك الأبيات التالية في وصف الحمراء:

ولله مبنـــــــــاك الجميــــــــــل فإنـــــــــه

يفـوق علـى حكـم السـعود المبانيـا

فكـــــم فيــــه للأبصـــــار مــــن متنـــــزّه

تجــد بــه نفــسُ الحلــيم الأمانيــا

وتهـــوى النجـــوم الزُّهـــر لـــو ثبتـــتْ بــــه

ولـم تـك فـي أفـق السـماء جواريـا

بـــه البهـــو قـــد حـــاز البهـــاء وقـــد غـــدا

بــه القصــر آفــاق الســماء مباهيــا

وكـــــــم حلـــــــة جللتـــــــه بحليّهـــــــا

مـن الوشـي تُنسـى السـابريّ اليمانيـا

وكـــــم مـــــن قســـــيّ فـــــي ذراه ترفَعـــــت

علــى عمــد بــالنور باتــت حواليــا

فتحســـــــبها الأفـــــــلاك دارت قســـــــيَها

تظـل عمـود الصـبح إذ لاح باديـا

ســــــراريَ قـــــد جـــــاءت بكـــــل غريبـــــة

فطـارت بهـا الأمثـال تجـري سـواريا

بـــــه المرمـــــر المجلـــــو قـــــد شـــــفَ نـــــوره

فيجلـو مـن الظلمـاء مـا كـان داجيـا

بـــــه البحـــــر دفَـــــاع الغُبـــــاب تخالـــــه

إذا مـا انبـرى وفـد النسـيم مباريـا

إذا مـــا جلـــت أيـــدي الصّـــبا صـــفح متنـــه

أرتنـــا دروعـــا أكســـبتنا الأياديـــا

وراقصـــــة فـــــي البحـــــر طـــــوع عنانهـــــا

تُراجـــع ألحـــان القيـــان الغوانيـــا

إذا مـــا علـــت فـــي الجـــو ثـــم تحـــدَرت

تُحلـــى بمـــرفض الجمـــان النواحيـــا

وهي طويلة جدًا في نحو مائة وخمسين بيتا، منها في وصف الحمراء نحو خمسة وثلاثين بيتا.

وهي من عيون الشعر في حسن السبك وجودة المعاني مع طول النفس. وكذلك بقية شعره.

ومن قصائده العامرة، ومطالعه الظريفة قوله:

هـــــي نفحـــــةُ هَبَّـــــت مـــــن الأنصـــــار

أهـــدتْك فـــتحَ ممالـــك الأمصـــار

فـــــي بشـــــرها وبشـــــارة الـــــدنيا بهـــــا

مســـــتمتعُ الأســـــماع والأبصـــــار

هبـــــت علـــــى قطـــــر الجهـــــاد فروحـــــت

أرجـــــاءة بالنفحـــــة المعطـــــار

وســــــرت وأمـــــر الله طـــــيّ برودهــــا

يهـدي البريـة صُـنْعَ لطـف البـاري

مـــــرت بـــــأدواح المنـــــابر فـــــانبرت

خطباؤهــــا مفتنــــة الأطبــــار

ومن قصائده الرائعة، في تهنئة السلطان ببعض الأعياد، ووصف آثار ملكه وجهاده:

يـــا مـــن يحـــن إلـــى نجـــد وناديهـــا

غرناطـة قـد ثَـوتْ نجـدٌ بواديهـا

قـــفْ بالســـبيكة وأنظـــرْ مـــا بســـاحتها

عقيلـة والكثيـب الفـرد جاليهـا

تقلـــدت بوشـــاح النهـــر وابتســـمت

أزهارهـا وهـي حلـى فـي تراقيهـا

وأعـــين النـــرجس المطلـــول يانعـــة

ترقـرق الطـل دمعـا فـي مآقيهـا

وافتـــر ثغـــر أقـــاح مـــن أزاهرهـــا

مقـــبًلا خـــد ورد مـــن نواحيهـــا

ومنها في وصف الحمراء:

كـــــــأن حمراءهـــــــا والله يكلؤهـــــــا

ياقوتـــة فـــوق ذاك التـــاج يُعليهـــا

إن البـــــــدور لتيجـــــــان مكللـــــــة

جـواهر الشـهب فـي أبهـى مجاليهـا

بروجهـــــا لبـــــروج الأفـــــق مخجلـــــة

فشـــبهها فـــي جمـــال لا تضـــاهيها

تلـــك القصـــور التـــي راقـــت مظاهرهـــا

تهـوي النجـوم قصـورًا عـن معاليهـا

وهي طويلة جدًا.

ومن موشحاته الرائعة، موشحته في وصف غرناطة والإشادة في محاسنها حيث يقول:

نســــــــيم غرناطـــــــــة عليـــــــلْ

لكنـــــــه يُبـــــــرئ العليـــــــل

وروضـــــــــها زهـــــــــره بليـــــــلْ

ورشـــــــفه ينقَـــــــع الغليـــــــل

ســــــقى بنجــــــد رُبَــــا الُمصـــــلَى

مبــــــاكرا روضَـــــها الغمـــــامْ

فجفنــــــــه كلمــــــــا أشـــــــهلا

تبســــم الزهـــر فـــي الكِمـــامُ

والـــــروض بالحســــن قـــــد تجلـــى

وجـــرَّد النهـــر عـــن حســـامْ

ودوحهـــــــا ظلــــــــه ظليـــــــــل

يحسُـــن فـــي ربعـــه المقيـــل

والبـــــــرق والجـــــو مســـــــتطيل

يلعـــــب بالصـــــارم الصـــــقيل

عقيلــــــــة تاجهـــــــا الســــــبيكة

تُطلَـــــب بالمرقــــب المنيـــــفْ

كأنهـــــــا فوقــــــــه مليكـــــــــة

كرســـــيها جنـــــة العريـــــف

تطلــــع عـــــن عســـــجد ســــبيكة

شموســــــها كلمــــــا تُطيــــــف

وكل شعره جيد، وموشحاته كثيرة جدًا، ولا يسمح المقام بأكثر مما أوردت من شعره وأخباره ومن أراد الزيادة فعليه بـ"أزهار الرياض" الجزء الثاني، والجزء الرابع من "نفح الطيب" للمقرّي، ففيها زيادة المستزيد.

ابن هانئ الأندلسي متنبي المغرب**

حسن الأمين*

إذا كان المدح قد فرض على الشعر العربي فأصبح الشاعر ولا حيلة له إلا صوغ المدائح ليستطيع العيش، فقد كانت حظوظ الشعراء في هذا السبيل مختلفة، مختلفة لأن شاعرًا قد يوفق لممدوح لا يخجله مدحه لبطولة فيه أو سجايا حميدة، مما لا يبدو معه الشاعر بادي الكذب ظاهر الدجل واضح الاستجداء. كما قد لا يوفق شاعرا آخر لمثل هذا الممدوح، وقد يكون في مجموعه أولى بالذم والتجريح منه بالثناء والمديح. ومع ذلك فالشاعر مسوق إلى مدحه مدفوع إلى الإشادة به لأن الرزق في يديه، والمال رهن كلمته.

على أن حظ الشاعر الواحد قد يختلف بين ممدوح وآخر، فحظ المتنبي وهو عند سيف الدولة غير حظه وهو عند كافور. وإذا كانت قصائد المتنبي في سيف الدولة هي في أصلها مدحا، فإنها أيضًا إعجاب ببطولة البطل العربي الثابت في وجه الغزو الأجنبي، المكافح عن الحمى الوطني.

والمعارك التي شهدها المتنبي مع سيف الدولة جديرة بأن توحي إليه بمثل ما أوحت حتى ولو لم يكن المتنبي يقصد المدح أو لم يكن الكسب من غاياته.

والأمر مع المتنبي يجري على هذا القياس حتى وهو يمدح غير كافور ممن لم يكن يزري مدحهم في ذلك العصر مثلما كان يزري مدح كافور.

** العربي– العدد ١١٨– سبتمبر ١٩٦٨.

* مؤرخ لبناني راحل.

فالمتنبي وهو يمدح عضد الدولة كان في موقف غير موقفه وهو يمدح سيف الدولة، وإذا كان عضد الدولة من الملوك الذين لا مغمز فيهم، وله من المآتي ما يصح معه أن يكون ممدًحا. فهو علي كل حال ليس في وضع يشبه وضع سيف الدولة. وهو لم يكن الجندي المقاتل للعدو الخارجي، ولا وضعته الأحداث في لهوات الحرب الوطنية. فما يمكن أن يوحي به لشاعر كالمتنبي يستطيع أيّ أمير أن يوحي بمثله.

ومن هنا تراجعت قصائد المتنبي في مدح عضد الدولة عن قصائده في مدح سيف الدولة. وقد كان هذا التراجع واضحًا لكل ذي حسّ شعري، واعترف به المتنبي نفسه.

والواقع أن ما كان يهز المتنبي وهو يشهد معركة "الحدث الحمراء" مثلاً مع سيف الدولة فينطقه بهذا القول:

هـــل الحـــدث الحمـــراء تعـــرف لونهـــا

وتعـــرف أيّ الســـاقيين الغمـــائم

ســـقتها الغمـــام الغـــرُّ قبـــل نزولـــه

فلمـــا دنَـــا منهـــا ســـقتها الجمـــاجم

بناهـــا فـــأعلى والقنـــاع يقـــرع القنـــا

وجـــيش المنايـــا حولـــه مـــتلاطم

وقفـــتَ ومـــا فـــي المـــوت شـــكَ لواقـــف

كأنـك فـي جفـن الـردى وهـو نـائم

تمـــر بـــك الأبطـــال كلمـــى هزيمـــة

ووجهـــك وضـــاح وثغـــرك باســـم

ومـــن طلـــب الفـــتح الجليـــل فإنمـــا

مفاتيحـه البـيض الخفـاف الصـوارم

لم يكن عند عضد الدولة مثله ليهتز له المتنبي، وبالعكس من ذلك، عندما مست قلب المتنبي عاطفة جياشة فرأى جمال الطبيعة في شعب بوّان، ثم لم يسمع في تلك المغاني لسانه العربي، عاد متأثرا لما يرى ويسمع، ففاض الشعر من حنايا نفسه فأبدع ما أبدع:

مغـــاني الشَـــعب طيبَـــا فـــي المغـــاني

بمنزلـــة الربيـــع مـــن الزمـــان

ولكـــــن الفتـــــى العربـــــي فيهـــــا

غريـــب الوجـــه واليـــد واللســـان

ملاعـــب جنَـــة لـــو ســـار فيهـــا

ســـليمان لســـار بترجمـــان

ومن الشعراء الذين وفقوا لممدوح جدير بمدحهم الشاعر محمد بن هانئ الأندلسي شاعر المعز لدين الله الفاطمي الذي أطلق عليه معاصروه لقب

(متنبي المغرب).

وربما كان ما يجعل ابن هانئ جديرًا بهذا اللقب هو أن مواضع مدح ابن هانئ للمعز، هي عين مواضيع مدح المتنبي لسيف الدولة. فقد كانت ظروف كلا الممدوحين متشابهة، وكان كلاهما مندفعا لمقاومة الخطر الخارجي المهدد للبلاد الإسلامية يومذاك، بل إن مسئولية المعز كانت أكبر، فهو مسئول عن جبهة طويلة ممتدة على مدى شواطئ إفريقيا الشمالية كلها، ثم هو مسئول عن الجزر الإسلامية المهددة وفي طليعتها جزيرة صقلية.

ولم يكن الوضع الإسلامي والوضع العربي يومذاك مما يقوي العزائم ويشحذ الهمم، بل كان شمل العرب والمسلمين ممزقا واختلافاتهم مشتدة، لا الهدف يجمعه ولا الخطر يوحدهم.

وكان الأجنبي الطامع يعرف ذلك كله، وكانت نار الانتقام متأججة في نفوس البيزنطيين (الروم) الذين لم ينسهم تطاول الأيام ذكريات هزائمهم الماضية، وجلائهم عن بلاد الشام وغيرها، وكانوا يحنون للعود إليها من جديد. بل إن نقفور فوقاس الثاني كان يهدد بالاستيلاء حتى على المدينة ومكة، واستطاع تحقيق الكثير من أمانيه وفي ذلك يقول ابن هانئ:

أســـفي علـــى الأحـــرار قـــل حفـــاظهم

لـــو كـــان يجـــدي الحـــرَ أن يتأســـفا

يـــا ويلكـــم أفمـــا لكـــم مـــن صـــارخ

إلا بثغـــر ضـــاع أو ديـــن عفـــا

فمدينـــــة مـــــن بعــــد أخـــــرى تُســــتبى

وطريقـــة مـــن بعـــد أخـــرى تقتفـــى

حتـــــى لقــــد رجفــــت ديــــار ربيعـــــة

وتزلزلـــــت أرض العـــــراق تخوفــــا

والشـــــــام قـــــــد أودى وأودى أهلـــــــه

إلا قلـــيلاً والحجـــاز علـــى شـــفا

هذه صرخة وطني مناضل يرى بلاده تتساقط أمام ضربات الأعداء، ويرى قومه متخاذلين.

هذه صرخة وطني مناضل أكثر منها نغمة شاعر مداح.

والواقع أن المعز لدين الله الفاطمي كان في ذلك العهد أمل العرب والمسلمين، وكانوا يتطلعون إليه من كل مكان، حتى من الأرض البعيدة عنه غير الخاضعة لسلطانه. فعندما شعرت مثلاً جزيرة أقريطش (كريت) بالخطر الداهم، ولاحت لها طلائع الغزو مطلة من بعيد، كان همها أن توصل نداءها إلى الرجل المأمول. ويحدثنا د.حسن إبراهيم حسن وهو يتحدث عن كتاب (المجالس والمسايرات) للنعمان فيقول: "وعرض النعمان غير مرة لعلاقة المعز بالدولة البيزنطية فأوضح اعتماد حاكم الأندلس عبد الرحمن الناصر الأموي على الروم في صراعه مع الفاطميين، وصور ما حل بالروم وحلفائهم أمام أساطيل المعز تصويرًا رائعا، وذكر الرسائل التي بعث بها أباطرة الدولة البيزنطية لاستدرار عطف المعز ومهادنته. ولأول مرة نسمع أن مسلمى جزيرة

أقريطش (كريت) الذين كانوا تحت الحكم العباسي يطلبون النجدة من المعز لحرب الروم.

ومن دراستنا للوثائق التي تبودلت بين أهل أقريطش وبين المعز لدين الله نرى ما وصلت إليه الدولة الفاطمية من قوة نفوذ".

وابن هانئ يدرك ذلك ويدرك أن ممدوحه أهل لما علق عليه من آمال فيقول:

لا تيأسوا فالله منجز وعده

قد آن للظلماء أن تتكشفا

لقد كان المعز جديرًا بالظرف الحرج الذي وضعته فيه الأيام، فلم يدع الوقت يذهب عبثا وأدرك للوهلة الأولى أنه أمام خطر بري وآخر بحري قد يكون هو الأشد. لذلك صرف جهده أول ما صرفه إلى إنشاء أسطول ضخم يتناسب مع المهمة الثقيلة التي تنتظره وهي حماية الشواطئ الإفريقية الشمالية من أي غزو متوقع، وبذل لهذا الأسطول أقصى ما يستطيع بذله حتى أصبح أسطوله سيد البحر المتوسط، وحتى صار مهددا للأعداء بعد أن كان الأعداء مهددين له، وحتى صاروا يخشونه بعد أن كانت البلاد تخشاهم.

وقد كان هذا الأسطول أعظم ما يمكن أن يصل إليه أسطول في ذلك العصر، مجهزا بأحدث الآلات الحربية والأدوات النارية. فأثار هذا الأسطول حماسة الشاعر ورأى فيه المخرج من الأخطار والحماية من النوازل، وهاج فيه اعتزازه وحميته، فأنطقه ذلك بقصيدة هي بحق من فرائد الشعر العربي:

لـــــك البـــــر والبحـــــر العظـــــيم عبابـــــه
فســـيَان أغمـــار تخـــاض وبيـــد
ومــــا راع ملـــــك الـــــروم إلا اطلاعهـــــا
تنشـــــر أعـــــلامٌ لهـــــا وبنـــــود
عليهـــــا غمــــام مكفهـــــر صــــبيره
لـــه بارقـــات جمـــة ورعـــود
مــــواخر فــــي طـــامي العبـــاب كأنـــه
لعزمــك بــأس أو لكفَــك جــود
أنافـــت بهـــا أعلامهـــا وســـمالها
بنـــاء علـــى غيـــر العـــراء مشـــيد
مـــن الراســـيات الشـــم لـــولا انتقالهـــا
فمنهـــا قنـــان شـــمخ وريـــود
مـــن الطيـــر إلا أنهـــن جـــوارح
فلـــيس لهـــا إلا النفـــوس مصـــيد
مـــن القادحـــات النـــار تضـــرم للصـــلى

فلــيس لهــا يــوم اللقــاء خمــود

إذا زفـــــرت غيظـــــا ترامـــــت بمــــارجِ

كمـا شـبّ مـن نـار الجحـيم وقـود

فأنفاســــــهن الحاميــــــات صــــــواعق

وأفـــواههن الزافـــرات حديـــــد

لهـــــا شـــــعلٌ فـــــوق الغمـــــار كأنهـــــا

دمـــاء تلقّتُهـــا ملاحـــف ســـود

تعـــــانق مـــــوج البحـــــر حتـــــى كأنـــــه

ســليط لهــا فــي الــذَبال عتيــد

ثم يصف وصول وفود الروم متذللة تطلب الصلح، مخاطبًا المعز مشيرا إلى ما كان من تغلغل الروم قبل ذلك في بلاد الشام:

فـــلا غـــرو أن أعـــززت ديـــن محمـــد

فأنـــت لـــه دون الأنـــام عقيـــد

غضـــبت لــه أن ثُــل فــي الشــام عرشــه

وعـــادك مـــن ذكـــر العواصـــم عيـــد

وقلـــت أنـــاس ذا "الدمســـتق" شـــكره

إذا جـــاء بـــالعفو منــــك بريــــد

تناجيــك عنــه الكتــب وهــي ضــراعة

ويأتيــك عنــه القــول وهــو ســجود

إذا أنكــــرت فيهـــا التــــراجم لفظــــه

فأدمعــــه بــــين الســــطور شــــهود

ليـــالي تقفـــو الرســـل رســـل خواضـــع

ويأتيـــك مـــن بعـــد الوفـــود وفـــود

ويمضي الأسطول العربي في أداء رسالته، وتجوب قطعه البحر المتوسط متحدية كل من تحدثه نفسه بالشر، وتعلن سفنه بنفسها عن نفسها، ثم تلتقي على غير موعد بسفن الأعداء فلا تلبث أن تصدم بها، ويتهاوى الفريقان في نار الوغى ويتجالدون أعنف جلاد، تحفز الروم ثارات متأصلة وأوتار دفينة. وتحفز العرب أخطار منتظرة وشرور مرتقبة، ويتطلع العرب بقلوبهم إلى الوطن العربي العزيز ويتخيلون ماذا سيحل الأرض الطيبة، إذا هم تزحزحوا عن موقفهم أو تزلزلوا في حربهم فيندفعون مكبرين وينطلقون مهللين فتنجلي المعركة عن نصرهم البحري الحاسم في معركة المجاز.

ويكون الشاعر معهم بكل شعوره وكل جوارحه، متلهفا لمعرفة الخبر الأخير ولما يبلغ أذنيه نبأ الفوز ينطلق مزهوا متغنيا بالبطولات:

يـــوم عـــريض فـــي الفخـــار طويـــل

لا تنقضـــي غُـــزر لـــه وحُجـــول

مســـحت ثغـــور الشـــام أدمعهـــا بـــه

ولقـــد تبـــل التُّـــرب وهـــي همـــول

قـــل للدمســـتق مـــورد الجمـــع الـــذي

مـــا أصـــدرته لـــه قنـــا ونصـــول

ســـل رهـــط "منويـــل" وأنـــت غرزتـــه

فـــي أي معركـــة ثـــوى منويـــل

منـــع الجنـــود مـــن القفـــول رواجعـــا

تبـــا لـــــه بالمنـــــديات قفـــــول

وبعثـــت بالأســـطول يحمـــــل عـــــدة

فأثابنـــــا بالعـــــدة الأســـــطول

أدى إلينـــــا مـــــا جمعـــــت مـــــوفرًا

ثـــم انثنـــى بـــاليم وهـــو جفـــول

ومضـــى يخـــف علـــى الجنائـــب حملـــه

ولقـــد يـــرى بـــالجيش وهـــو ثقيـــل

لـــم يتركـــوا فيهـــا بجعجـــاع الـــرّدى

إلا النجيـــع علـــى النجيـــع يســـيل

نحـــرت بهـــا العـــرب الأعـــاجم أنهـــا

رمـــح أمَـــقٌّ ولهـــذم مصـــقول

ثم ينتهي إلى مدبر ذلك كله وقائد النصر ومعد الأسطول ومهيئ الجيش، إلى المعز:

لا تعـــــدمنك أمـــــة أغنيتهـــــا

وهـــديتها تجلـــو العمـــى وتنيـــل

وتتكرر معارك الأسطول العربي وتتكرر انتصاراته فيحرص الشاعر على الإشادة بالأسطول:

وســفن إذا مــا خاضــت الــيم زاخــرا

جلـت عـن بيـاض الصـبح وهـي غرابيـب

تشـــب لهـــا حمـــراء قـــان أوارهـــا

سـبوح لهـا ذيـل علـى المـاء مسـحوب

وتلتقي جيوش الروم وأساطيلهم بجيوش الفاطميين وأساطيلهم أكثر من مرة وتقع المعارك البرية والبحرية في أوقات متقاربة وينتصر الفاطميون وتحمى

بانتصاراتهم ديار الإسلام والعروبة فيقول ابن هانئ مشيرًا إلى أن الروم كانوا قبل اليوم سادة البحر المتوسط، تجول فيه أساطيلهم وتصول بلا رقيب ولا منافس، وإلى أن جيوشهم البرية كانت كذلك:

لـــو كـــان للـــروم علـــم بالـــذي لقيـــت

مـــا هُنئـــت أم بطريـــق بمولـــود

ألقـــى "الدمســـتق" الأعـــلام حـــين رأى

مـــا أنـــزل الله مـــن نصـــر وتأييـــد

فقـــل لـــه حـــال مـــن دون الخلـــيج قنـــا

ســـمر وأذرع أبطـــال مناجيـــد

ثم يخاطب المعز:

ذمـــوا قنـــاك وقـــد ثـــارت أســـنتها

فمـــا تـــركن وريـــدا غيـــر مـــورود

حميتـــه البـــر والبحـــر الفضـــاء معـــا

فمـــا يمـــر ببـــاب غيـــر مســـدود

قـــد كانـــت الـــروم محـــذورا كتائبهـــا

تـــدني الـــبلاد علـــى شـــحط وتبعيـــد

وشـــاغبوا الـــيم ألفـــى حجّـــة كمـــلا

وهـــــم فـــــوارس قاريَاتــــــه الســـــود

فـــاليوم قـــد طمســـت فيـــه مســـالكهم

مــن كــل لا حــب نهــج الفلــك مقصــود

هيهـــات راعهـــم فـــي كـــل معتـــرك

ملـــك الملـــوك وصـــنديد الصـــناديد

وابن هانئ إشبيلي المولد، أندلسي النشأة، فقد ولد سنة ٣٢٠هـ أو ٣٢٦هـ في قرية سكون من قرى مدينة إشبيلية وكان صديقا لوالي إشبيلية مقربًا إليه. وكان الحكام في الأندلس لا يحبون الدولة الجديدة التي أخذت تشب ويقوى ساعدها في إفريقيا فأخذوا يعملون على زعزعتها. ولم يتورعوا عن التحالف مع الأجنبي للقضاء عليها.

وكان هوى ابن هانئ مع الفاطميين وقلبه متجها إليهم، وكان كغيره يرى في شباب دولتهم ما يمكن أن يعيد الشباب إلى الوطن العربي. ويبدو أنه كان لا يتورع عن الجهر بآرائه والدعوة إليها، مما لم يكن يخفى على الحاكمين، فدبروا له تهمة الأخذ بالفلسفة، وهي تهمة كانت هناك في ذلك الوقت كافية لاستحلال الدماء. ويبدو أن صديقه الوالي الإشبيلي قد أحس بما يدبر للشاعر في الخفاء فنصحه بترك إشبيلية فأخذ الشاعر بالنصيحة، واتجه إلى العدوة الإفريقية حيث اتصل في المسيلة بجعفر بن علي، فلم يجد جعفر هدية يقدمها لخليفته أثمن من هذا الشاعر، فأوفده إليه، وكان المعز في أمسَ الحاجة لمثل ابن هانئ ليكون لسانه الناطق في تطور دولته وتقدمها، وليكون

وسيلته الإعلامية، وإذاعته القوية، فاحتفى به وقربه إليه. وظل ابن هانئ يسجل انتصارات المعز ويعدد وقائعه إلى أن خطأ المعز خطوته الحاسمة فأرسل قائده جوهرا لضم مصر إلى خلافته. ودخل جوهر الإسكندرية متقدمًا إلى العاصمة فأذاع ابن هانئ النبأ بهذا الشكل.

يقــول بنــو العبــاس هــل فتحــت مصــر؟

فقــل لبنــي العبــاس قــد مضــى الأمــر

وقـــــد جـــــاوز الإســــكندرية جـــــوهر

تســير بــه البشــرى ويقدمــه النصــر

ويتهيأ المعز للذهاب إلى مصر وإنشاء عاصمته الجديدة (القاهرة) ثم يمضي إليها على أن يلحقه شاعره ليكون هناك كما كان هنا المذيع البليغ. وكان حكام الأندلس متابعين لخطر الشاعر، عالمين بما فعله شعره للدولة المتقدمة، وما يمكن أن يفعله بعد أن تطورت من حال إلى حال. ورأوا في شعره خطرا لا يقل مضاء عن السيف فقرروا حرمان الدولة الحديثة منه، فأرسلوا إليه من اغتاله وهو في الطريق إلى مصر عند برقة سنة ٣٦٢هـ وهكذا انتهى هذا الشاعر الفريد نهاية أليمة غير متجاوز مراحل الشباب.

ولا شك أنه لو قدر له الوصول إلى مصر لترك في أحداثها وحياتها وطبيعتها الشيء الكثير الثمين.

الملك الشاعر[**]

د. رجاء عيد[*]

تلك الجنة العربية التي دخلها العرب على أسنة مشرعة، وسيوف لامعة في السنة الثانية والتسعين للهجرة، هذه هي الأندلس تسمق مآذنها بالإسلام وهؤلاء العرب لم يفسدهم الترف ولم تبطرهم النعمة، وإذا هم منطلقون ليفتحوا جنوبي فرنسا.

ها هي ذي دولة الأمويين الجديدة في المغرب بعد سقوط حكمهم في المشرق يرفع رايتها من جديد صقر قريش (عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك).

ولقرون ثلاثة تظل الأندلس ممتدة السلطان مرهوبة الجانب، والفردوس العربي لا وهم يخطر على بال بأننا سنفقده يومًا، كيف وهذا واحد من صانعي مجدها عبد الرحمن الناصر أرهب الأعداء المتربصين في شمالها وغربها ووحد بين عناصرها المختلفة وبلغت الأندلس قمة حضارتها وثرائها.

ويتولى الحكم صبي يتسلط عليه بعض الطامحين، ويكون ذلك إيذانا بإضعاف البيت الأموي وتنازع أهله، ثم انقضاء حكمه حيث توالى على الحكم خلفاء ضعاف. وفي سنة ٤٢٢ خلع آخر خلفاء الأمويين.

[**] العربي– العدد ٢٨١– أبريل ١٩٨٢.

[*] أكاديمي مصري.

بدأت تصوح شجرة الأندلس الباسقة، وتخفت أنوار مآذنها العالية. لقد تمزقت دويلات وتقسمت إلى طوائف، وأصبحت الدولة الواحدة أربع عشرة دولة.

العناصر المتباينة التي استقرت في الأندلس أسهمت في وجود هذه المزق في جسد الدولة الواحدة، كان بها العرب والبربر والصقالبة والمستعربون. وكل عنصر يحاول ما أمكنه أن يكون له شيء من الأمر.

وها هي ذي الأندلس جريحة تثخنها بعثرة جسدها بين البرابرة الذين كانوا تولوا الأمر في الجزء الجنوبي منها، وبين الصقالبة في جزئها الشرقي، وبين سوى هؤلاء في أجزائها الباقية "بنو حمود في مالقة، وبنو نريري في غرناطة، وبنو هود في سرقسطة، وبنو ذي النون في طليطلة، وبنو الأفطس في بطليوس، وبنو جهور في قرطبة، وبنو عباد وملوك إشبيلية، ومن هؤلاء المعتمد بن عباد".

في وسط هذه المنحنيات التاريخية التي يتغير في أثنائها وجه التاريخ يصبح من يعايشها محاصرا بمصاعب التاريخ كله وهو يعاني مخاض التغيير وتصبح مقاومته بطولة تراجيدية مؤلمة.

هذا هو المعتمد بن عباد وسط هذا المنحنى التاريخي العنيف، وهذا هو يخلف أباه (المعتضد) على عرض إشبيلية وعمره تسع وعشرون سنة، وقد مارس الحكم صغيرًا إذ ولاه أبوه حكم إحدى المدن ولما يتجاوز الثانية عشرة، وأسند إليه بعد ذلك قيادة الجيش الذي حاصر مدينة (شلب).

المعتمد بن عباد يتولى أمر إشبيلية وسحب العاصفة تتجمع في كل نواحي الأفق المربد، حوله يتربص كل أمير بمن حوله، وتزداد الفجيعة حين

يستعين بعض هؤلاء بالعدو المتربص.

ويسود وجه الأفق بفجيعة العرب حين تسقط (طليطلة) وما كان لطليطلة من مكانة ومهابة، وها هو ذا ألفونسو السادس بعد استيلائه على طليطلة يشتط في طمعه ويتدخل في شئون بعض إمارات ملوك الطوائف، بل ويعين بعضهم على بعض.

هذه الإمارة التي يتولاها (المعتمد بن عباد) إشبيلية تحاول متمسكة بأهداب آخر شعاع من نور العروبة القديم، ممثلاً في المعتمد، أن تحفظ كبرياءها أو ما تبقى منه.

يرسل ألفونسو السادس إلى المعتمد طالبًا زيادة الجزية التي اضطر العرب لدفعها عندما هان شأنهم في الأندلس، ويكون طلبه مثقلاً بمزيد من الإذلال والتجني، فيطلب أن تدخل امرأته- وكانت على وشك الوضع- جامع قرطبة كي تلد فيه، وأن ينزل امرأته بمدينة الزهراء في أثناء إقامتها. ويغلظ رسول ألفونسو في الطلب.

يا للكبرياء العربي المهيض؟ أهكذا يريد وجه الزمن وتقبح الأحداث؟ هذا هو المعتمد يثور دمه العربي له. وإذا هو يمسك آلة كانت بين يديه يسقط بها رأس الرسول المتبجح ويأمر بصلبه منكسا بقرطبة.

ويبلغ ألفونسو ما أصاب رسوله فينفجر غضبه ويقسم ليغزون إشبيلية ويقضي على هذا الكبرياء العربي ممثلاً في المعتمد الذي يحاول أن يستقطر شعاع ضوء في حلك الأفق المحيط به. ها هما ذان جيشان يجردهما ألفونسو في طريقهما إلى إشبيلية، وهما يسيران في طريقين مختلفين يسفكان الدم ويهدمان ما شيد، ويخربان ما عمر.

ويلتقي الجيشان على مقربة من قصر المعتمد ويدفع الغرور بأخذ القائدين وقد اشتدت الحرب إلى أن يكتب إلى المعتمد متبجحا (اشتد عليّ الحر فألقني من قصرك بمروحة أروح بها عن نفسي، وأطرد بها الذباب عني) ويرد عليه ابن المعتمد علي ظهر رسالته (قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك وسأنظر لك في مراوح من الجنود في أيدي الجيوش المرابطية تروح منك لا تروح عليك إن شاء الله).

لم يكن أمام المعتمد إلا أن يستعين بدولة المرابطين في المغرب مع إدراكه أنهم يتطلعون إلى كل ملوك الطوائف. ولم يكن يخفى عليه أطماع (يوسف بن تاشفين) أميرها. لكنه يحس بعروبته أن كرامة العرب وقد أهينت وابتذلت لابد من دم يغسل عنها العار، ولو كان دمه سوف يهرق مع كل الدماء لذلك فهو لا يقبل تحذير المحذرين، ويقول كلمته وقد حفظها التاريخ ووعاها (رعي الجمال خير من رعي الخنازير) ويعني أنه إن تغير عليه ابن تاشفين وصار أسيرًا له، فذلك خير له إذ يرعى جمال ابن تاشفين في الصحراء من أن يكون أسيرا للأعداء المتبجحين يرعى خنازيرهم في أسرهم له.

ها هو ذا (يوسف بن تاشفين) يعبر البحر إلى الأندلس ليقف بجانب المعتمد، ويرسل المعتمد ابنه للقاء القادمين ويقدم لهم ما يحتاجون إليه.

ها هما: المعتمد ويوسف يتعانقان ويتعاهدان على الجهاد وبذل النفس وها هم ملوك الطوائف يسارعون بتقديم ما يقدرون من مؤن وسلاح.

ويلتقي الجمعان: وها هو ذا المعتمد على رأس جيش وابنه على رأس جيش ويوسف بن تاشفين ومن معه.

وها هو ذا يوسف بن تاشفين يرسل إلى قائدي الأعداء بدعوة إلى

الإسلام أو الجزية أو الحرب فيستشيطا غضبا.

وها هو ذا المعتمد في غمار المعركة يحيط به الأعداء من كل جانب، والجراح تثخنه والدم يسيل منه وتعقر تحته ثلاثة أفراس، وكلما غير له فرس طالته السيوف والرماح، ويقبل جند المرابطين واختلطت الدماء بالأرض، ويتأخر النصر لكن الصبر مازال زاد المقاتلين حتى أذن الله به، فانهزم العدو ورفرفت رايات النصر على إشبيلية، وعاد ابن تاشفين إلى بلده بعد أن ودعه ابن المعتمد في الطريق ودماؤه وجراحه لما تزل تسيل منه وتثخنه.

هذه هي وقعة (الزلاقة) وقد صفا وجه الزمن قليلاً. وها هم أولاء الشعراء في مجلس المعتمد وما كان أكثر بره لهم واحتفائه بهم يجدون في ظله الدعة والخير والعطاء الوفير وتطالعنا من أسمائهم: ابن زيدون الذي وجد الأمن في (إشبيلية) المعتمد بعد سجن وتعذيب، ونجد ابن حمديس وابن عمار وغيرهم.

هذا (ابن حمديس) وقد وقف يهنئ بالنصر العظيم غداة وقعة الزلاقة فيقول:

ليهنـــا بنـــو الإســـلام أن أبـــت ســـالما

وغــادرت أنــف الكفــر بالــذل راغمــا

كشـــفت كروبـــا عـــن قلـــوب كأنمـــا

وضــعت عليهــا مــن هــواك خواتمــا

صــبرت لحــر الطعــن والضــرب ذائــدا

عــن الــدين واستصــغرت فيــه العظائمــا

رحمنـــاك مـــن وقـــع الصـــوارم والقنـــا

فكـــان لنـــا فـــي حفظـــك الله راحمـــا

وكـــم شـــجة فـــي حـــر وجهـــك لـــم يـــزل

لـــك الحســـن منهـــا بالشـــجاعة واســـما

انضافت في سجل التاريخ سطور أخرى لمنزلة المعتمد وهيبة أمارته حين حاصر (يحيى بن ذي النون) قرطبة، ولا يجد أميرها (عبد الملك) من سلالة بني جهور إلا أن يستعين بالمعتمد، ويرسل جيشا إلى قرطبة مما يجبر ابن ذي النون على الانسحاب وفك الحصار، وهنا يطمح (ابن المعتمد) في الاستيلاء على قرطبة ويتمكن ابن المعتمد من تحقيق مطمعه، ويموت عبد الملك من الصدمة حيث حمل وأهله إلى جزيرة اختيرت منفى لهما.

ويسخر القدر، الكأس نفسها وقد سقي المعتمد منها عبد الملك، يديرها القدر على المعتمد نفسه.

تبدأ أول قطرة من الكأس حين ولي (المعتمد) ابنه على قرطبة ويستطيع أحد المغامرين الطامعين أن يتسلل خلسة ببعض أنصاره ويقتلوا ابن المعتمد.

ويتتابع القطر المر. هذا يوسف بن تاشفين يتطلع إلى الاستيلاء على إمارات ملوك الطوائف، وها هم أولاء يحسون جميعًا بذلك الخطر، فيكتبون إليه مستعطفين "... وإن استبقاءك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك".

وإذا كان (يوسف بن تاشفين) حاول في رده أن يطمئن ملوك الطوائف إلا أنه قد بيت الأمر على غير ذلك، يدفعه قومه الذين تبلغهم مظاهر الترف البالغ وحياة المتاع الخالص لدى ملوك الطوائف وقد شاهد منه في أثناء

وجوده بالأندلس– وهم مازالوا في تقشف البادية– صورًا من الترف والمتاع قد أسخطت عليهم قلوبًا لا تزال على فطرة وتشدد وتدين.

لقد ساعد المرابطين في ذلك فقهاء الأندلس الذين رأوا أن الأعداء يزداد جمعهم، وملوك الطوائف يزداد تفرقهم.

ويشرع المرابطون في القضاء على ملوك الطوائف، ويندفع (سيرين إبراهيم) قائد المرابطين مستوليا على ممالكهم واحدة بعد أخرى، وينظر (المعتمد) فلا يجد نصيرًا، الإمارات حوله تتساقط كأوراق الخريف، وأعداؤه من الشمال يتربصون به ومن الغرب نصيره القديم قد انقلب عليه، وجنوده تزحف إلى قرطبة حيث يحكمها المأمون، ولد المعتمد، ويحاول أن يدفع عنها ما لا قبل له به، ولا يستطيع، ويبلغ المعتمد مقتله.

أسد إشبيلية تحوط بغابه جموع الصائدين، ويتساقط ما حول الغاب من إمارات الطوائف.

ويستجمع البطل المحاصر من كل مكان دماء شهامته وجماع كبريائه ويحاول أن يدفع ما استطاع من لا قبل له به، ويشتد حصار المرابطين له، وهو لا يلين ولا يضعف ولكنه يقاوم كأبطال التراجيديا حركة الزمن الرهيبة.

الخيانة تفرخ في داخل إمارته فيدخلون عليه من أحد الأبواب التي غدر منها أصحابها، ولكنه عنيد لا يستسلم، ويحارب ومن وقف معه جموع المغيرين، ويستطيع أن يسد باب الغدر، ويعودون من الوادي فيردهم ثانية. ويأتي الليل والبطل الجريح مازال صلب العود، عازما على القتال حتى يسيل دمه، وجموع المرابطين تزحف حواليه من كل مكان، ويدوم القتال أيامًا، ونذر المأساة تستطير من كل جانب وتفرق القوم من حوله. ولم يبق حوله سوى

بعض الأوفياء وإذ هو في قبضة الأسر.

ولا يكف الدهر عن عبثه وكيده، وهذان أبناه: المعتمد والراضي مازالا بقلعتين لهما. لا تنالهما يد المرابطين، وقد أبيا الاستسلام، ولكن أهل بيته وقد ضاق بهم كل شيء وضاق حولهم كل شيء يجبرانه على الكتابة إليهما ليستسلما لكنهما يرفضان مهانة الأسر، وتتصارع في أنفسهما مشاعر العطف على الأب الأسير، والوالدة الأسيرة، ومشاعر العزة والإباء وقد رضعاها من هذين الأسيرين أيضًا، ويستسلمان ويؤسر المعتمد، أما أخوه الراضي فيغدر به آسره ويقتله ويخفي جسده.

يا كيد الدهر، ويا بؤس الأيام، مازال عطاؤك المربد يدخر ما فوق الاحتمال.

هذا هو المعتمد الشجاع النبيل تسير به سفينته مع أهله مخترقة البحر لترسو على ساحل المغرب، ليقيم أيامًا بطنجه، ثم إلى مدينة (مكناسة) ويأمر آسره بنفيه إلى مدينة (غمات) البطل المهيض الجناح يرسف في القيود، وأبناؤه بين أسر وقتل وتشريد.

وهذا ولد له يعمل في حانوت صائغ طلبًا للقمة العيش وهؤلاء بناته يغزلن التماسا للقوت.

المجد القديم والشجاعة التي بلغت فوق الخيال حين بلغت أوجها في الزلاقة وفي إقامة عريش في حديقته مجلل برءوس الأعداء وكان يقول المعتمد كلما مر عليه: في مثل هذا البستان (فليتنزه) كل ذلك كأنه لم يكن.

عطاؤه الذي لا ينفد للشعراء ولغيرهم قد نفد، وهذا واحد من شعرائه يمر على طريق. فيا لبؤس ما يرى ابن المعتمد وقد تغير وجهه بدخان الكير

الذي ينفخ فيه عند صائغ يعمل عنده، والجواد مغلول في أسره، فيبكي قلبه شعرًا:

طوقـــت مـــن نائبـــات الـــدهر مخنقـــة

ضـــاقت عليـــك وكـــم طوقتنـــا نعمـــا

وعـــاد طوقـــك فـــي دكـــان قارعـــة

من بعد ما كنت في قصر حكى إرما

يـــا صـــائغا كانـــت العليـــا تصـــاغ لـــه

حليـــا وكـــان عليـــه الحلـــي منتظمـــا

للـنفخ فـي الصـور هـول مـا حكـاه سـوى

هـــول رأيتـــك عنـــه تـــنفخ الفخمـــا

ولم يبق إلا وفاء شعرائه له، فالمحنة التي أصابت أميرهم الجواد الشاعر لم تزدهم إلا مزيد وفاء، ويعبر كثير منهم البحر ليزور الأمير الأسير. ويحاول الأمير أن يمنح ما يحتاج إليه، فيعتذرون عن قبول شيء فما أكثر ما جاد لهم بكل شيء.

ويدخل عليه شاعره الأثير لديه (أبو بكر بن اللبانة) فينظر إلى المعتمد وقد أحاطت بساقيه حلقات الحديد، وهو لا يقدر على تحريك قدم، ويتذكر شاعره أيام المجد الراحل حيث عاش في نعمة المعتمد وسط جنة وحرير، فينتحب أمام المعتمد، حتى إذا هدأت نفسه بعض الشيء ناحت نفسه بأبياته:

انفـــض يـــديك مـــن الـــدنيا وســـاكنها

فـالأرض قـد اقفـزت والنـاس قـد مـاتوا

وقـــل لعالمهـــا الســـفلي قـــد كتمـــت

ســـريرة العـــالم العلـــوي (أغمـــات)

طـــوت مظلتهـــا، لا بـــل مـــذلتها

مـــن لـــم تـــزل فوقـــه للعـــز رايـــات

رمـــاه مـــن حيـــث لـــم تســـتره ســـابقة

دهـــر مصـــيباته نبـــل مصـــيبات

ولا يكف الدهر عن عبثه الفاجع وكيده الأليم- هذا هو الفارس العربي الشجاع والأمير المهيب والذي أرهب الأعداء طيلة ثلاثة وعشرين عامًا، ها هو ذا يموت، ولا أحد يعلم أي بطل في كفن متواضع، وينادي على جنازته للصلاة عليه (الصلاة على الغريب)!!!

هذه وصاته الأسيانة الموجعة وبعض أبياتها تقول:

قبـــر الغريـــب ســـقاك الـــرائح الغـــادي

حقـــا ظفـــرت بأشـــلاء ابـــن عبـــاد

بـــالحلم بـــالعلم بـــالنعمي إذا اتصـــلت

بالخصـــب إن أجـــدبوا بـــالري للصـــادي

بالطــاعن الضــارب الرامــي إذا اقتتلــوا

بــالموت أحمــر بالضــرغامة العــادي

ولــم أكــن قبــل ذاك النفــي أعلمــه

أن الجبــال تهــاوي فــوق أعــواد

ها هو ذا قبره في صحراء مقفرة، لكن أوفياءه من الشعراء والذين تقلبوا في أيام نعمائه يتلمسون الطريق إليه وها هو ذا واحد منهم يطيف بقبره وها هي ذي دموعه ترفض حتى يتغيم أمامه كل شيء وها هو ذا يخر على التراب يقبل في لونه الرمادي مثوى الراقد في صمت وكبرياء.

وها هي ذي أحزانه ينظمها في أبياته الثكلي:

ملــك الملــوك أســامع فأنــادى

أم قــد عــدتك لــدى الســماع عــواد

لمــا خلــت منــك القصــور ولــم تكــن

فيهــا كمــا قــد كنــت فــي الأعيــاد

أقبلــت فــي هــذا الثــرى لــك خاضــعا

وجعلــت قبــرك موضــع الإنشــاد

قــد كنــت أحســب أن تبــدد أدمعــي

نيــران حــزن أضــرمت بفــؤادي

فـــــإذا بـــــــدمعي كلـــــــه أجريتـــــــه

زادت علـــــــى حـــــــرارة الأكبـــــــاد

وتستمر أبياته الباكية وصوته المنزوف أسى يجمع حوله الناس، وإذا هم في لوعة لوعته وإذا الجميع يبكون بطلًا تعاهدته النكبات وتصالحت عليه الأرزاء، وظل صلب العود قوي الإرادة.

المعتمد بن عبّاد[**]

فاروق شوشة[*]

يقول عنه ابن بسام في كتابه (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة): "وقد كان متمسكا من الأدب بسبب، وضاريًا في العلم بسهم، وله شعر كما انشقَ الكمام عن الزهر، ولو صدر مثله ممن جعل الشعر صناعته، واتخذه بضاعته، لكان رائعًا معجبًا، ونادرًا مستغربًا. يرمي فيصيب، ويهمي فيصوب، والعجب من المعتمد أنه مرى سحابه في كلتا حاليه فصاب، ودعا خاطره فأجاب، ولا تراجع له من طبع، في المُلك ولا بعد الخلْع، بل يومه في هذا الشأن دهر، وحسنته في هذا الديوان عشر، فإن أجاد فما أوْلى، وإن قصر فأمره واضح".

هذا هو رأي التاريخ الأدبي في الشاعر المعتمد بن عباد، أما رأي التاريخ السياسي في الملك المعتمد، فأمر مختلف كل الاختلاف، لأنه كان بأفعاله وسوء تدبيره مسئولا عن سقوط الأندلس وضياع الحكم العربي فيها. ورث المعتمد الملك عن أبيه المعتضد الذي عمل على تكوين دولة غدت أقوى دولة بالأندلس في عهد ملوك الطوائف (مَهدَها فوق أطراف الأسنة وصيّر أكثر شغله فيها شبّ الحروب وكياد الملوك وإهراج البلاد وإحراز التلاد). وحين أصبح المعتمد ملكا على إشبيلية واصل ما رسمه له أبوه، حتى استفحل أمره بغربيّ الجزيرة، وبسط سطوته على معظم الأمراء باستثناء

[**] العربي– العدد ٥٣٣ أبريل ٢٠٠٣.

[*] شاعر وإعلامي مصري راحل.

خصومه ومنافسيه أمراء (طليطلة) من بني ذي النون– ويرتكب المعتمد خطأه الجسيم– الذي أدّى إلى نهايته ونهاية الأندلس المأساوية– حين يتحالف مع ألفونسو السادس أمير قشتالة ضدّ خصومة في طليطلة. ويصبح سقوطها في يدي ألفونسو بداية النهاية، حين طمع ألفونسو في بقية الإمارات الأندلسية ومن بينها إشبيلية نفسها. وعندما يستعين المعتمد بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين في إفريقية، يطمع ابن تاشفين في إمارات الأندلس بدوره بدءاً بغرناطة فقرطبة فرندة ثم إشبيلية، وينتهي الأمر بأسر المعتمد وتوثيقه بالأغلال وحمله هو وآله إلى (أغمات). ويظل المعتمد في أسره سنوات، مغلول السّاقين، وتضطر بناته إلى ممارسة (الغزل) ليواجهن بأجرته مطالب الحياة، ويدخلن عليه في سجنه يزرنه في يوم عيد في أسمال رثة بالية خافيات الأقدام حاسرات الرءوس، عندئذ تبلغ المأساة ذروتها وتعصف بوجدان الأب الملتاع العاجز عن حماية بُنيّاته من عواصف الأسى والتفجع، والندم على خطيئته التي بدأت بالاستعانة بعدوّه، ولكن بعد فوات الأوان!

مرارة الأسر والاغتراب، ومشاعر الأسف والندم، تملأ شعر المعتمد بن عباد في أسره، وهو الذي كان– في أوج مُلكه وعظمته– شاعرًا من طراز آخر. يصفهُ ديوانه– في المقدمة الضافية التي كتبها الدكتور حامد عبد المجيد عنه ملكًا وشاعرًا– (بأنه عصفور غرّد وطائر طليق ومُغنّ لنفسه معظم الوقت على هواه، دون قيود تكبّله أو مطالب وضرورات تُوجّهه وتقوده).

ويقول ديوانه: حين هُوجمت إشبيلية (وهو ملك عليها) خرج مدافعًا عن نفسه وأهله، وكان قد أشار عليه وزراؤه بالخضوع والاستعطاف:

لَمــــــا تماســــــكت الـــــــدموعُ

وتنبّـــــه القلـــــــبُ الصَـــــــديعُ

قـــــالوا: الخضـــــــوعُ سياســــــةُ

فليبْــــدُ منـــــك لهـــم خُضـــــوعُ

وألــــــذُّ مــــــن طعْـــــم الخضــــوع

علــــى فمــــى الســــــمُّ النقيـــــعُ

إن يســــــــلب القــــــومُ العِـــــــدا

مُلْكــــــي وتُســــــلْمني الجمـــــوعُ

فالقلـــــــــبُ بـــــــين ضُـــــــلوعهِ

لـــــم تُســــلِم القلْــــبَ الضــــلوعُ

لـــــم أُســــتلبْ شــــرف الطبـــاعِ

أيُسْــــــلبُ الشــــــرفُ الرفيـــــعُ

قـــــد رُمْـــــتُ يــــــوم نِـــــزالهم

ألاّ تُحصّـــــــــــنني الـــــــــدّروعُ

وبــــــرزتُ لــــــيس ســـــوى الـــــ

قمـــيص علـــى الحشـــا شـــيء دَفُـــوعُ

وبـــــذلتُ نفســــي كــــيْ تســـــيل

إذا يســـــــيلُ بهـــــا النّجيـــــعُ

أجلـــــي تـــــأخّر، لـــــم يكـــــن

بهـــــواي ذُلـــــي والخضـــــوعُ

مـــا ســـــرْتُ قـــطُّ إلـــى القتـــالِ

وكـــــان مـــــن أملـــــي الرجـــوعُ

شـــــيمُ الأُلـــــى أنـــــا منهمـــــو

والأصـــــل تتْبعـــــهُ الفـــــروعُ

هذا شعر جاء كما وصفه لسان الدين بن الخطيب في كتابه (أعمال الأعلام): "كثير المعاني، حسن المآخذ، لدن معاطف الكلام، رقيقَ الحاشية، كثيف المتن، كثير البديع، رائق الديباجة، لائق الاستعارة، حسن الإشارة، جمّ التوليد، لم يُنشده– من الوزراء والشعراء– أشعرُ منه، على كثرة ما اجتُلب إليه، من أعلاق الثناء، ونُثر عليه من دُرّ الحمد، ووُضع في يديه من حُرّ القريض".

فإذا أعدنا صياغة هذا الكلام بلغة عصرية، قلنا إن رقة شعر المعتمد ووفرة بديعياته تذكرنا بشعر ابن المعتز الملك الشاعر أيضًا، وإن كان ملك هذا الأخير لم يدم إلا ليوم واحد. وإن ما يمتلئ به من صنعة شعرية تأكيدٌ لاقتداره الفني، وحُسنِ تصرّفه في الصياغة، واتكائه على موروث شعري ضخم، استوعبه واستخلص أجمل ما فيه، وعزف على أوتاره أنغام محنته

ومأساته، كما عزف عليها– في صفحة حياته الأولى– أنغام غنائياته الملكية المتوهجة باقتناص أوقات الفرح ولحظات السعادة والتقلب في أحضان العواطف الناعمة الرخية التي توقظه على سهام لحاظ جواريه ومداعبات محظياته، فضلًا عن اهتمامه–كابن المعتز– بالبديع.

ومن بكائيات المعتمد بن عباد، والتفاتاته الشعرية المشحونة بالأسى ولوعة الندم، أبياته التي قالها في بناته، عندما زُرنه في سجنه– بمناسبة العيد– ورآهن في حال مُزرية، تذيبُ قلبه وتزلزل اصطباره ومقاومته:

فيمـــا مضـــى كنـــتَ بالأعيـــاد مســـرورا

فســـاءك العيـــدُ فـــي (أغمـــات) مأســـورا

تـــرى بناتـــك فـــي الأطمـــار جائعـــة

يغـــزلن للنـــاس، لا يملكـــن قِطميـــرا

بـــرزَن نحـــوك للتســـليم، خاشـــعةً

أبصـــارهنَ، حســـيراتِ، مكاســـيرا

يطـــأن فـــي الطـــين، والأقـــدامُ حافيـــة

كأنهـــا لـــم تطـــأ مِسْـــكاً وكـــافورا

لا خـــدَ إلا ويشـــكو الجـــدْبَ ظـــاهرُه

ولـــيس إلا مـــع الأنفـــاس مطمـــوراَ

أفطــرَت فــي العيــد، لاعــادت إســاءتهُ،

فكـــان فِطْـــرُكَ للأكبـــاد تفطيـــرا

قـــد كـــان دهـــرك إن تـــأمره ممتـــثلاً

فـــردّك الـــدهر منْهيّـــاَ ومـــأمورا

مـــن بـــات بعـــدك فـــي مُلْـــكِ يُســـرّ بـــه

فإنمـــا بـــات بـــالأحلامِ مغـــرورا

ومن أكثر الآثار الشعرية للمعتمد بن عباد لوعة وأسى، قصيدته في رثاء ابنيه المأمون والراضي- وكانا أميرين على قرطبة ورندة حين قتلتهما جيوش المرابطين بقيادة ابن تاشفين، ويزيد من حدة اللوعة والأسى ندم المعتمد على أنه هو الذي استعان بيوسف بن تاشفين في صراعه مع أعدائه، فانقلب عليه وطمع في ملكه ومُلك غيره من حكام الأندلس.

يقول المعتمد:

يـــا غـــيمُ: عينـــي أقـــوى منـــك تهتانـــا

أبكـــي لحزنـــي، ومـــا حُملْـــت أحزانـــا

ونـــارُ برْقـــك خبـــو إثْـــرَ وقْـــدتها

ونـــارُ قلبـــي تبقـــي الـــدهْرَ بُركانـــا

نـــارٌ ومـــاءٌ صـــميمُ القلـــب أصـــلهُما

متـــى حـــوى القلـــبُ نيرانـــاَ وطوفانـــا

ضـــدّانِ ألّـــف صـــرفُ الـــدهر بينهمـــا

لقـــد تلـــوّن فـــيّ الـــدهرُ ألوانـــا

بكيْـــتُ فتْحـــاَ، فـــإذ مـــا رُمْـــتُ ســـلوُته

ثـــوى يزيـــدُ، فـــرادَ القلـــبَ نيرانـــا

يـــا فِلْـــذتي كبـــدي، يـــأبى تقطّعُهـــا

مـن وجـدها بكمـا، مـا عشـتُ، سُـلوانا

لقـــد هـــوى بكمـــا نجْمـــان مـــا رَمَيـــا

إلا مـــن العُلَـــوِ بالالحـــاظ كيوانـــا

مُخفـــفٌ عـــن فـــؤادي أن ثُكْلكمـــا

مُثقَـــلٌ لـــيَ يـــوم الحشْـــر ميزانـــا

يـا فـتْحُ، قـد فتحـت تلـك الشـهادةُ لـي

بـــابَ الطّماعـــة فـــي لُقْيـــاكَ جـــذلانا

لمـــا شـــفعْتَ أخـــاكَ الفـــتْح، تتبعـــهُ

لقَاكمـــــا الله غُفرانـــــا ورضـــــوانا

منَـــــي الســـــلامُ ومـــــن أُمَّ مضــــجَعةِ

عليكمــــا أبــــداً، مَثنــــى ووُحْــــدانا

أبكـــي وتَبكـــي، وتُبْكـــي غَيْرنـــا أســـفاَ

لــــدى التـــذكّر، نسْـــواناَ وولــــدانا

ويروي لنا ديوانه أنه رأى قُمريّةَ نائحة على سكنها، وأمامها وكر فيه طائران يردّدان نغما، فبكى ابنيه المأمون والراضي قائلا:

بكـــتْ أَنْ رأت إلفـــيْن ضـــمّهما وكْـــرٌ

مســاءً، وقــد أخْنــى علــى إلْفهــا الــدَّهْرُ

بكــتْ، لــم تُـرقْ دمعــاً، وأســبلْتُ عَبــرةَ

يُقصــرُ عنهــا القطْـرُ مهمــا همــي القطْـرُ

وناحـــت وباحـــتْ، واســـتراحت بســـرّها

ومـــا نطقـــت حرْفـــاَ، يبـــوحُ بـــه ســـرُّ

فمـــا لـــي لا أبكـــي، أم القلـــبُ صـــخرةٌ

وكـم صـخرةٍ فـي الأرض يجـري بهـا نهْـرُ

بكــت واحــداَ لــم يُشْــجها غيُــر فقْــده

وأبكـــــى لآلافِ، عديـــــدهمو كُثْـــــرُ

بنـــــيَّ صـــــغيرٌ، أو خليـــــلٌ مُوافـــــقٌ

يُمـــــزّقُ ذا قفـــــرُ، ويُغـــــرق ذا بحْـــــرُ

ونجمـــــان زيـــــن للزمـــــان، احتواهمـــــا

بقرطبـــــة النكـــــداءِ، أو رنْـــــدَة، القبْـــــرُ

غـــــدرتُ إذن إن ضـــــنّ جفنـــــي بقطْـــــرِهِ

وإن لؤُمـــــتْ نفســـــي، فصـــــاحَبها الصـــــبْرُ

فقـــــلْ للنجـــــوم الزهـــــر تبكيهمـــــا معـــــي

لمثلهمـــــا فلْتحـــــزن الأنجـــــمُ الزُّهْـــــرُ

وفي موضع آخر من ديوانه، يعود المعتمد بن عباد إلى رثاء ولديه، وبكائهما بشعر صادق اللوعة والأنين، وهما المأمون والراضي اللذان يذكرهما في قصيدته باسميهما الحقيقيين– دون كنية–: الفتح ويزيد، مضيفا إليهما ابنه الثالث أبا عمرو سراج الدولة وكان أميرًا على قرطبة من قِبل أبيه إلى أن هاجمه ابن عكاشة وقُتل، فثأر له المعتمد بقتل ابن عكاشة وولّى ابنه المأمون عليها. يقول المعتمد:

يقولـــون: صـــبْراً، لا ســـبيل إلـــى الصـــبْرِ

سـأبكي وأبكـي مـا تطـاول مـن عُمـري

هـــوى الكوكبـــانِ: الفـــتحُ ثـــم شـــقيقُه

يزيــدُ، فهــل عنــد الكواكــبِ مــن خُبْــرِ

نـــرى زُهْرَهـــا فـــي مـــأتمِ كـــلّ ليلـــةِ

تُخمَّــش لهْفــاَ وسْــطَهُ صــفحةُ البــدْرِ

يـــنُحْنَ علـــى نَجْمَـــيْنِ، أثْكلـــتُ ذا وذا

وأصبر؟! وما للقلب في الصبر من عُذْرِ

مـــدى الـــدهر فليَبْـــكِ الغمـــامُ مُصـــابَهُ

بصـنْويه، يُعـذرْ فـي البكـاء مـدى الـدَهْرِ

بعـــين ســـحابِ واكـــفٍ قَطْـــرُ دمعهـــا

علـى كـل قبـرِ حـل فيـه أخـو القطْـرِ

وبـــرقِ ذكـــيّ النـــار حتـــى كأنمـــا

يُســعَرُ ممــا فــي فــؤادي مــن الجمْــرِ

أفــتحُ: لقــد فتَّحْــتَ لــي بــاب رحمــةِ

كمــا بيزيــدَ، اللهُ قــد زاد فــي أجــري

هــوى بكمــا المقــدارُ عنــي، ولــم أمــتْ

وأُدعـى وفيّـاَ؟! قـد نكصْـتُ إلـى الغـدْرِ

تولَّيْتمـــــا والســـــنُّ بعْـــــدُ صـــــغيرةُ

ولـــم تلبـــث الأيـــامُ أن صـــغّرتْ قـــدري

تولّيْتمـــا حـــين انتهـــت بكمـــا الغُـــلا

إلـــى غايـــةٍ، كـــلٌّ إلـــى غايـــةٍ يجـــري

فلـــو عُـــدْتما لاخترْتمـــا العـــوْدَ فـــي الثـــرى

إذا أنتمـــا أبصـــرْتماني فـــي الأسْـــرِ

يُعيـــدُ علـــى ســـمعي الحديـــدُ نشـــيدهُ

ثقـــيلاً، فتبكـــي العـــينُ بـــالجَسُ والنَّقْـــرِ

معـــي الأخـــواتُ الهالكـــاتُ عليكمـــا

وأمُّكمـــا الثكلـــى الُمضـــرَمةُ الصـــدْرِ

فتبكـــي بـــدمعٍ لـــيس للقطْـــرِ مِثْلُـــهُ

وتزجرُهـــا التقـــوى فتُصـــغى إلـــى الزّجْـــرِ

أبـــا خالـــدٍ أوْرثتنـــي الحـــزْنَ خالـــداً

أبـــا النصـــرِ مُـــذْ ودّعْـــتَ ودَعنـــي نصْـــرى

وقبلكمـــا قـــد أودَع القلْـــبَ حســـرةَ

–تَجدّدُ طولَ الدَهْرِ– ثكْلُ أبي عمرو

وحين يستشعر المعتمد بن عباد دُنوّ منيته واقتراب أجله– وهو لا يزال يرسف في أغلال أسره– يوصي بأن يُكتب على قبره:

قَبْرَ الغريب، سقاكَ الرائحُ الغادي

حقاً ظفرْتَ بأشلاءِ ابن عبّادِ

بالحلم، بالعلم، بالنُّعَمى إذا اتصلت

بالخصب إن أجدبوا، بالرِّي للصادي

بالطاعِن، الضارِب، الرامي، إذا اقتتلوا

بالموتِ أحْمَر، بالضرغامة العادي

بالدهر في نقمٍ، بالبحر في نعمٍ

بالبدر في ظُلمٍ، بالصدر في النادي

نعم هو الحقَ وافاني به قَدرُ

من السماء فوافاني لميعاد

ولم أكنْ قبل ذاك النعْش أعلمْهُ

أنّ الجبالَ تَهادى فوق أعوادِ

كفَاكَ، فارفقْ بما استودعْتَ من كرمِ

روّاكَ كـــلُّ قَطُـــوبِ البــرْقِ رعّـــادِ

يبكـــي أخـــاه الـــذي غيّبْـــتَ وابلـــهُ

تحــت الصــفيح. بــدمعِ رائــحِ غــادِ

حتـــى يجـــودَكَ دمـــعُ الطـــلِّ منهمـــراً

مــن أعــين الزهــر لــم تبخــلْ بإســعادِ

ولا تـــــزلْ صـــــلوات الله دائمـــــةَ

علـــى دفينِـــك لا تُحْصَـــى بتعـــدادِ!

فهل يشفع له كلُّ هذا الشعر الأسيان في غُفران خطيئته الكبرى، حين استعان بأعدائه من الفرنجة ضدّ بني قومه وجلدته، فانقلبوا عليه– بعد أن شتتوا شمل قومه– وكانوا سببًا في نكبته وزوال ملكه، إيذانًا بضياع الأندلس؟!

الشاعر العاشق**

محمد رجاء عبد المتجلي*

ولد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي في "قرطبة" سنة ٣٩٤هـ ١٠٠٣م، في بيت من بيوت أعيانها وفقهائها، فأبوه فقيه من سلالة بني مخزوم القرشيين، التي كان لها شرف في الجاهلية ووصلَتْه في الإسلام، وجده لأمه، صاحب الأحكام الوزير أبو بكر محمد، فهو من بيت حسب ونسب، ولقد احتلت أسرتا الشاعر لأبيه وأمه في المجتمع الأندلسي مركزًا جليلًا وخطيرًا، فوالده كان ذا جاه عريض، ومال وضياع، وله المشورة المحترمة في "قرطبة"، وجده لأمه تولى القضاء بمدينة "سالم" ثم أحكام الشرطة والسوق في "قرطبة".

نشأ ابن زيدون في مدينة "الرُّصافة" التي بناها عبد الرحمن بن معاوية "الداخل"، وسماها بهذا الاسم تشبيها لها برصافة جده هشام في "دمشق"، وعندما توسم فيه والده المقدرة على الانتفاع اهتم به، وأحضر له الأساتذة والعلماء والفقهاء، ليلقن مبادئ الشعر واللغة، وقراءة القرآن وكتابة الحساب وتعلم النحو والصرف، وذلك على الطريقة المتبعة في ذلك الوقت.

غير أن الموت قصف حياة هذا الوالد، وولده بعد صغير لم يتعد الحادية عشرة من عمره، فكفله جده وتولى تربيته، فتتلمذ على أيدي كبار

** العربي– العدد١٥٦– نوفمبر ١٩٧١.

* كاتب مصري.

الأساتذة والعلماء، وأخذ يغترف من بحور العلم، شأنه في ذلك شأن كل راغب من أبناء "قرطبة" مال إلى التعلم، واشتاقت نفسه إليه. ولم يرد ابن زيدون أن يفوته ما يلقى في جامعة "قرطبة" الكبيرة من الدروس وضروب التعليم، فأمها وغذى عقله وروحه كغيره من شباب عصره بألوان المعارف والثقافة، والعلوم والآداب.

لقد كان نبتة صالحة، غذاها العلم فأنتجت شهي الثمر، نظم الشعر وهو في العشرين من عمره. وقد كان لموت القاضي الفقيه ابن ذكوان أثر كبير في حياة ابن زيدون، فلقد رثاه بمرثية بليغة على قبره، فذاع صيته وطارت شهرته في "قرطبة" كلها.

وكان يتمتع إلى جانب مواهبه الأدبية بأكبر نصيب من الثقة بنفسه، والاعتداد بمكانته وأدبه، والاعتزاز بمواهبه وعبقريته، في ترفع وإباء، حتى لكأنما يجري في عروقه دم الملوك، على أنه كان إلى جانب ذلك سليم العقيدة صافي النفس.

وقد رافقت الفتنة ابن زيدون من سن الخامسة حتى سنّ الثالثة والثلاثين، غير أن تلك الفتن والأحداث التي وقعت لم تكن لتلهيه عن طلب العلم، والتدرب على شئون السياسة في الوقت نفسه، وقد أجمع الدارسون لحياته وما مر بها، ولشعره على أنه قد اشترك اشتراكا فعليًا في الفتنة التي وقعت في "قرطبة" بل لقد كان من زعمائها، غير أن أخباره في تلك الفترة يسودها الغموض، وهذا ما يجعلنا لا نتعرض لها بالرغم من تأثيرها العميق على حياته كلها.

بيد أنني أستطيع أن أجزم بأن ابن زيدون كان يشايع ابن جهور، ويؤيده في سياسته، وأنه كان إلى جانب كفايته ومواهبه من أبرز أنصاره ومؤيديه، الأمر

الذي جعل ابن جهور يستوزره، ويعتمد عليه كل الاعتماد في إدارة شئون المملكة، ويستعين برأيه وأدبه في صلته بالملوك ومراسلتهم والسفارة إليهم، وكان توليه الوزارة سنة ٤٢٢هـ وسنه لا تتجاوز الثمانية والعشرين عامًا.

اتصلت حياة ابن زيدون بحياة ولاّدة بعرى لا تنفصم، وبرباط قوي لا ينقطع، وابتدأت معرفته لها وسنه لا تتجاوز الثلاثين.

أما ولادة فهي تنتسب إلى أعرق بيت مالك، فهي زهرة من زهرات البيت الأموي، وتنتمي إلى عبد الرحمن الناصر أشهر خليفة تولى حكم "الأندلس" من بني أمية، وأبوها الخليفة المستكفي بالله. ويجمع المؤرخون على وصف أبيها بالتخلف والضعة والانعماس في الملذات. وفي بيت هذا الخليفة نشأت ولادة، وأغلب الظن أنها ابنة سكرى المورورية، الجارية التي استبدّت بالمستكفي، ويظهر أن أبا ولادة اعتنى بها فأحضر لها المعلمين والمثقفين، ففتحت مواهبها كما تتفتح الزهرة، وعندما مات أبوها خلا لها الجو، فأصبح بيتها قبلة للأدباء والشعراء. وكان ابن زيدون من جملة الشعراء الذين يقصدون منتداها الأدبي، وفي هذا المنتدى توطدت بينهما أواصر الصداقة، ووقع في شراك حبها.

كانت بيضاء البشرة ذات شعر أشقر وجمال فتان، بارزة الصدر، دقيقة الخصر، ممشوقة القوام، طويلة العنق، ذات خال أسود في خدها، وقد لهج ابن زيدون بوصف جمالها.

مفضَــــض الثَغــــر لــــه نقطــــةَ

مــــن عَنبــــر فــــي خــــدّه المــــذهَب

وكانت تجمع إلى جانب جمالها الفتان وثقافتها الواسعة، ذكاء وقادا، وروحا فنية موهوبة، وسرعة بديهة، مع ما امتازت به من الرقة والعذوبة في الحديث، بحيث تملك سامعها عندما تتحدث إليه، "وكانت من الأدب والظرف وتنعيم السمع والطرف بحيث تختلس القلوب والألباب وتعيد الشيّب إلى أخلاق الشباب".

لقد أحب ابن زيدون ولادة حبًا ملك عليه كل حواسه، وسيطر على جميع مشاعره، وشغله عن كل شيء، وأنساه كل فجيعة، فكان لا ينساها حتى في أوقات الخطوب والمحن، وقد فجر هذا الحب في نفسه ينابيع من الشعور الفياض انسابت فيه قصائده الغرامية، فجاء من أروع ما صيغ في الحب من بسمات ومن دموع، ولكننا لا نستطيع أن نحدد متى كان اللقاء الأول الذي تطارحًا فيه الغرام، وأظهر كل منهما ما في قلبه للآخر، وإن كنت أرجح أن اللقاء الأول الذي تقابلا فيه منفردين بعيدًا عن مجلسها الأدبي هو ما جاء في كتاب "الذخيرة" لابن بسام، فهو يصف لنا هذا اللقاء على لسان ابن زيدون فيقول: "قال أبو الوليد كنت في أيام الشباب وغمرة التصابي، هائما بغادة تدعى ولادة، فلما قدّر اللقاء وسارع القضاء، كتبتَ إليّ:

ترقـــــب إذا جُـــــن الظـــــلام زيـــــارتي

فـــإني رأيـــت الليـــل أكـــتم للســـر

وبـــي منـــك مـــا لـــو كـــان بالبـــدر مـــا بـــدا

وبالشـــمس لـــم تطلـــع وبالليـــل لـــم يســـر

وذهب في الموعد المضروب، وباح كل منهما للآخر بحبه، وشكا كل

منهما ما بقلبه، "فلما انفصلنا صباحًا أنشدتُها ارتياحًا:

ودَع الصـــــبر محـــــبٌ ودَعـــــك

ذائـــع مـــن ســـره مـــا اســـتودعك

يقـــرع الســـن علـــى أن لـــم يكـــن

زاد فـــي تلـــك الخطـــأ إذ شـــيعك

يـــا أخـــا البـــدر ســـناء وســـنا

حفـــــظ الله زمـــــان أطلعـــــك

إن يطـــل بعـــدك ليلـــي فلكـــم

بـــتُّ أشـــكو قصـــر الليـــل معـــك

ومرت الأيام وهما يعيشان في أهنأ سعادة وأجمل عمر، يتساقيان كئوس الهوى، ويعبان من شذى النعيم، تغمرهما ظلال الحب ودفئه.

على أن هذه الأيام لم تدم طويلًا- وهذه هي سنة الحياة- فحدثت بينهما جفوة، وانقطعا عن التلاقي، فكتبت ولادة إليه:

ألا هـل لنـا مـن بعـد هـذا التفـرق

سـبيل فيشـكو كـل صـب بمـا لقـي؟

وقـد كنـت أوقـات التـزاور فـي الشـتا

أبيـت علـى جمـر مـن الشـوق مُحـرق

فكيـف وقـد أمسـيت فـي حـال قطعـة

لقـد عجـل المقـدور مـا كنـت أتقـي

تمـــر الليـــالي لا أرى البـــين ينقضـــي

ولا الصـــبر مـــن رق التشـــوق معتقـــي

سـقى الله أرضـا قـد غـدت لـك منـزلا

بكــل سـكوب هاطــل الوبــل مُغــدق

فرد عليها بقوله:

لحـــا الله يومًـــا لســـت فيـــه بملتـــق

محيـــاك مـــن أجـــل النـــوى والتفـــرق

وكيـــف يطيـــب العـــيش دون مســـرة؟

وأي ســــرور للكئيــــب المــــؤرَق؟

ولم تطل مدة الجفاء بينهما، بل رجعا إلى ما كانا عليه، وعادًا إلى سابق عهدهما، بيد أن الجفاء سرعان ما أرجع ثانية بينهما، فقد حدث في إحدى الأمسيات، ابن زيدون جالس مع ولادة، وجاريتها عتبة تغني لهما، أن طلب ابن زيدون من الجارية أن تعيد له صوتا غنته من دون أمر ولادة، فظنته يغازل جاريتها، فخبت الابتسامة من فوق شفتيها، وظهر عارض التجهم، وغضبت غضبًا شديدًا، وضربت جاريتها عتبة وكتبت إليه رسالة تقول فيها:

لــو كنــت تنصــف فــي المــودة بيننــا

لـــم تهـــو جـــاريتي ولـــم تتخيـــر

وتركـــــت غصـــــنا مثمـــــرا بجمالـــــه

وجنحـــت للغصـــن الـــذي لـــم يثمـــر

ولقـــد علمـــت بـــأنني بـــدرُ الســـما

لكـــن وَلِعـــتَ لشـــقوتي بالُمشـــتري

إذن فالمودة بينهما لم تكن صافية، بل كان الجفاء يشوبها حتى في أيام اللقاء، وانصرفت ولادة عن ابن زيدون انصرافا كليا، ولم تجد معها الوسائل والطرق التي خاضها ابن زيدون ليعود لسابق عهدهما، ولم تشفع له رسائله الرقيقة أو العنيفة على السواء، وأغلب الظن أن غيرتها لم تكن السبب المباشر في جفاء ولادة، بل هناك سبب آخر قد يكون له أكبر الأثر في هذا الجفاء، هو انضمام ابن زيدون لحركة الجهاورة وما ترك من أثر سيئ في ولادة وهي بنت خليفة أموي.

لقد حدثت القطيعة بين الاثنين، وسمحت ولادة لمحب جديد بالدخول في حياتها، ولم يكن هذا المحب الجديد شاعرًا مرهفا، وإنما كان الوزير الخطير أبَا عامر بن عبدوس، ونشأت العداوة بينه وبين ابن زيدون وازدادت عنفًا، وكانت حافزًا لابن زيدون على إنشاء رسالته الهزلية المشهورة، التي تعتبر أكبر مغنم ظفر به الأدب العربي من هذه المنافسة، كما كانت حافزة له على إنشاء بعض القصائد التي يهدد فيها ابن عبدوس، ويتوعده ويسخر منه.

أثـــــرت هزِبـــــر الشَـــــرى إذ ربـــــض

ونبهتـــــــــه إذ هـــــــــدا فـــــــــاغتمض

حـــــذار حـــــذار فـــإن الكريـــــ

ـــم إذا ســـيم خســـفا أبـــي فـــامتعض

وإن ســـــكون الشـــــجاع النهـــــو

س لـــــيس بمانعـــــه أن يعـــــض

وإنـــــي ألـــــين لمـــــن لان لـــــي

وأتـــرك مـــن رام قســـري حـــرض

وكـــم حـــرك العجـــب مـــن حـــائن

فغادرتـــه مـــا بـــه مـــن حـــبض

ولقد دفعه حرصه على الاستئثار بولادة أن يتهمها في وفائها وفي خلقها، حتى لا يشاركه في إعجابه بها أحد، ولا ينال حبها سواه، فهو يضلل مزاحمه، ويظهر تبرمه بها وإعراضه عنها، ويود أن يصل إليها هذا التبرم والإعراض، فتهزها دوافع الغيرة وترجعها إليه، ويكتب لها كثيرًا من القصائد ذاكرا حبه، متشوقًا لأيامه السعيدة التي قضاها معها، ولكنها تصم أذنيها، وتغلق قلبها، فقد صممت على عدم الرجوع إليه، فليكتب رسالات، ولينظم شعرًا، فإن كل هذا لن يؤدي إلى نتيجة معها.

ولكن ابن زيدون لا يستطيع أن ينساها، فإنها وإن أصغت لكلام الحسّاد والوشاة وهجرته، وتركت قلبه يئن، فإنه سيذكرها دائمًا وسيحافظ على عهد حبه مادام له في الحياة عمر.

لــــئن قصــــر اليــــأس منـــك الأمــــل

وحــــــال تجنّيــــــك دون الحيـــــــل

وناجــــاك بالإفـــك فــــيّ الحســـــو

د فأعطيتــــــه جهـــــرة مــــا ســــأل

وراقــــك ســــحر العـــــدا المفتـــرى

وغـــــــرك زورهـــــــم المفتعـــــــل

وأقبلــــــتهم فــــيّ وجـــــه القبــــول

وقــــــابلهم بشــــــرُك المقتبـــــــل

فــــإن ذمــــام الهــــوى لــــن أزا

ل أبقيُــــــه حفظــــا كمــــا لــــم أزل

ثم يخبرها بأنها إذا استمرت في دلالها عليه فسيضطر لوداعها إلى غير رجعة، وهذا الموقف الذي سيتخذه سيكون مكرها عليه، لأنها هي التي أصرت على ذلك، وإذا كانت قد سلته فسيحاكيها في سلوانها، ويقلدها في انصرافها عنه.

عليــــك الســــلام ســــلام الـــوداع

وداع هــــوى مــــات قبــــل الأجـــــل

ومــــا باختيــــار تســــليت عنــــــ

ــــك ولكننــــــي مكـــــره لا بطــــل

ولـــم يــــدر قلبــــي كيــــف النــــزو

ع إلـــــــى أن رأى ســـــــيرة فامتثـــــــل

وهو إلى جانب هذا لن يبوح بما بينهما من أسرار، وسيحتمل في سبيلها ما لا يحتمل، وسيظل على عهده مهما اشتطت ولادة واستبدت.

بينـــي وبينـــك مـــا لـــو شـــئت لـــم يضـــع

ســـرٌّ إذا ذاعـــت الأســـرار لـــم يـــذع

يـــا بائعـــا حظّـــه منـــي ولـــو بُـــذلت

لـــي الحيـــاة بحظـــي منـــه لـــم أبـــع

يكفيـــك أنـــك لـــو حملـــت قلبـــي مـــا

لا تســـتطيع قلـــوب النـــاس يســـتطع

تـــهْ أحتمـــلْ واســـتطلْ أصـــبرّ وعـــزّأهنْ

وولّ أقبـــلْ وقـــل أســـمعْ ومـــرْ أطـــع

كان المجتمع الأندلسي في عهد ملوك الطوائف يموج بشتى ألوان الدسائس، ويضطرب بمختلف أنواع فنون المكائد، من أثر الانقلاب السياسي واضطراب نظم الحكم، فالجاسوسية تنتشر في كل مكان، وتتناول جميع الأمور، حتى الأمور الشخصية والأحوال الفردية، ومن ذلك ما ذكر بعض المؤرخين أنه كانت في "قرطبة" جارية تحت فتى من القرشيين، وكانت تكتم حبها خشية أن ينتشر خبره، وهذا الأمر على تفاهته وصل إلى الوزير ابن

زيدون، فلك يحتفل به لأن الكل متغلغل في هذا الطريق، وكانت الجارية تقرض الشعر، فجاشت نفسها بهذا البيت وامتنع عليها ما تريد.

يـــا معطشــــي عـــن وصــــال كنــــت وارده

هــل منــك لــي غلــة إنْ صــحتُ واعطشــي

فذهبت إلى ابن زيدون، وطلبت منه أن يزيد على هذا البيت شيئًا، وهي تعتقد أنه لا يعلم بأمرها ولا بما هي عليه من حب الفتى القرشي، فأمسك بالقلم منتهزا فرصة الرويّ وكتب:

كســــوتي مـــن ثيــــاب السُّـــقم أســـبغها

ظلمًـا وصـيرت مـن لُحـف الضـني فُرُشـي

جفنــي إذا التــذت الأجفــان طيــب كــرى

جفــا المنــام وصــاح الليــل يــا قرشــي

لقد خلق حب ابن زيدون لولادة ومكانته لديها أعداء له وحسادا، كما كانت مكانته عند ابن جهور، ومنزلته لدى الملوك في سفاراته، ومركزه العام الذي كان يطغى على مركز كل وزير، كل هذا كان داعية للحسد وتدبير المؤامرات ضده. إنه لم يصل إلى ما هو فيه من مجد ورفعة إلا بثقة ابن جهور فيه، فليعمل حساده وأعداؤه على زعزعة هذه الثقة، ولكن كيف يصلون إلى هذا؟ وبأي أسلوب؟

إن ابن جهور أحس بمكانة ابن زيدون عند الملوك الذين كان يذهب إليهم في سفاراته، فهم يحتفون به كل الاحتفاء، ويحسدون ابن جهور على

الاختصاص به ويودون لو طال وجوده بينهم ومدّ في سفاراته أيامًا أخرى، والواقع أن هؤلاء الملوك على ما كان بينهم من مظاهر المودة والمجاملة والمراسلة والسفارات، كان بعضهم دائمًا في حالة توجس من بعض، فقد علمتهم الفتن والاضطراب ألا يطمئنوا أو يحسنوا الظن بأحد، فهم على حذر دائم ويقظة مستمرة، وابن جهور لم يكن لتفوته ملاحظة اهتمام ملوك الطوائف بابن زيدون، ولكن كان يصرفه عن الاهتمام بذلك الثقة المطلقة بولاء ابن زيدون، وما كان يسمعه منه من قصائد في الاعتراف بنعمته والإخلاص في مودته، بيد أن الوشاة والحاقدين عليه حينما عملوا عملهم، وأحكموا تدبيرهم، أصبحت ملاحظات ابن جهور على ابن زيدون بمنزلة الشواهد والأدلة، خصوصا أن أعداء ابن زيدون أبلغوا ابن جهور أنه يعمل على إعادة ملك الأمويين متخذين من قصة حبه لولادة الأموية دليلاً يضاف إلى الشواهد والأدلة الأخرى.

وأخيرًا لفقوا له تهمة اغتصاب عقار، وسيق من أجل هذه التهمة إلى المحاكمة، وحكم عليه القاضي ابن المكوي بالسجن.

وأغلب الظن أن الأمير ابن جهور كان من الموحين بهذا الاتهام– تهمة اغتصاب العقار– ووجد فيه الفرصة المناسبة للتخلص من ابن زيدون، فعزل ابن ذكوان من ولاية القضاء، وهو صديق ابن زيدون، وولى مكانه ابن المكوي في محرم سنة ٤٣٢هـ، الذي حكم على ابن زيدون بالسجن على الفور لموجدة قديمة بين الاثنين.

ويقضي الشاعر ما ينوف عن خمسمائة يوم سجينًا حائرًا، ويستعطف ابن جهور ويناشده العفو، ولكن كل هذا يذهب دون فائدة.

لقد أثار السجن في نفسيته عاصفة فنية، أثار بها آلامه، فأخذ يئن أنينا جميلًا، ويفتن في هذه الآلام، فتارة يصفها ويعبر عنها بالشعر، وتارة بالنثر، وكانت نفسه من النفوس المرهفة الإحساس، الدقيقة الإدراك، فهي تتأثر بكل شيء، وينطبع فيها ما حولها من المباهج والأحزان، غير أن خواطره في العزة والشمم والفخر كانت تختلط بدموعه، فتجعل مدحه لابن جهور أو عتابه مدحًا لنفسه هو واعتزازًا بكبريائه.

ولكن اليأس كان يستبد به أحيانًا، خصوصًا بعدما طالت عليه مدة السجن، فيستسلم للقضاء ويوحي لنفسه بأن هذه هي سنة الحياة، ويقلب أمامها صفحات الأيام فلا يفزع من الأحداث التي لحقت به، ولا يرى فيها موضع غرابة أو استنكار فيصبح الزئير الصارخ أنفاسًا هادئة، يشيع فيها الاطمئنان والرضا.

وهكذا يتماوج بين اليأس والرجاء، والغضب والصبر، وكأنه في عراك دائم بينه وبين نفسه، ويرى ذلك واضحًا في القصيدة الشهيرة الفياضة بالألم واللوعة والحزن، والتي بعث بها إلى صديقه الوزير الكاتب أبي حفص بن برد، والتي جاء ذكرها في قلائد العقيان ومطلعها:

مــــــا علــــــى ظنّــــــي بـــــــاس

يجــــــــرح الــــــــدهر وياســــــــو

ولقــــــد ينجيـــــــك إغفــــــا

ل ويرديـــــــــــك احتـــــــــــراس

والمحـــــــــاذير ســــــــــهام

والمقـــــــــادير قيــــــــاس

وكـــــــذا الـــــــدهر إذا مـــــا

عـــــز نـــــاس ذل نـــــاس

نلــــــبس الــــــدنيا ولكـــــن

متعـــــــــة ذاك اللبـــــــاس

وتعاوده الحيرة ويخالطه الحزن فيقول:

أنــــــا حيــــــران وللأمــــــ

ـــــر وضـــــــوح والتبـــــاس

مـــا تـــرى فـــي معشـــر حـــا

لــــوا عـــن العهـــد وخاســـوا

أذؤب هامــــــــت بلحمــــــــي

فانتهــــــــاش وانتهــــــــاس

ثم يعاوده الرضا والأمل:

إن قســـا الـــــدهر فللمــــا

ء مــــن الصــــخر انبجـــاس

ولـــــــئن أمســـــــيت محبـــــــو

ســــــا فللغيــــــث احتبــــــاس

ثم تعتاده الحسرة من ذل كبريائه وهو الذي كان يرى في نفسه معنى قدسيا يسكن الدم واللحم، ويسمو بها على هذا الأفق المظلم المحدود.

فتأمـــــــل كيـــــــف يغشـــــــى

مقلـــــــة المجـــــــد النعــــــاس

ويُفـــــت المســـــك فـــــي التـــــر

ب فيوطـــــــــا ويــــــــــداس

ولكن الأمل يتغلب عليه في النهاية، فيحاول أن يسلي صديقه:

وأدر ذكــــــــرىَ كاســــــــا

مــــــا امتطـــــت كفـــــك كــــاس

واغـــــــنم صـــــــفو الليـــــــالي

إنمـــــــا العـــــــيش اخـــــــتلاس

وعســـــــى أن يســـــــمح الدهـــــــ

ـــــــر فقـــــــد طـــــــال الشـــــــمّاس

والواقع أن ظلام السجن والمعاملة التي لقيها فيه قد كسرت من حدته وروضت نفسه على الانكسار، وإن ألهمه ذلك الحكمة في شعره.

ومن سجنه– أيضًا– أرسل إلى ابن جهور رسالته الجدية، يستعطفه فيها، وأرسل معها قصيدة يمدحه فيها، وذكر في القصيدة أنه مكث في السجن خمسمائة يوم.

أفَصَـــبْرٍ مئـــينَ خمســـا مـــن الأيـــا

م ناهيـــــك مـــــن عـــــذاب ألـــــيم

لم يلق ابن زيدون من ابن جهور رغم استعطافه له إلا الجفاء، فلم يعف عنه رغم توسلاته التي ذهبت عبثا، ويعز عليه أن تطوى حياته بين جدران السجن، يعاني من ظلامه ظلام الحس والنفس، فيتحايل على أن يفر ويهرب من هذا الجحيم الذي حكم عليه أن يعيش فيه، ويفر من السجن في غضون سنة ٤٣٣هـ، بعد أن أخفقت وسائله وتوسلاته، وليس بمستبعد في أن يكون أبو الوليد، ابن جهور قد ساعده على الهرب كما يزعم بعض المؤرخين، فقد كان صديقه، وكان يزور في السجن، ويذهب ابن زيدون إلى "إشبيلية"، ويجد هناك صدرًا رحبا، فقد أدناه المعتضد منه، وقرّبه إليه، وغمره بعطفه، بيد أن نفس ابن زيدون كانت متعلقة بموطن هواه ومسرح صباه، فظلت نفسه جذبة إلى "قرطبة"، فكتب إلى ولادة قصيدته النونية الخالدة:

أضـــحي التنـــائي بـــديلاً مـــن تـــدانينا

ونـــاب عـــن طيـــب لُقيانـــا تجافينـــا

ولم يطق ابن زيدون البقاء بعيدًا عن "قرطبة" فعاد إليها، وظل هائمًا على وجهه في نواحيها وهو يضطرب ويضيق بين الحيطة والحذر، وقد تنكر له كل شيء، فهو يشكو الغربة وما هو بغريب، ويندب الأصدقاء الذين تخلوا

عنه وما هم ببعيد، ومع كل هذا لا ينسى ولادة، بل يتضاعف حنينه إليها وحبه لها، ولا يفتأ يذكرها في كل قصائده باللوعة والحسرة، ويظهر أن ابن عبدوس قد انتهز فرصة المحنة التي لحقت بابن زيدون- والتي كان له فيها نصيب-، فشغل بولادة وشغلت هي به، وهذا أمر ما كان يعانيه ابن زيدون في محنته، ثم أستقر به المقام مختفيا في ضاحية "الزهراء" ولم يكن أحد يعرف مكانه إلا أخلص الناس إليه من أصدقاته، وهم قليلون بعد محنته، فيراسلهم ويستشفع بهم لدى ابن جهور، ومن "الزهراء" أرسل إلى ولادة قصيدته العاطفية التي يتشوق فيها إلى لقائها، ويصف لها فرط قلقه، ويعاتبها على إغفال عهده:

إنـــــي ذكرتُـــــكِ بـــــالزهراء مشـــــتاقا

والأفـــق طلـــق ووجـــه الأرض قـــد راقـــا

وللنســــيم اعـــــتلال فـــــي أصـــــائله

كأنـــــه رقَّ لـــــي فاعتـــــل إشـــــفاقا

ولم يزل ابن زيدون بأبي الوليد يستشفع به إلى أبيه ابن جهور حتى شفع له وعفا عنه، وظهر ابن زيدون بعد اختفائه، ووثقت المودة بين ابن زيدون وأبي الوليد، فيمدحه ويمدح أباه، ثم لم يلبث ابن جهور أن توفى في سنة ٤٣٥هـ، ويتقلد ابنه زمام الأمور، فيتألق نجم ابن زيدون ويرتفع، ويقربه أبو الوليد منه ويعينه للنظر على أهل الذمة.

وفي عام ٤٤٠هـ نكب بنو ذكوان، وهي الأسرة التي ينتسب إليها أستاذ ابن زيدون القاضي أبو بكر ابن ذكوان، إثر محاولة بعضهم الوثوب على السلطان في "قرطبة"، وحاطت الشبه بابن زيدون، فأرسل إلى أبي الوليد

قصيدة يظهر من خلالها قلق الشاعر، وعدم اطمئنانه لمستقبله، وينفي فيها عن نفسه الاشتراك ولو من بعيد فيما فعله بنو ذكوان.

ويرسله أبو الوليد سفيرا إلى "مالقة، فيطيل الثواء هناك ويتقرب من أميرها، فيعتب عليه أبو الوليد هذا التصرف، ويعزله عن السفارة بينه وبين أمراء "الأندلس"، ويتهدده إن رجع إلى "قرطبة" بعد أن أوغر خصومه صدر أبي الوليد ضده، فيقصد ابن زيدون "بلنسية" ويستقبله أميرها استقبالًا حسنًا، غير أنه لا يقيم بها طويلًا، فيتجه إلى "بطليوس" في الغرب بعد مدة قضاها في "طرطوش"، ويلقى من أميرها كل احتفاء، وفي هذه المدينة ينظم قصيدة تصور صبابته وشوقه، وحبه وهيامه، فالتنقل والرحيل لم ينسياه أو يشغلاه عن هواه، فهو في حنين دائم وتلهف مستمر.

يــا دمــعُ صُــبْ مــا شــئت أن تصــوبا

ويــــــا فــــــؤادي آن أن تــــــذوبا

إذ الرزايــــــا أصـــــــبحتْ ضُـــــــرويا

لـــم أر لـــي فـــي أهلهـــا ضـــريبا

قـــد مـــلأ الشـــوقُ الحشـــا نـــدوبا

فـــي الغـــرب إذ رحـــتُ بـــه غريبـــا

علبـــــل دهـــــر ســــــامني تعـــــذيبا

أدنـــى الضـــنا إذْ أبعـــدَ الطبيبـــا

وأخيرًا استقر به المقام في "إشبيلية"، بعد أن تأكد برسائل أرسلها إلى خواص المعتضد والمعتضد نفسه من أنه سينزل على الرحب والسعة، وقد احتفى به المعتضد احتفاء رائعًا، وولاه الوزارة ولقبه بذي الوزارتين، وقد بقي ابن زيدون وزيرًا للمعتضد حتى توفى سنة ٤٦١هـ، وتولى مكانه ابنه المعتمد.

وكان المعتمد شاعرًا محبًا للأدباء، لا يستوزر وزيرًا إلا أن يكون أديبًا شاعرًا، ولقد وثق بابن زيدون ثقة مطلقة تقديرًا لأدبه وشعره، بيد أن حسّاده وعلى رأسهم ابن عمار حاولوا الإيقاع به لدى المعتمد، وسعوا في النكاية به، ولكن المعتمد لم يستمع للوشاة، ولم يصدق ما قيل في ابن زيدون، وكان لهذا الصنيع أثره في نفس شاعرنا، فمدحه بقصيدة عرض فيها بحساده ووصفهم بالبغاة:

قـــل للبغـــاة المنبضـــين قِســـيَّهم

ســـترون مـــن تُصـــميه تلـــك الأســـهمُ

مـــا كـــان حلـــم (محمـــد) ليحيلـــه

عـــن عهـــده دَغـــل الضـــمير مـــذمَّم

وتمضي الأيام بابن زيدون مفعمة بالمسرة، والهناء، ولا يعكر صفوها إلا أطياف حب قديم دائم في القلب، ولم تنسه حظوته العظيمة عند المعتمد "قرطبة" أو تقلل من شوقه إليها.

وفي عام ٤٦٢هـ هاجم ملك "طليطلة" المأمون ابن ذي النون "قرطبة"، يريد احتلالها، فاستنجد أبو الوليد بن جهور بالمعتمد، فبعث إليه جيشًا يقوده أحد أبنائه، فانسحب جيش المأمون بينما نزل جيش المعتمد في ضاحية

المدينة، وأخذ يتصل بأهالي "قرطبة" محرضًا إياهم على الثورة حتى ثاروا على أبي الوليد، فانتهز الجيش الأشبيلي الفرصة واستولى على "قرطبة" ونودي بالمعتمد ملكا عليها.

وأغلب الظن أن ابن زيدون كان يغري المعتمد بالاستيلاء على "قرطبة"، لأن حنينه كان يلح عليه فهي موطنه ومنبت طفولته ومصدر هواه الذي خرج منه كاسف البال حزين النفس مشردًا، فهو يود أن يرجع إليها عزيز الجانب مرهوب السلطان، ويضاف إلى هذا ما كان يصل إليه من أنباء تؤلمه في نفسه وفي قرابته، على يد أبي الوليد بن بن جهور، على الرغم مما كان بينه وبينهم من صلات، فمن الطبيعي أن يعمل على الانتقام منهم.

وهكذا يرجع ابن زيدون إلى "قرطبة" سعيد النفس قرير العين برؤية وطنه وأهله، وتقبل الدنيا عليه ويرتفع حظه، ويبلغ من الحظوه عند المعتمد ما يجعل وزيريه ابن مرتين وابن عمار يسعيان في إبعاده والكيد له، وتساعدهما الظروف، فتحدث فتنة في نهاية عام ٤٦٤هـ في "إشبيلية"، ويبعث المعتمد من "قرطبة" جيشًا جرارًا للقضاء على تلك الفتنة في مهدها بقيادة ولده الحاجب سراج الدولة، ويسول ابن عمار وابن مرتين للمعتمد إرسال ابن زيدون مع الجيش، أملا في أن تنجح مهمة سراج الدولة دون إراقة دماء لما لابن زيدون من محبة في قلوب أهل "إشبيلية"، غير أن الواقع أنه لم يكن قصد الوزيرين سوى إبعاد ابن زيدون عن "قرطبة" ليصفو الجو لهما، وينفردا بالمعتمد خصوصًا بعد أن غطت عليهما شعبية ابن زيدون الكبيرة التي كان يتمتع بها في "قرطبة".

كان ابن زيدون مريضًا، وعلى الرغم من مرضه غادر "قرطبة" بصحبة سراج الدولة وجيشه قاصدين "إشبيلية"، وترك خلفًا له في الوزارة ابنه أبا بكر،

ولكن المتآمرين ظلا يلحّان على المعتمد حتى أرسل الابن وراء أبيه، وكأنما أراد القدر أن يشهد الابن موت أبيه، ويعتني بتشييعه ودفنه في "إشبيلية".

والواقع أن هذه الرحلة كانت سببا في وفاة ابن زيدون، إذ كانت حالته الصحية تسوء يومًا بعد يوم، فمات بعيدًا عن المدينة التي عشقها وأحبها في ١٥ من رجب سنة ٤٦٣هـ، وكان لنبأ موته في "قرطبة" رنة أسى، وحزن أهلها عليه حزنًا شديدًا.

وهكذا تنطوي حياة شاعر ملأ الآفاق شدوا، وهز المسامع لحنًا، وأطرب العواطف غزلا وحبًا، وروع القلوب أسى ودمعًا.

تنطوي حياة مجاهد روعته الأيام، وطاردته الخطوب، وتقاذفته البلاد والممالك، فلا يستقر به المقام في مكان واحد.

تنطوي حياة في عالم الفناء، لتبدأ حياة خالدة، حياة أدب فذ رفيع، وفن رائع خالد على مر العصور والأيام.

ابن زيدون**

سلمى الحفار الكزبري*

إن لشعر ابن زيدون الغزلي صبغة رومانسية، لأن الطبيعة أثارت أشجانه، وحركت لواعجه، إبان جولاته في ربوع الأندلس العامرة، وهو هارب من السجن في قرطبة، وملتجئ إلى بني عبَّاد في إشبيلية، حيث كان يرسل للحبيبة الأميرة ولقرطبة الأثيرة مناجيات وجدانية، أبدع فيها أيما إبداع، لقد بدا في تلك المناجيات متحدا مع الطبيعة في مختلف مشاهدها، فتخيل أن الرياض البهية، والنسائم العليلة، والمياه المترقرقة، تشاطره اللوعة على فراق من يُحب، لاسيما عندما توقف في مدينة الزهراء، عقب فراره من السجن وأنشد يقول:

إنـــــي ذكرتـــــك بـــــالزهراء مشـــــتاقًا

والأفــق طلــقٌ ومــرأى الأرض قــدْ راقــا

وللنســـــيمِ اعـــــتلالٌ فـــــي أصـــــائله

كأنمـــــا رَقَّ لـــــي فاعْتـــــلَّ إشْـــــفاقا

والــروضُ عــن مائــه الفضــي مبتســـمُ

كمـــا شَـــقَقْتَ عـــن اللَّبَّـــاتِ أطواقـــا

** العربي– العدد ٣٦٢– يناير ١٩٨٩م.

*كاتبة سورية راحلة

كـــــأنّ أعينُـــــه عاينـــــتْ أرقـــــي

بكَــتْ لمــا بــي فجــالَ الــدمعُ رَقْراقَــا!

كانت غربة ابن زيدون عن قرطبة وولادة حافزًا قويًا لمناجاتهما ولتصوير عواطفه المشبوبة نحوهما، وشوقه المبرّح إليهما، بأسلوب سلس تفرّد به، واتسم بجرس موسيقي عذب، وديباجة رشيقة، مما حدا بمعاصريه– ومنهم ابن بسام صاحب "الذخيرة"– إلى تشبيهه بالبحتري. في حين أن الأستاذ كامل الكيلاني الذي حقق ديوان ابن زيدون ونشره في مصر سنة ١٩٣٢، قدمه للقراء بدراسة قيمة، فشبه شعره بشعر العباس بن الأحنف والشريف الرضي، ومجنون ليلي، فقال:

"الفن وحده هو الذي أكسب ابن زيدون زعامة الشعر في عصره، وأغرى فحول الشعراء في زمنه وبعده بمحاكاته، والانضواء تحت رايته".

وإني لأذكر بالمناسبة معارضة أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة ابن زيدون الخالدة في الوداع:

ودَّعَ الصـــــبرَ حبيـــــبٌ ودَّعـــــك

ذائـــــعٌ مـــــن ســـــره مـــــا اســـــتوْدعَكْ

يقـــرعُ الســـنَّ علـــى أنْ لـــمْ يكُـــنْ

زادَ فـــي تلـــك الخُطـــا إد وَدَّعَـــكَ

يـــا أخـــا البـــدر ســـناءَ وســـنى

حفـــــظ الله زمانَـــــا أطلَعَـــــكْ

إن يطـــــلْ بعْـــدكَ ليلــــي فلكـــــم

بـــــتُّ أشـــكو قِصَـــرَ الليــــلِ مَعَـــكْ

وهي قصيدة جميلة، لحنها الأستاذ محمد عبد الوهاب، وغنّاها، ومطلعها:

رُدَّتْ الـــروحُ علـــى الُمضــــنى معـــك

أحســـــنُ الأيــــامِ يــــومُ أرجعــــكْ

وقد أضحى حب ابن زيدون لولاّدة أسطورة في تاريخ أدبنا العربي، مازالت تحت الكتّاب والشعراء في المشرق والمغرب على استلهامها وسواء أكانت ولاّدة حبَّهُ الأوحد في حياته أم لم تكن، فلا ريب في أن حبه الكبير لها كان الجذوة التي أججت عواطفه، وفجَّرت موهبته، وأوحت إليه روائع شعرية، لا تمل قراءتها، ولا يصعب حفظها.

ومن أجودها وأشهرها قصيدته النونية:

أضْـــحَى التَّنَــــائي بـــديلاً مِــــنْ تــــدانينا

ونـــابَ عَـــنْ طيـــب لقيانـــا تجافينـــا

مَـــــنْ مُبْلــــغٌ الُملبســـــينا بـــــانتزاحهم

حُزْنَـــا مـــع الـــدَّهْر لا يبقـــى ويُبلينـــا

أن الزَّمـــــان الــــذي مـــــازال يضـــحكنا

أنْسَـــا بقـــربهم قَـــدْ عـــاد يُبْكينـــا؟

غـيظ العـدا مـن تسـاقينا الهـوى فـدعوا

بـأن نغـصّ، فقـال الـدَّهْرُ آمينـا

فانْحـلّ مـا كـان معقـودًا بأنفسنا

وأنْبَتَّ مـا كـان موصـولا بأيـدينا

وقـد نكـونُ ومـا يُخشـى تفرقُنـا

فـاليومَ نحـنُ ومـا يُرْجـى تلاقينـا

لـم نَعْتَقَـدْ بعـدكُم إلاّ الوفـاء لكـم

رأيَـا، ولـم نتقلّـدْ غيـرهُ دينـا

بِنْـتُمْ وبنَّـا، فمـا ابتلَّـتْ جوانحُنـا

شـوقًا إلـيكُم، ولا جفَّـتْ مآقينـا

نكـادُ حـين تُنـاجيكم ضـمائرنا

يقضـي علينـا الأسـى لـولا تأسَـينا

وهذه القصيدة آية من آيات الشعر العربي، بل والعالمي، ولو لم يكتب ابن زيدون غيرها لاعترف له مؤرخو الأدب بالإبداع سبكا ولغة وإلهاما، وهي ليست قصيدة حب وحنين فقط، بل هي لوحة وجد وشوق، ومن أشهر القصائد التي تناقلتها المحافل الأدبية منذ ولاتها، فلقد ذكر المقري في "نفح الطيب" بأن حفظها كان من شروط التحلي بالظرف والأدب عند الأندلسيين، إلى جانب التختُّم بالعقيق، ولُبس البياض، والتفقه للشافعي، ودراسة أدب الجاحظ.

ومما يسترعي الانتباه في شعر ابن زيدون الوجداني طابع الحزن واللوعة، لأن أيَّام الصفَّاء في حبه لولاّدة لم تدم طويلاً، ولو لم يحصل الجفاء بينهما، ومن ثم الهجر والفراق، لما حظينا بتلك الروائع التي بثّ فيها ألمهُ وعتبه، ووجده وشكواه. وأنا لا آتي بشيء جديد إذ أقول: إن افتراق العشاق كان ومازال يفجر مواهب الأدباء والشعراء منهم في تاريخ الأدب العالمي. ولقد ترجم النونية المستعرب الإسباني الأستاذ "إميليو غارثيا غوميث" ونشرها في كتاب قيّم أعده عن شعراء الأندلس، فوجدها ملائمة للذوق الغربي، وعلق على البيت التالي منها:

حالـــتْ لفقـــدكم أيامُنَـــا فَغَـــدَتْ

ســـودًا وكانـــت بكـــم بيضَـــا ليالينـــا.

فكتب ما يلي: "يخيل إليك وأنت تُمعن النظر في هذا البيت أن ابن زيدون جالس أمام رقعة شطرنج، يتصرف بتحريك حجارتها البيض والسود، وكأنه يخوض شوطا يائسا حيال حبه العظيم!".

الحب في رأي ابن زيدون عاطفة نبيلة، والخضوع فيه للمحبوب عز، وليس إذلالا، ومع أنه كان ينحدر من قبيلة بني مخزوم القرشية فقد وجد نفسه دون حبيبته الأميرة الأموية شرفا في النسب، وأكد لها أن حبه الكبير وكل حب عظيم، يزيل الفوارق بين المحبين.

مــا ضَـــرَّ إنْ لَـــمْ نَكُـــنْ أكْفــاءَهُ شَـــرَفَا

وفـــي المـــوَدَةِ كـــافِ مِـــنْ تكافينَـــا؟

إن مناجيات ابن زيدون لولاّدة في غربته عنها تنبئ عن صفاته الإنسانية

الجميلة، ومن أهمها الوفاء والإخلاص، وتنبئ عن آلامه وخشيته من غدرها به، لعلمه بأن خصومه في قرطبة، وعلى رأسهم ابن عبدوس، قد أوغروا صدرها عليه، طمعا في استمالتها إليهم، ومن هذه المناجيات المؤثرة نذكر مخاطبته لها عندما بعث إليها بالأبيات:

أيُــو حِشُــني الزمــانُ وأَنْــتِ أُنســي؟

ويُظْلِــمُ لــي النهــارُ وأنــتِ شمســي؟

وأغْــرسُ فــي محبَّتــكِ الأمــاني

فــأجني المــوتَ مــنْ ثمــراتِ غرســي

لقــد جازيــت غــدرًا مــن وفــائي

وبِعْــتِ مــودَتي ظلمَــا بــبخْسِ

ولــو أنّ الزمــانَ أطــاعَ حُكْمــي

فَــديْتُكِ مِــنْ مكارِهِــهِ بنفســي

كما أن حسن اختياره للأوزان الخفيفة والقوافي الجزلة من أهم مزايا تلك المناجيات، ومنها:

متــى أبُثُّــكِ مــا بــي

يــا راحتــي وعــذابي؟

مــا البــدر شَــفَّ ســناهُ

علــى رقيــق الســحاب

إلا كوجهـــــــــــك لمـــــــــــا

أضـــــــــاء تحـــــــت النقـــــــــابِ

أما قصائد حنينه لقرطبة بعد نزوحه عنها فإننا نجد فيها لوعة الذين يغتربون عن أوطانهم وأحبتهم ومرابع طفولتهم، فالإنسان خُلق ألوفا، ولا أحسب أن شيئًا يضنيه أكثر من فراق الأرض التي أنبتته، والأماكن التي قضى فيها صباه، إذ مهما امتد به العمر يظل حبها متأججا في ضلوعه، ويبقى حنينه إليها مشتعلا في قلبه. لقد عاش ابن زيدون نصف عمره في الغربة، ولقي كل حفاوة وتكريم في بلاط بني العباد بإشبيلية كما هو معروف، وتولى الوزارة فيه، كما أحيط برعاية بالغة في زياراته المتعاقبة لملوك الطوائف وأمرائها، أمثال بني الأفطس في بطليموس، والأمير إدريس بن المظفر في ملقة، ولكن المجد الأدبي والمناصب الرفيعة لم تُنسه حبه الأول، وهيامه بقرطبة، فظل ينشد القصيد تلو القصيد، دامي القلب، دامع العين:

يـــا دمـــعُ صُـــب مـــا شـــئت أنْ تصـــوبا

ويـــــــا فـــــــؤادي آن أنْ تـــــــذوبا

قـــــد مـــــلأ الشـــــوق الحشـــــا نـــــدويا

فـــي الغـــرب إذْ رحـــتُ بـــه غريبـــا

عليـــــلُ دهـــــر ســـــامني تعـــــذيبا

أدنـــي الضَـــني إذْ أبعـــدَ الطبيبـــا!

وعندما طالعه العيدان، عيد الفطر وعيد الأضحى المباركان، وهو في ضيافة الأمير العالم المظفر بن الأفطس أنشد قصيدة عبَّر فيها عن حنينه

الشديد، هذا مطلعها:

خليلـــــيَّ لا فِطْــــرٌ يَسُــــرُّ ولا أضْـــــحى

فمـا حـالُ مَـنْ أمْسـى مَشُـوقًا كمـا أضْـحَى؟

كما أن له مخمسة رائعة صب فيها هيامه بديار صباه، وشوقه لموطن هواه، وضمنها وصفا لتلك الديار، أطلَّعنا بفضله على ما كانت عليه قرطبة من بهاء وازدهار، فذكر مواقع ومنتزهات كانت عامرة في عصره، منها الرصافة، وهي المنتجع الصيفي الذي بناه الخليفة عبد الرحمن الثالث بجوار قرطبة، حيث ولد شاعرنا، ومنها العقيق، وعين شهدة، أما العقيق فقد كان جدولا ضمن بستان، يقع بالقرب من أحد أبواب قرطبة الواقع في شمالها، وأما عين شهدة، فقد كانت ينبوعًا ثرًا ينبجس من سفح الجبل المجاور لقرطبة، يقصده الناس للتنزه والسمر في الليالي المقمرة، ولابد من الإشارة إلى أن المخمسة التي ذكرها تكاد تكون ملحمة في شعر الشوق والحنين، ومطلعها:

أقرطبـــةُ الغـــراءُ هـــل فيـــك مطمـــعُ؟

وهــل كَبـــدٌ حـــرى لبَيْنِـــكِ تنقـــعُ؟

وهـــــل لليالــــك الحميــــدة مرجــــعُ؟

إذ الحسـنُ مُـرأى فيـك واللهـوُ مُسْـمَعُ

وإذ كنــــفُ الـــــدنيا لـــــديكِ مُوطَّــــأ؟

وقبل أن توافيه المنية ببضعة أشهر قرت عين ابن زيدون بالرجوع إلى قرطبة مظفرًا بصحبه حملة عسكرية أرسلها المعتمد بن عباد لإنقاذها من هجوم جيش ملك طليطلة عليها، المأمون بن ذي النون سنة ٤٦٤هـ. ولكن

الحظ لم يسعف شاعرنا إذ اضطر للعودة إلى إشبيلية بأمر من المعتمد بن عباد للإسهام في إخماد فتنة شبت فيها. كان مريضًا حينذاك فاشتدت به العلة ومات ودفن غريبًا عن مسقط رأسه، وهو دون السبعين من العمر، فقد ولد سنة ١٠٠٣م، وتوفي سنة ١٠٧٠م.

كان نبوغه في الشعر مواكبا لنهضة أدبية وفنية كبيرة في الأندلس، ومع أنه لم يكن شاعر الحب الأوحد في القرن الحادي عشر الميلادي فيها، فقد كان المجلي في ميدانه، لأنه أبدع قصائد رائعة، نابعة من تجربته العاطفية المثيرة، ومعاناته الصادقة في الاغتراب عن مدينته الأثيرة قرطبة، ولولا تفرده بعذوبة السبك، وجزالة الأسلوب، ورقة النبرات وصدقها لما كتب الخلود لشعره في الحب والحنين الذي ما زال يطربنا ويشجينا بعد انقضاء تسعة قرون على زمن إنشاده.

ابن حزم في ذكره**

د. حسين مؤنس *

ولد أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم في ٣٠ رمضان ٣٨٤/ ٧ نوفمبر ٩٤٤ في حي منية المغيرة، وكان أجمل أحياء قرطبة العربية– المنية في الأندلس هي ما نسميه نحن اليوم بالفيلا، دار أنيقة تحيط بها حديقة– والمغيرة هذا كان عما للخليفة هشام المؤيد، عاشر خلفاء بني أمية القرطبيين. كان الحي كله حديقة منيته، وعندما قتله المنصور ابن أبي عامر تقاسم الوزراء والكبراء حدائق المنية، وأنشأوا فيها قصورا. في قصر منها كان يقيم بنو حزم وعميدهم أحمد بن حزم أحد وزراء المنصور، وفي ذلك القصر ولد ابن حزم. وإلى جواره كانت قصور نفر كبير من الوزراء والذوات ممن عاصروا ابن حزم وبقيت أخبارهم في كتب الأدب والتاريخ: بنو شهيد، بنو الزجالي، بنو الطبيني، بنو برد وغيرهم كثيرون. هذا الحي يقع في شمال شرقي قرطبة. اسمه اليوم حي سان لورنزو، وبالضبط في مكان قصر بني حزم تقوم كنيسة سان لورنزو لكي يصل ابن حزم إلى مسجد قرطبة الجامع ليدرس كان يمر من باب من أبواب قرطبة يسمى باب عبد الجبار.

عبد الجبار هذا كان أيضًا ابنًا من أبناء عبد الرحمن الناصر العظيم، أي أخا للمغيرة، وقد قتل المنصور بن أبي عامر عبد الجبار أيضًا. كانت تلك ذكريات أليمة لنفس ابن حزم. بعد ذلك يمر في حارات ضيقة حتى يصل إلى

** العربي– العدد السابع والخمسون أغسطس ١٩٦٣

"المحجة العظمى" وهو شارع قرطبة الرئيسي، يشرع من أمام قنطرة الوادي الكبير ويمر بين الجامع والقصر، ويستمر حتى أقصى شمالي البلد، وينتهي عند باب اليهود.

وفي سنة ٤١٤هـ ١٠٢٣م أصبح ابن حزم وزيرا، اختاره للوزارة صديقة عبد الرحمن الملقب بالمستظهر. لكي يكون ابن حزم أقرب إلى قصر الخلافة حيث تقوم مكاتب الوزراء، ترك حي منية المغيرة وانتقل إلى حي بلاط مغيث في الناحية الغربية من البلد. كان حي قصور أيضًا ينسب إلى مغيث الرومي أحد قواد طارق بن زياد وموسى بن نصير.

ولكي يصل ابن حزم إلى دار الوزراء كان عليه أن يمر من باب من أبواب قرطبة قرب الوادي الكبير يسمى باب العطارين، وهو يسمى اليوم باب إشبيلية. لقد أعيد إصلاحه وترميمه مرارًا ولكنه ما زال باقيا.

لم تدم الوزارة لابن حزم طويلاً، فقد قتل عبد الرحمن المستظهر في ذي القعدة من السنة نفسها. اعتزل ابن حزم السياسة بعد ذلك، ولكنه ظل يقيم في قصره في بلاط مغيث لقربه من المسجد الجامع. هناك كان فقيه قرطبة الأكبر يحاضر ويناقش ويساجل، ثم تألب عليه الفقهاء، وأخرجوه وأستاذه أبا الخيار مسعود بن مفلت من الجامع في أواخر سنة ٤١٦هـ ١٠٢٦م.

هنا سئم ابن حزم قرطبة وغادرها ومضى يذرع نواحي الأندلس محاضرا مساجلا في حدة وعنف وعصبية. وسئم التجوال، ولكنه لم يعد إلى قرطبة إلا مرة واحدة، مر بها مرورًا سريعًا ليرى حي منية المغيرة وبلاط مغيث قد نهبا وانطمست معالم القصور فيهما. سار عنها بقلب مثقل بالحزن، ومضى إلى

أقصى غرب الأندلس، إلى ضيعة كانت لأسرته في قرية تسمى مفت ليشم، اسمها اليوم مونتيخار على سبعة كيلو مترات شمالي مدينة ولبة الحالية، وفي الطريق منها إلى لبله. هناك أقام ابن حزم نحو ٢٥ سنة معتزلاً الناس، يؤلف ويبحث ويدرس حتى أدركته المنية في ٢٨ شعبان ٤٦٦ هـ ١٥ أغسطس ١٠٦٤.

وفي عصر النهضة هذا الذي نعيشه، كان لابد أن يعود ابن حزم إلى قرطبته العزيزة، وقد عاد إليها كما ينبغي أن يعود إليها رجل مثله. لم يقدره أهل عصره حق قدره، لا ولا الأجيال التالية عرفت مكانه. كانت لهم مقاييس ضيقوا بها على أنفسهم رحاب الحياة. أجمل كتب ابن حزم "طوق الحمامة في الألفة والألاف" الذي يقرأ الآن في كل لغة حية في الدنيا كان عندهم من سقط المتاع. لم نجد منه إلا نسخة واحدة يتيمة. عندما عثر عليها المستشرق الروسي ميتروف أعلن النبأ فاهتزت له أوساط الأدب في الدنيا كلها. لم يفهم الفقهاء أبدًا كيف يكتب فقيه كتابًا عن الحب.

لم نحتفل نحن وحدنا بعودة ابن حزم إلى قرطبة احتلفت معنا إسبانيا، وهي وطنه، اشتركت الدولة رسميًا في الاحتفال، وعهدت إلى المثال الإسباني أماديو رويت أولموس في صنع تمثال بالحجم الطبيعي للقرطبي العظيم. اشتركنا معه في تصور هيئة ابن حزم من مؤلفاته. اشتركت معنا أيضًا جامعتا باريس وليون. حضر سفراء العرب في إسبانيا جميعًا.

وفي صباح ١٢ مايو ١٩٦٣ أزيح الستار عن التمثال، وعزفت الموسيقى النشيد الرسمي الإسباني ثم نشيدًا قوميا عربيًا، ثم نثرت الزهور على قدمي الغريب العائد إلى بلده.

التمثال يقوم على باب العطارين أو باب إشبيبة، الباب نفسه الذي كان ابن حزم يمر منه في طريقه من منية المغيرة إلى المسجد الجامع.

وفي يوم ١٥ مايو أزيح الستار عن لوحة تذكارية أقيمت في موضع بيته نفسه، أمام كنيسة سان لورنزو. الأسبوع كله كان أسبوع ابن حزم، عشرون عامًا أوربيًا وعربيًا ألقوا عشرين محاضرة عن جوانب شتى من جوانب العبقري العظيم.

رحمك الله أبا محمد: شهدت وطنك أيام المحنة ومت غريبًا عن بلدك تحسب أن الأمل في البعث ولى وضاع. ولكنك كنت رجلاً، كنت إنسانًا عظيمًا جمع علم الإسلام كله في صدره، وأمة تنجب مثلك لا تموت، ولا أنت تموت! هاهي أمتك قد بعثت بعثًا جديدًا، وها أنت تعود كما ينبغي أن يعود مثلك!

ابن حزم**

محمد أبو زهرة*

في مزرعة خصبة من مزارع الأندلس، غصين الإسلام الرطيب، كان يقيم عالم شيخ قد تجاوز السبعين من عمره، أقصاه الملوك عن قربهم إلى أن انتهوا به إلى هذه المزرعة، وهو لا يني عن نقدهم. حرقوا الكثير من كتبه، وقطعوه عن الناس، فلم ينثن عن لومهم، وكلما زادوه أعناتا زادهم عنفا في القول والقلم. والشباب من طلاب العلم ينتقلون إلى مستقرة، لا يخافون عقابًا، ولا يرجون من أولي الأمر ثوابًا، لينتهلوا من ذلك المنهل، والشيخ يحدثهم ويعلمهم الفقه والأدب والتاريخ، ولا يدع المثابرة على العلم، والمواظبة على التأليف، حتى ينتهي أجله في شعبان من سنة ٤٥٦هـ فتكون تلك المزرعة الخصبة مثواه الأخير.

ذلك العالم العنيد القوي هو علي بن سعيد بن حزم، وكان يسمي نفسه أبا محمد.

لا يكاد الباحث الدارس لتاريخ العلماء المسلمين يجد عالما قد عرف تاريخ مولده على وجه التعيين، لكن ابن حزم عرف وقت مولده بالساعة واليوم والشهر والسنة، ففقد ذكر هو أنه ولد في آخر يوم من أيام رمضان سنة ٣٨٤هـ، وكانت ولادته بعد الفجر، وقبل طلوع الشمس من تلك الليلة.

** العربي– العدد السابع والخمسون– أغسطس ١٩٦٣.

* كاتب راحل كان أستاذًا للشريعة بجامعة القاهرة.

وقد كانت أسرته من أقدمها في الإسلام إلى أن تصل السلسلة إليه– تعيش في كنف البيت الأموي في دمشق، ولما انتقل البيت الأموي إلى الأندلس انتقلت معه، واستمرت في ولاء ومعاونة له. وكان أبوه وزيراً في إحدى ولايات الأندلس في الحكم الأموي، وتولى هو ذلك المنصب في وقت قصير لبعض أمرائهم.

وقد نشأ هو في بحبوحة من العيش، وعز من السلطان، وكان يعيش عيش أهل الثراء، وأن ضيق عليه في أخريات أيامه. وكان يعتز بأنه طلب العلم لذا العلم، يرجو ما عند الله، فلا يطلب به جاها، ولا عزا. وقد قال له الباجي من كبار فقهاء الأندلس: "إنك نلت العلم، وأنت تسهر بمشكاة من الذهب، وأنا أسهر بقنديل بائتا بالسوق"، فقال ابن حزم: "إنك طلبت العلم، وأنت في هذه الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبته، لم أرج به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة".

نشأ ربيب النعمة هذا فاكها فيها، فاستحفظ القرآن في بيته، حفظه إياه النساء من الجواري، ولنتركه يروي ذلك فهو يقول: "لقد شاهدت النساء، وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأني ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب، وهن علمنني القرآن، وروينني كثيرًا من الأشعار، ودربنني في الخط".

وأن هذا السياق يدل على أن أولئك الجواري كن مثقفات ثقافة واسعة، فهو يقول إنهم علمنه القرآن، ولم يقل إنهن حفظنه، لأن تعليم القرآن أكبر من تحفيظه، إذ تعليمه بيان بعض معانيه، وفيه تعرض لبعض أسباب النزول، فهو لم يحفظ القرآن غير فاهم، بل حفظه ابتداء فاهما له مدركا لمعانيه في الجملة، وعلى قدر طاقته في سنه.

ولم يكن بعيدًا عن أبيه، بل كان أبوه ملاحظًا له، معنيًا به، يراقب ميوله واتجاهاته، ويحرص على أن ينشأ عفيفًا قوي النفس مع تلك النشأة الناعمة، حتى لا تعتري نفسه طراوة من ينشأ بين النساء.

بعد أن أخذت نيران الصبا وغرارة الفتوة وشرة الحداثة تتجه إلى نفسه وتتأجج فيها- أخذه أبوه وأسلمه إلى بعض الشيوخ، واختصه بعالم اتسم بالتقوى، قد قال ابن حزم في وصفه: "كان عاقلا عالما عاملا ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح، والزهد في الدنيا، والاجتهاد للآخرة، وأحسبه كان حصوراً، لأنه لم تكن له امرأة قط وما رأيت مثله جملة علمًا وعملًا ودينًا وورعًا، فنفعني الله به كثيرًا وعلمت موضع الإساءة وقبح المعاصي".

استمر ابن حزم يعيش تلك الحياة الناعمة الهادئة، ويتعلم العلم في رفق وهدوء بال لا يرنق حياته مكدر، بل في اطمئنان واستقرار، وفي ذلك الوسط تربي كما يتربى أبناء الأمراء، وتثقف كما يتثقفون، حفظ القرآن، وتعلم علومه ومعانيه وحفظ قدرًا من الشعر، واتجه إلى أفاضل الشيوخ يأخذ من مناهلهم الندية.

ولكن ذلك العيش الناعم الهادئ تبدل، إذ تبدلت حال أبيه، فقد كان أبوه وزيرًا، وقديمًا قال الحكماء: "من أكل من مال السلطان فقد سعى بقدمه على دمه". وكانت وزارة أبيه في آخر عهد الأمويين بالأندلس، أي وقت أن ضعفت أيديهم عن الاستمساك بصولجان الحكم، ووقوعهم في قبضة أحد وزرائهم أبي منصور العامري، واستبداده بالأمر دونهم، فأنزل أبوه من منصب الوزير، وامتحن بالاعتقال والتغريب، حتى مات وهو في هذه الشدة، ولنترك الفتى الناعم يقص علينا النقمة بعد النعمة: "شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات، وباعتداء أرباب دولته، وامتحنا بالاعتقال والتغريب،

والإغرام الفادح والاستتار، وأرزمت الفتنة، وألقت باعها، وعمت الناس وخصتنا، إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله، ونحن في هذه الأحوال– بعد العصر لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنتين وأربعمائة".

استمرت الشدة بعد وفاة أبيه، ولم تنقطع، وأخذ يحملها وحده، بعد أن كان في احتمالها تابعًا لأبيه، وتتابعت الشدائد، حتى أخرجوا من قرطبة مكان عزهم، ويقول في ذلك: "وضرب الدهر ضرباته، وأجلينا عن منازلنا، وتغلب علينا جند البربر، فخرجت عن قرطبة أول المحرم عام أربع وأربعمائة".

نزلت هذه الشدائد والغلام لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وقد صقلته، وكانت ابتداء حياة جديدة له، فقد انتقل من غلام ناعم، إلى رجل مكافح مناضل، يخاصم في الفقه، فيصب على خصمه الجندل، ويسيطه ماء الخردل، كما وصفه معاصروه.

انصرف إلى العلم بكليته، واختاره من بعد بإرادته ليعوضه عن منصب الوزارة عرض العلم، فأخذ يدرس الحديث ويرويه، يأخذه من الشيوخ، ويأخذه من الكتب، حتى حصل على أكبر مجموعة من علم الرسول، ومن فقه الصحابة، ثم أخذ يدرس الفقه، ووصل فيه إلى القمة، وكان يحب منه ما يكون ضاحيًا واضحًا، ولذلك اكتفى بأخذ الأحكام من النصوص، من غير بحث عن علة لها، ولا تعرف لغاياتها، فاختار المذهب الظاهري له مذهبًا، وهو المذهب الذي يرفض الأخذ بالرأي في الأحكام الشرعية، ولا يحاول تعليل النصوص، بل يرفض ذلك رفضًا باتًا.

والإمام الأول لهذا المذهب هو داود الظاهري الأصفهاني، وإمامه الثاني ابن حزم.

ولقب بالظاهري لاختياره ذلك المذهب، وقد تشدد فيه أكثر من إمامه الأول، وساعده على التشدد إحاطته الواسعة بأحاديث رسول الله ثم مع ما عرض له من حدة، لازمته نحوًا من ثلاثين سنة.

ولم يشغله عن العلم بعد أن نكبت أسرته، وحمل العبء الكامل من الآلام، إلا وقتًا قصيرًا اشتغل فيه وزيرًا لأحد الذين ظهروا من بني أمية، فدفعه ولاؤه لهم إلى معاونته، ولكن سرعان ما زال ملك ذلك الذي ظهر، وتتابعت النكبات على ابن حزم، ثم عادت إليه هدأة العالم الذي يعكف على الدرس.

ولكنه مع ذلك كانت في نفسه قوة دافعة إلى الحركة، لا يمكنه أن يستقر في صومعة، ولذلك اندفع إلى الرحلات ووجد في هذه الحركة ما ينمي به علمه، وما يشبع به نفسه، فانتقل من قرطبة إلى المرية طلبًا للاطمئنان، وانتقل من بعد إلى مدينة يقال لها الحصن، ثم انتقل إلى بلنسية، ثم عاد إلى قرطبة حنينا إلى المغاني التي تربى فيها وترعرع، ثم انتقل إلى الشاطبة وأقام في منازل كانت لأسرته بها، وانتقل إلى قيروان.

وفي كل مكان يلتقي فيه بعلمائه يناقشهم ويناقشونه، ويستأنس بأهل الود منهم، ويختلب الشباب بآرائه الجيدة، وبحلو عباراته، واتساع آفاقه في غير الفقه، وهو يكتب ويدون، وحتى أخرج مجموعة علمية رائعة.

لقد كان ابن حزم العالم أموي النزعة في وقت زال فيه سلطان الأمويين، ولم تكن محاولاته في الفقه فقط بل كانت محاولاته في التاريخ واسعة، فكان يدون حوادث عصره بما يراه، لا بما يرون، لا يهمه رضا أحد أو سخط أحد، وفي أولئك الذين يذكر في شأنهم ما يراه، أمراء يحكمون، فلم يجدوا سبيلاً لمنع استرساله إلا أن يأمروا بإحراق كتبه فحرقوها، ولكنه يقبل

التحدي بالتحدي فيقول في قوة وعنف:

وإن تحرقـــوا القرطـــاس لا تحرقـــوا الـــذي

تضمنّه القرطاس، بل هو في صدري

يســـير معـــي حيـــث اســـتقلت ركـــائبي

وينــزل إذ أنــزل ويــدفن فــي قبــري

ولم تكن النقمة عليه من الأمراء، بل كانت النقمة أيضًا من العلماء، فقد كان أكثر علماء الأندلس يعتبر مذهب الإمام مالك دينا، ويعتبرون مالكًا فوق قدر الرجال، حتى أن الشافعي رضي الله عنه بلغه أنهم كانوا يستسقون بقلنسوة للإمام مالك.

فهاجم ابن حزم مذهب مالك، ولم يسلم مالك من قلمه، وكلما ازداد استنكارهم ازداد عنفًا وحدة على المذهب المالكي وصاحبه، فكثر الأعداء، وقل النصراء، ولم ينهج في نشر علمه منهج المودة، بل المعاندة، حتى لقد قال فيه بعض معاصريه: "علم العلم ولم يعلم سياسة العلم".

أتى الله ابن حزم حافظة واعية، وجلدًا في طلب العلم جعله يستوعب أكبر قدر من علم السنة، والآثار، واختلاف الفقهاء، وأكبر قدر من رواية الشعر، وأخبار التاريخ، وكان مع هذا الاستيعاب حاضر البديهة تجيء إليه المعاني البعيدة في أوقات الحاجة إليها.

ثم كان عميق النظر في الدراسة، مع أنه لم يأخذ في الفقه بالرأي. وعمقه قد بدأ في دراسته للنفوس فكان يحلل ويتعمق في التحليل، وقد بدأ ذلك واضحًا كل الوضوح في رسالته "طوق الحمامة" التي درس فيها العشق وأسبابه وظواهره، وبدأ أيضًا في رسالته مداواة النفوس، ثم بدأ في تحقيقاته التاريخية.

وقد آتاه الله مع هذه المزايا العلمية إيمانًا قويًا بالله، وإخلاصًا واضحًا في طلب الحقيقة لا يهمه في بيان ما يصل إليه رضا أحد أو غضب أحد، وكان عالي الهمة، لا ينماع في غيره، تزيده قوة خصمه علوًا، لا يستخذي ولا يضعف ولا يتبع إلا مصادر الشرع، يعلو على الشديد، ولا يستسلم، ويعلو في المقاومة، ولا يهن ولا يضعف.

وكان مع كل ذلك فيه حدة شديدة في القول، فكان إذا رد قولًا رماه بالشناعة، ورمي صاحبه بالخروج على الدين. ولكن لماذا كانت هذه الحدة، وهل لازمته في كل أدوار حياته؟ والجواب عن ذلك أنه يبدو من كتابيه "طوق الحمامة" و"مداواة النفوس" أنه لم تنشأ معه الحدة كطبع فيه منذ طفولته، فقد كان هادئ النفس، مشرق القلب، حتى بعد أن نزلت النكبات في أسرته.

ولكن اعترته الحدة لمرض أصابه، ويقول هو في تبدل حاله بسبب المرض: "لقد أصابتني علة شديدة ولدت في ربوا في الطحال شديدًا، فولد ذلك علي من الضجر، وضيق الحال، وقلة الصبر والنزق، أمرًا جاشت نفسي فيه. إذا فكرت تبدل خلقي، واشتد عجبي من مفارقتي لطبعي، وصح عندي أن الطحال موضع الفرح، وإذ فسد تولده ضده".

هذا تحليل عميق لنفسه، ولو أنه بين لنا التاريخ الذي أصيب فيه بهذه العلة لعلمنا من أي وقت ابتدأت حدته، ولكنا نعلم أنه قضي أكثر شبابه وهو لم يصب بهذه العلة، لأن رسالته "طوق الحمامة" تدل على نفس مشرقة هادئة راضية محبة للحياة، وأنه يثبت من ثنايا هذه الرسالة أنه كتبها بعد أن تجاوز الثالثة والثلاثين، بل ربما كانت كتابتها وهو في حدود الأربعين، فالحدة جاءت وهو في حدود الأربعين وفي هذه المدة الأخيرة أنتج أكثر كتبه الإسلامية والتاريخية، مثل كتاب الفصل في الملل والنحل، ومثل كتاب الإحكام في

أصول الأحكام، والمدونة الإسلامية الكبرى، وهي "المحلى" الذي يعتبر أعظم كتاب جامع لفقه السنة والآثار. والعنف في القول باد فيها جميعاً، ولو أبعدت منها حدة القول، بل الشتائم، لكانت نوراً مشرقًا.

هذه الرسالة كتبها في الأخلاق، واعتمد فيها على ما كن مشهورًا عند العرب من فلسفة أرسطو، وعلى تجاربه الخاصة، وملاحظاته لشئون الناس، ولذلك كانت الرسالة شاملة للنظرة الفسلفية، والناحية العملية، وقد اشتملت على وصايا رائعة، ابتدأها بالكلام في مقياس الخير والشر، وقد مزج فيها بين نظرية أرسطو في أن الفضيلة وسط بين رذيلتين، كما يقول أن الفضائل ترجع إلى أربعة أصول هي العدل والعقل والشجاعة، والسخاء. ويقارب بذلك أفلاطون ثم يتجه إلى القرآن والسنة يستقي منهما. ثم يتجه إلى تجاربه، فيقول: "إني جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة، أفاد فيها واهب التمييز تعالى بمرور الأيام وتعاقب الأحوال".

وأن تجاربه لعظيمة، لتقلب الأحوال عليه، ولرحلاته الكثيرة، ولابتلائه بمعاداة الناس، مع ذكاء نافذ وقلب مستيقظ، ولسنا بمقام الاقتباس من هذه الرسالة، فإن فيها مواضع كثيرة صالحة للأخذ والاقتباس، وتعد في ذاتها جواهر فريدة، ونكتفي منها بكلمة واحدة جاءت في الرسالة، وهي الثقة بمن له دين ولو كان مخالفًا، وعدم الثقة بمن لم يستمسك بدينه ولو كان موافقًا، فيقول: "ثق بالمتدين، وأن كان على غير دينك، ولا تثق بالمستخف، وإن أظهر أنه على دينك، من استخف بحرمات الله تعالى، فلا تأمنه على شيء تشفق عليه".

هذه الرسالة تصدى فيها ابن حزم لدراسة النفس الإنسانية فيما تحب وتألف، ولذلك ذكر أن موضوعها الإلف والألاف وقد كتبها إجابة لطلب

صديق له، وقد ذكر لصديقه أنه كتبها ليتسلى بها معه، وأن كان ما فيها حقا، فيبرر كتابتها بما روى في الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أريحوا النفوس فإنها تصدأ، كما يصدأ الحديد".

وقد ابتدأ الرسالة بتحاليل تصف الحب وسببه، فذكر أن سبب الحب تجانس نفسي، يجعل المحب يأنس بحبيبه ويسكن إليه، ويسند ذلك إلى المناسبة بين النفسين في مقر عالمهما العلوي، ويتلو في ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ويقول في ذلك: "صح بذلك أن الحب استحسان روحاني، وامتزاج نفساني" ثم يقول: "ومن الدليل على ذلك أنك لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكله واتفاق في الصفات الطبيعية، لابد من هذا وأن قل، وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة".

ويسترسل بعد في أخبار المحبين، ويحلل الوقائع تحليلًا دقيقًا، ولا يتمنع حتى عن ذكر واقعات فسق ويحللها، ثم يبين مراتب الحب ويثبت أن أعلاها ما بني على الارتباط الروحي، والاشتهاء، ويبين أن الحب لا يكون إلا لواحد، أما الاشتهاء فيكون لغير واحد، وبعد أن يخوض هذا الخوض يحلل نفسية المرأة، وأنها مهما تكن من الصلاح متى أحست أن رجلاً يسمعها أحدثت ما يوجه النظر إليها، ولخشية أن يتهم بعد ذلك في دينه يقول: "إني أقسم بالله أني ما حللت مئزري على حام قط".

والرسالة مكتوبة في أسلوب من النثر الفني الرائع، السهل الممتنع، رحم الله ابن حزم لقد كان واسع الآفاق، فأفاد بعلمه، وعفا الله عنه.

أبو حيان الأندلسي نحوي عصره ومفسره[**]

د. عبد المجيد المحتسب*

هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي أثير الدين أبو حيان الأندلسي. ويتضح مما ذكره المؤرخون أن أبا حيان كان جياني الأصل، فهو يرجع إلى مدينة جيان، إحدى مدن الأندلس الوسطي شرقي قرطبة بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخا، وكان مولد أبي حيان في غرناطة في أواخر شوال سنة (٦٥٤هـ)= ١٢٥٦م. ولكن بعضهم يذكر أنه ولد في "مطخشارش". والذي يبدو أن "مطخشارش" هذه ليست مدينة قائمة برأسها، بل هي ضاحية من ضواحي غرناطة أو حي من أحيائها.

وكنيته "بأبي حيان" ترجع إلى ولده حيان، ولهذا غلبت عليه هذه الكنية ولازمته. ولم يكن صاحبنا منفردًا بهذه الكنية، فإننا نعرف قبله أبا حيان التوحيدي الكاتب البغدادي المشهور.

والذي يبدو أنه كان يبتغي الشهرة من وراء هذه الكنية، يقول في معرض تفسيره للآية (١١) من سورة الحجرات ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ "عن عمر: "أشيعوا لكني فإنها سنة"، ولا سيما إذا كانت الكنية غريبة لا يكاد يشترك فيها أحد مع من تكني بها في عصره، فإنه يطير بها ذكره في الآفاق، وتتهادى أخباره الرفاق، كما جرى في كنيتي

[**] العربي– العدد ١٣٠– سبتمبر ١٩٦٩م.

[*] كاتب وأكاديمي أردني راحل .

بأبي حيان واسمي محمد، فلو كانت كنيتي أبا عبد الله أو أبا بكر مما يقع فيه الاشتراك لم أشتهر تلك الشهرة".

ولم يطل المقام بأبي حيان في الأندلس حتى غادرها سنة (٦٧٨هـ) أو التي بعدها، وتنقل في بلاد المغرب حتى استقر في القاهرة عاصمة المماليك البحرية آنذاك.

وكانت الإسكندرية أول ما دخل من مدن مصر، وسمع فيها عن عبد الوهاب بن حسن بن الفرات. وكانت مصر يوم دخلها تحت حكم المماليك البحرية الذين لعبوا دورًا ملحوظًا في صد هجمات المغول عن الشام ومصر، وفي تأسيس دولة لعبت دورًا كبيرًا في الحفاظ على التراث العربي الإسلامي.

ولقي صاحبنا حظوة عند سلطان المماليك، وأصبح مدرسًا للنحو في جامع الحاكم سنة (٧٠٤هـ) وصار منذ سنة (٧١٠هـ) مدرسا للتفسير في قبة السلطان الملك المنصور قلاوون في عهد السلطان القاهر الملك الناصر، وتولى منصب الإقراء بجامع الأقمر أحد جوامع العصر الفاطني. وكان فيه خشوع ظاهر، يبكي إذا سمع القرآن الكريم، ويجري دمعه إذا سمع أشعار الغزل والحماسة.

وكان عظيم التقدير للطلبة الأذكياء يقبل عليهم ويعظمهم، ولعل ذلك راجع إلى ذكائه وحدة ذهنه هو، فقد اشتهر بهذه الصفة وأثني عليه الناس، وبهذا الصدد يقول لسان الدين بن الخطيب: "كان أثير الدين أبو حيان نسيج وحده في ثقوب الذهن وصحة الإدراك والاطلاع بعلم العربية والتفسير".

وتصور المصادر أبا حيان رجلاً بخيلاً ويفتخر بالبخل كما يفتخر الناس بالكرم. ولكن تلميذه الصفدي يدافع عنه ويبرر له هذا البخل فيقول بعد أن

ذكر بخله: "قلت: والذي أراه فيه أنه طال عمره وتغرب وورد البلاد ولا شيء معه، وتعب حتى حصل المناصب تعبًا كثيرًا، وكان قد جرب الناس وحلب أشطر الدهر، ومرت به حوادث فاستعمل الحزم، وسمعته غير مرة يقول: "يكفي الفقير في مصر أربعة أفلس، يشتري له بائتة بفلسين، وبفلس زبيبا، وبفلس كوز ماء، ويشتري ثاني يوم ليمونًا بفلس يأكل به الخبز".

وكانت لأبي حيان علاقات بعلماء عصره، ومن أشهر علماء عصره الذين كانت له صلة بهم ابن تيمية الحراني أمام أهل السنة في عصره. وكانت له فيه مدائح كثيرة، ثم انحرف عنه أبو حيان فيما بعد ومات وهو على انحرافه، ولذلك أسباب منها: أنه قال يوما: "كذا قال سيبويه"، فقال ابن تيمية "يكذب سيبويه"، فانحرف عنه وعاد ذامًا له، وجعل ذلك ذنبًا لا يغتفر.

وإذن الله أن يودع أبو حيان أيامه الأخيرة في القاهرة، فتوفي –رحمه الله– بمنزله خارج باب البحر في يوم السبت بعد العصر، الثامن والعشرين من صفر سنة (٧٤٥هـ). ودفن في الغد بمقبرة الصوفية خارج باب النصر، وصلى عيه بالجامع الأموي بدمشق صلاة الغائب في شهر ربيع الآخر. وكان لموت أبي حيان أثر بالغ، فحزن عليه الناس وأصدقاؤه وتلاميذه، فنظموا في رثائه القصائد، ومن أشهر ما قيل فيه قصيدة تلميذه الصفدي التي مطلعها:

مـــات أثيـــر الـــدين شـــيخ الـــورى

فاســـــتعر البـــــارق واســـــتعبرا

وقد ذكر لنا أبو حيان في مقدمة تفسيره "البحر المحيط" العلوم المختلفة التي درسها على شيوخ عصره، وهي علوم: اللغة والنحو والبيان والبديع والحديث وأصول الفقه وعلم الكلام وعلم القراءات: المتواترة وغير

المتواترة، وهذه العلوم يحتاج إليها من يتصدى لتفسير كتاب الله وتفهم مراميه. وقد سرد كذلك الكتب والمصادر التي حفظها أو أخذها عن شيوخه في كل علم من العلوم الآنفة الذكر.

ولم تقتصر ثقافة أبي حيان على علوم اللغة والدين والأدب، بل تعدتها إلى علوم مختلفة، فكان له إطلاع على كتب المتصوفة وكتب الأديان كالتوراة، ولكنه ينفر من كتب الفلسفة والمنطق وعلم الهيئة، وقد صرح بذلك في كتبه.

وكان على إطلاع واسع بلغات أجنبية كالحبشية والفارسية والتركية، وقد ألف في ذلك كتبًا وصل إلينا بعضها وضاع بعضها الآخر. أما شيوخه فكانوا نحو أربعمائة وخمسين شيخًا وأكثر من ألف مجيز. وقد ذكر في إجازته مروياته وشيوخه عندما رد على كتاب الصفدي تلميذه.

وأبو حيان في ثقافته وتحصيله العلوم المختلفة يرى رأي القدماء في ضرورة أخذ الدارس للعلم عن الشيخ دون الصحف والكنانيش.

وكان في أول أمره مالكيًا على مذهب عامة أهل المغرب والأندلس، ثم أصبح ظاهريًا، إذ كان المذهب الظاهري منتشرًا في الأندلس وقتذاك، وكان يقول فيه: "محال أن يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه". ولكنه عندما قدم مصر وجد المذهب الظاهري مهجورًا فصار شافعيًا. وكان فيه نفور عن الاعتزال والفلسفة والتناسخ والتجسيم، وقد استغرب اشتغال أهل مصر بالفلسفة جهارًا دون أن يستنكر ذلك منهم أحد، وكأنه يريد أن يقف المصريون من الفلسفة والمشتغلين بها موقف الأندلسيين بعامة حيث اضطهدوا ونكل بهم. والإيقاع بابن رشد الفيلسوف الأندلسي عندما اعتنى

بمقالات الفلاسفة مشهور.

وكان لابد لثقافة أبي حيان الواسعة العريضة أن تؤتي أكلها وتنتج لنا التصانيف العديدة المتنوعة. وقد ألف صاحبنا كتبًا كثيرة في علوم مختلفة ذكر بعضها في إجازته للصفدي. ومن أشهر آثاره النحوية واللغوية: تقريب المقرب، والتذييل والتكميل في شرح التسهيل، وارتشاف الضرب من لسان العرب. ومن أشهر آثاره الدينية: البحر المحيط في تفسير القرآن العظيم، والنهر الماد في البحر المحيط. وله كتب في لغات مختلفة، منها: الإدراك للسان الأتراك، ومنطق الخرس في لسان الفرس، ونور الغبش في لسان الحبش. وله كتب عدة في القراءات.

كان أبو حيان بصري النزعة في النحو يذهب مذهب سيبويه، وينهج منهج البصريين ويقتفي أثرهم، ويرى آراءهم وأصولهم هي الراجحة في كثير من الأحيان. ويكفي لدلالته على رجحان مذهب أهل البصرة أن يقول: "ذلك لا يكون عند البصريين" أو "هذا هو الراجح". وأن أراد أن يطعن فيمن يخالف البصريين فهو يقول: "هذه نزعة كوفية". والمسائل التي وافق أبو حيان البصريين فيها هي معظم آرائه النحوية كما تقول الدكتورة خديجة الحديثي، ومن أمثلة ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ انتصب "فئتين" على الحال عند البصريين فيما يقول الكوفيون أنه منصوب على إضمار "كان"، أي كنتم "فئتين"، ويجيزون: " ما لك الشاتم"، أي كنت الشاتم. وهذا عند البصريين لا يجوز لأنه عندهم حال، والحال لا يجوز تعريفها.

وإذا وقف صاحبنا موقف المؤيد للمذهب البصري فلأنه يرجح ما يراه الأفضل، ويرى أن البصريين لم يحصر العلم بهم ولم يقتصر عليهم، ويصرح

بأنه ليس متعبدًا بإتباع مذهب جمهور البصريين بل يتبع الدليل. وقد خالف البصريين في الاستشهاد بالقراءات، فهو يستشهد بالقراءات السبع وبما تواتر منها، ووقف أبو حيان من سيبويه موقف الأكبار والإجلال لحد أنه ناصب العداء كل من عاداه وأن كان من أخلص أصدقائه أو من أجل شيوخه. وقصته مع ابن تيمية وما دار بينهما مشهورة وتقدم ذكرها. واعتبر أي سيبويه هو الصحيح من بين المذاهب أو هو المسموع من كلام العرب. ولا غرو في اعتماده على سيبويه واهتمامه به وأخذه بآرائه، فقد كان (الكتاب) دستور النحاة على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم، ولم يسلم نحوي من التأثر به والأخذ عنه.

أما موقفه من الكوفيين فهو مختلف عن موقفه مع البصريين، فهو يخطئ الكوفيين في أكثر المسائل النحوية، ويرد عليهم بأقوال البصريين أو برأي سيبويه مبينًا ترجيحه لرأي البصريين كما مر بنا آنفًا. وقد يرد على أحد شيوخ مدرسة الكوفة ويضعف رأيه في مسألة نحوية من غير أن يورد قولًا للبصريين أو لسيبويه.

ولكن أبا حيان لا يقف من المذهب الكوفي موقف المعارض دائمًا بل يوافقهم في بعض المسائل التي يرى أنهم على حق فيها، فيحتج بالقراءات التي تعد مصدرًا مهمًا من مصادر النحو الكوفي، وهو بذلك يخالف البصريين الذين لا يعتبرونها مادة أساسية من مواد الاحتجاج، وإنما يأخذون منها ما يوافق قواعدهم وأصولهم ولو بالتأويل.

ولم يذهب أبو حيان مذهب الكوفيين في قبولهم جميع القراءات وقياسهم على ما تواتر منها وصح، وقبولهم ما شذ منها وما خالف المجمع عليه. وهو بذلك يقف موقفًا وسطًا بين المدرستين: البصرية والكوفية، فهو

يحتج بما تواتر من القراءات، ويعتمد على القراء السبعة ويدافع عنهم، ويرد على مخطئيهم.

وكان يحتج برأي الكوفيين لقراءة شاذة لأنه يعتبر أن هذا الرأي له وجه من القياس. وقد ذهب مذهب الكوفيين في تجويزهم الفصل بين المضاف والمضاف إليه وبغير الظرف والجار والمجرور.

أن منهج أبي حيان النحوي يستند إلى أصول المذهب البصري في النحو، ولكنه ليس بصريًا دائمًا وفي كل الأحوال، فهو يقف مع البصريين ويأخذ بآرائهم ويتعصب لهم، ويقف تارة في وجههم حاملاً عليهم مفتخرًا بأنه لا يتعبد أقوالهم دائمًا.

وسبب هذا كله اعتماد مذهبه على الاختيار والاستقلال في التفكير، هذا الاستقلال الذي جعله يقف هذه المواقف المختلفة.

وكان صاحبنا يعتمد على السماع في الأخذ برأي أو بمذهب، ولم يختر رأيًا غير مستند إلى السماع، فما لم يجد نصًا عن العرب أو نقلاً صريحًا عنهم، فإنه يحاول أن يستقرئ الكتب القديمة ودواوين الشعر لعله يعثر على ضالته، فإن لم يجد يرجع إلى القياس الثابت الصحيح.

وكان يأخذ بالقياس ولا يلغيه، ويرى أنه لا يجوز أن يقاس على شيء إلا إذا ثبت وروده في لسان العرب، ويأخذ بالقياس عند انعدام السماع، فإن ورد السماع والقياس رجح السماع. وبهذا الصدد تقول الدكتورة خديجة الحديثي: "أبو حيان من هذه الناحية أقرب إلى الظاهرية منه إلى غيرهم، فكما ألغى ابن مضاء القرطبي القياس متابعًا في ذلك فقهاء الظاهرية في إلغائه، ألغي أبو حيان القياس، أو بعبارة أوضح لم يعتد به إلا عند الضرورة أو للأستئناس به كما

يقول، حتى أنه ليدعو النحاة إلى الأخذ به، ويرى أن المختلفين في المسائل النحوية لو عملوا بالسماع وأخذوا به لما اختلفوا ولما نشأت هذه المسائل المعقدة الطويلة التي أفسدت النحو إفسادًا عظيمًا، وأساءت إلى اللغة العربية وأساليبها البيانية المشرقة".

وكل ذلك قد جعله أهلاً لأن يصبح ذا شخصية نحوية مستقلة بعض الشيء استطاعت أن تنفرد ببعض الآراء والاجتهادات والاستدراكات.

عكف أبو حيان على تصنيف تفسيره "البحر المحيط" في أواخر سنة (٧١٠هـ)، وهي أوائل سنة سبع وخمسين من عمره، وذلك عندما عين مدرسًا لعلم التفسير في قبة السلطان الملك المنصور قلاوون وتابع ذلك في دولة ولده الملك الناصر.وهو لم يؤلف تفسيره هذا طمعًا في نوال أو سعيًا وراء شهرة، بل ألفه لوجه الله تعالى وللعلم. وقد قدم لتفسيره بمقدمة ذات فائدة عظيمة زادت على ثلاث عشرة صفحة من القطع الكبير. وفي هذه المقدمة يصرح بأن أهم المعارف علم كتاب الله، وأن غيره من العلوم كالأدوات له.

وذكر ما يحتاج إليه علم التفسير من العلوم العزيزة التي كان يحلم بها قبل ذلك، وقد واتته الفرصة عندما أصبح مدرسًا للتفسير في قبة السلطان الملك المنصور قلاوون وفي دولة ولده الملك الناصر.

ورسم لنا طريقته في التفسير خطوة خطوة، وذكر فيما يحتاج إليه علم التفسير من العلوم والأدوات، وفي كل علم من هذه العلوم سرد المصادر التي اعتمد عليها، والشيوخ الذين أخذ عنهم أو قرأ عليهم هذه العلوم. ثم ذكر الشروط والقواعد التي يجب أن تتوافر في كل من يريد أن يتصدى لتفسير القرآن، والمآخذ التي أخذها على من سبقه من المفسرين. وتحدث عن أسرار

إعجاز القرآن، فذهب إلى أن الإعجاز لم يكن بصرف الله تعالى إياهم عن معارضته ومماثلته. وأثني على الزمخشري صاحب الكشاف وابن عطية صاحب "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، وتحدث عنهما بإيجاز، وذكر السند الذي به قرأ تفسير كل منهما.

وخطته في التفسير هي أن يبتدئ أولاً بالكلام على مفردات الآية التي يفسرها لفظة لفظة، فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب. وإذا كان للكلمة أكثر من معني، ذكر ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضوع تقع فيه فتحمل عليه. ثم يشرع في تفسير الآية ذاكرًا سبب نزولها إذا كان لها سبب، ونسخها ومناسبتها وارتباطها بما قبلها، حاشدًا فيها القراءات شاذها ومستعملها، ذاكرًا توجيه ذلك في علم العربية، ناقلاً أقاويل السلف عن الخلف في فهم معانيها، متكلما عن جليها وخفيها بحيث لا يغادر منهاكلمة، وأن اشتهرت إلا ويتحدث عنها مبديًا ما فيها من غوامض الأعراب ودقائق الآداب من بديع وبيان، مجتهدًا ألا يكرر الكلام في لفظ سبق، ولا في جملة تقدم الكلام عليها ولا في آية فسرت، بل يحيل في كثير منها على الموضع الذي أشار فيه إلى تلك اللفظة أو الجملة أو الآية.

وأن عرض تكرار فبمزيد فائدة، ناقلاً أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآني، محيلًا على الدلائل التي في كتب الفقه أو كتب اللغة والنحو.

وربما يذكر الدليل إذا كان الحكم غريبًا أو خلافًا مشهورًا، بادئًا بمقتضي الدليل وما دل عليه ظاهر اللفظ، منكبًا في الأعراب عن الوجوه التي ينزه القرآن عنها مبينًا أنها مما يجب أن تعدل عنه، وأنه ينبغي أن يحمل على

أحسن أعراب وأحسن تركيب، إذا كلام الله تعالى أفصح الكلام، فلا يجوز فيه جميع ما يجوزه النحاة في شعر السماخ والطرماح وغيرهما من سلوك التقادير البعيدة والتركيب القلقة والمجازات المعقدة.

ثم يختتم الكلام في جملة من الآيات التي فسرها أفرادًا وتركيبًا بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع ملخصًا.

ثم يتبع آخر الآيات بكلام منشور يشرح به مضمون تلك الآيات على ما يختاره من تلك المعاني ملخصًا جملها أحسن تلخيص، وقد ينجر معها ذكر معان لم تقدم في التفسير.

وربما يلم بشيء من كلام الصوفية مما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ، مع تجنبه لكثير من أقاويلهم التي يحملونها الألفاظ، وتركه أقوال المخرجين الألفاظ عن مدلولاتها في اللغة، وهو الذي يسمونه علم التأويل، هذه هي الخطة التي وضعها أبو حيان لنفسه في مقدمة البحر المحيط لتفسير آيات الكتاب المبين. ومما يلفت النظر في تفسير أبي حيان ردوده الكثيرة على الزمخشري صاحب "الكشاف" وابن عطية الأندلسي صاحب "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز".

وقد اعتمد أبو حيان على هذين التفسيرين اعتمادًا كبيرًا، إذ لا تكاد تخلو صفحة من صفحات "البحر المحيط" من قول لأحدهما أو لكليهما.

وقد مدح أبو حيان الزمخشري وأثني عليه حينا، وذمه وفند أقواله في كثير من الأحيان. والكشاف نموذج للتفسير الاعتزالي. ولذلك فمن الطبيعي أن يرد أبو حيان على آراء المعتزلة من خلال ردوده على صاحب الكشاف.

ويمكننا حصر ردود أبي حيان على الزمخشري في هذه الجوانب:

١– التنبيه على آراء المعتزلة في تفسير الزمخشري وتفنيدها وإظهار بطلانها.

٢– يحمل الزمخشري اللفظ ما لا يحتمله، ويقدر تقادير وجملًا محذوفة لم يدل عليها الكلام لأجل نصرة مذهبه، وذلك عادته في غير ما كلام في تفسيره.

٣– وصف كلام الزمخشري بأنه نوع من الخطابة وبسط لكلام غيره من المفسرين المتقدمين.

٤– أخذ على الزمخشري تلحينه القراءات المتواترة، ووصفه بأنه أعجمي ضعيف في النحو، وأن سوء ظنه بالقراء الأئمة غريب.

٥– أخذ عليه تعرضه لمخالفيه من أهل السنة والجماعة بالسب والتشنيع.

٦– أخذ عليه تكلفه في الإعراب وعدم تمكنه من النحو واللغة.

أما موقف أبي حيان من ابن عطية فمغاير لموقفه من الزمخشري، أو قل أنه أخف وطأة من موقفه من الزمخشري. والسبب واضح، فابن عطية في تفسيره أميل إلى أهل السنة منه إلى أي مذهب أخر بشهادة ابن تيمية على ذلك.

ونستطيع أن نقول بأن ردود أبي حيان على ابن عطية تنحصر في هذه الجوانب:

١– توجيه قراءة من القراءات.

٢– أخذ عليه ترجيحه لقراءة متواترة على أخرى مثلها.

٣– أخذ عليه رفضه ورده لقراءة من القراءات المتواترة.

٤- أخذ عليه ما ذكره في تفسيره مما هو غير لائق بمنصب النبوة.

٥- فيما يتعلق بالأعراب والمسائل النحوية.

٦- في تفسير مستند إلى رأي نحوي.

ومما يجدر ذكره أنه لكثرة ردود أبي حيان على الزمخشري وابن عطية وتشديده النكير على الزمخخشري بخاصة ألف يحيى الشاوي الفاسي المغربي كتاب: "المحاكمة بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري". وهذه المحكمة تقريرات قصد منها توضيح الصواب في المناقشات التي جرت بين المفسرين الثلاثة في كتبهم. وفي مكتبة الأزهر نسخة من هذا الكتاب منقولة عن نسخة المؤلف برقم (١٢٥٤) رافعي، وهي برقم (٢٦٦٤١) تفسير، وهي في (٣١٨) ورقة. وفي معهد إحياء المخطوطات بجامعة الدول العربية نسخة أخرى من هذا الكتاب مصورة عن نسخة مكتبة لاله لي برقم (٢٥٩)، وهي مكتوبة سنة (١٠٧٩) هـ.

وكان أبو حيان في أحوال كثيرة يصدر في تفسير القرآن الكريم عن المذهب الظاهري مما جعله يعني بتفسير عبارات القرآن على ما يقتضيه ظاهر اللغة دون تأويل.

من هذا العرض الذي قدمناه نستطيع أن نقول بأن أبا حيان الأندلسي كان شخصية فذة نادرة في عصره استحقت الصدارة في النحو والتفسير.

لسان الدين الخطيب والنقد الأدبي[**]

د. إحسان عباس[*]

لم يمنح النقد الأدبي قسطًا وافرًا من جهده، شأنه في ذلك شأن معاصره وصديقه ابن خلدون، ولكن من السهل أن نعد هذين الرجلين ممثلين لطبيعة الذوق الأدبي –في عصرهما– في الأندلس والمغرب، ذلك الذوق الذي لخصه ابن خلدون حين حدثنا أن شيوخه كانوا يرون "أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب". وهو حكم عجيب، غير أنه لا ينبئ عن ضيق صدر بالفلسفة في ذاتها، فقد كان كثير من أولئك الشيوخ– كما كان لسان الدين وابن خلدون –من طلاب الثقافة الفلسفية، وإنما هو تعبير عن عدم الارتياح إلى وضع الفكر المفلسف في نطاق الشعر (كما فعل كل من المتنبي والمعري)، وذلك شيء لم تنفرد به الأندلس والمغرب، بل كان أنصاره في المشرق هم أصحاب الغلبة في تاريخ النقد الأدبي.

فإذا كان للسان الدين وابن خلدون من آراء في النقد فذلك متصل – في الدرجة الأولى– بثقافتهما الأدبية، وبكون كل منهما مارس نظم الشعر، وفي هذه الناحية الثانية يتفوق ابن الخطيب على صديقه ابن خلدون الذي

[**] العربي– العدد ٣٢٣– أكتوبر ١٩٨٥م.

[*] ناقد فلسطيني راحل.

تعسر عليه قول الشعر بعد فترة من الزمن، وعلل ذلك بأن محفوظه من المتون الفقهية والنحوية وغيرها قد عاق قريحته عن الفيضان، وخدش وجه الملكة الشعرية لديه. فأما ابن الخطيب، فقد استمر يحاول التوفيق بين شتي ملكاته، ومنها الشعر، حتى آخر أيام حياته، ولم يواجه تصعبًا أو تعسرًا في نظمه، رغم أنه كان يحفظ متونًا أكثر مما يحفظ ابن خلدون، مثلما أنه عاني نظم متون في الطب والتاريخ. فالمتون ليست وحدها سببا في إجبال القريحة، ولابد من أن تجتمع إليها أسباب أخرى نفسية واجتماعية واقتصادية.

ولعل مما أسرع في تقصير فترة الإنتاج الشعري لدى ابن خلدون غلبة الميل الفكري لديه على كل ميل آخر، وهذا استدعي منه أن ينتحي في كتابته منحى عقلانيًا خالصًا. وفي دور مبكر كان يؤمن بالفصل التام بين الأسلوب النثري والأسلوب الشعري، "إذ الأساليب الشعرية تناسبها اللوذعية، وخلط الجد بالهزل، والأطناب في الأوصاف، وضرب الأمثال، وكثرة التشبيهات والاستعارات، حيث لا تدعو إلى ذلك ضرورة في الخطاب" فأخذت الملكة التصويرية لديه بالضمور. أما لسان الدين، فظل يمنح العنصر الجمالي التصويري في نثره اهتمامًا خاصًا غير عابئ بموقف صديقه من الفصل العامد بين الشعر والنثر، فبقي على مستوى الإنشاء النثري شاعرًا مصورًا، وبقيت ملكة التصوير لديه تتمتع بقوتها على مر الزمن، وكان مما يرفد هذا الجو الشعري من حوله عوامل أخرى لم تتوافر لابن خلدون، منها شمولية إطلاعه على التيار الشعري في عصره، واهتمام بتدوين تراجم معاصريه وأشعارهم، هذا بالإضافة إلى إطلاع على الشعر العربي في كل عصوره. وكان بحكم منصبه السياسي ممدحًا يستقطب كثيرًا من قصائد معاصريه، كما كان يرى أنه مسئول عن تربية الذوق الفني أو على الأقل يميل إلى إشباع رغبة ذاتية لديه في

انتخاب الأشعار والموشحات ووضعها في مجموعات خاصة (مثل كتابه جيش التوشيح)، فكل هذه العوامل شحذت لديه الجانب النقدي، فظل اتجاهه "شعريًا" –أن صح القول– حين أصبح اتجاه صاحبه "فكريًا".

ويلتقي ابن الخطيب مع نقاد سابقين –وخصوصًا فريق النقاد المتفلسفين –في قوله أن الشعر بالمعني المطلق ظاهرة إنسانية لا يمكن أن تحصر ضمن شكل محدد، فالشعر بهذا المعني لا يوضع في إسار وزن معين أو قافية مرسومة، لأنه أوسع حدودًا من ذلك، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يكون وقفًا على أمة دون أمة، أو على صنف من البشر دون غيره وهو إذن يشمل "الصور الممثلة، واللعب المخيلة، وما تأسس على المحاكاة والتخييل مبناه، ككتاب كليلة ودمنة وما معناه". فما هذا الذي يعنيه لسان الدين بالصور الممثلة واللعب المخيلة؟ أن كانت الصور لديه تعني الرسم، واللعب تعني التماثيل والدمى، فالشعر في نظره هو جماع الفنون، وأن كانت تلك الصور واللعب تعني ضروب "النشاط المسرحي" في عصره، وكان أقوى ما يمثلها "خيال الظل" أو "لعبة اليهودي" حسب تعبير الأندلسيين، فالشعر يتناول كل تصوير تعبيري قائم على المحاكاة والتخييل.

ولكن هناك مفهومًا للشعر أقل شمولاً. لأنه يقتصر على ما عناه العرب أنفسهم حين استعملوا لفظة "شعر" وعنوا بها " كل كلام يحضره الوزن والقافية، ويقوم الروي بجناحه مقام الخافية" فكيف تكون أحكامنا على هذا اللون المحدد من الشعر؟ هب أن متذوقًا أراد أن يختار لابنه أو لبعض الناس عددًا من القصائد، فما المعايير التي يعتمد عليها في الاختيار؟ هنا يطالعنا لسان الدين بفهم دقيق لطبيعة الشعر الذي يحكمه الوزن والقافية، فهناك شعر مغرق في الشعرية "وهو ما جنح إلى التخييل والتشبيه، وأحل الاستعارة

بالمحل النبيه". وهناك شعر مستحسن مرضي قعد عن التشبث بالاستعارة والتخييل، وإنما عدته العرب شعرًا لخصائص أخرى فيه تميزه، ولا يجوز أن ننزع عنه اسم الشعر، وأن وقع في المنزلة الثانية. وتمييزًا لهذين النوعين، أحدهما عن الآخر يسمى لسان الدين النوع الأول باسم "السحر" ويسمى النوع الثاني باسم "الشعر" (وليته اختار لفظة أخرى ليبقي لفظة "شعر" شاملة للنوعين معًا).

أن اختيار لفظة "السحر" عودة إلى أصول بدائية في تصوير أثر الكلمة التي تستطيع أن تحدث تأثيرًا بالغًا (أنو تغييرًا للواقع)، ثم ارتبط ذلك مع الزمن بالتعبير عن الإعجاب الغامر الذي لا يجد له المتلقي تعليلًا إزاء نص من النصوص، وعن الحيرة التي تتملك ذلك المتلقي وهو يحس بنشوة طاغية أثارها ذلك الإعجاب، وفي مرحلة فنية متأخرة تقترن لفظة "السحر" بالكشف عن "الرائع" أو "الرفيع" أو "المعجز" في الآداب ولفنون.ولعل الكثيرين يذكرون موقف الوليد بن المغيرة حين سمع آيات من القرآن الكريم لأول مرة، فقد رفض أولًا أن يطلق على ما سمعه اسم "السحر" فلما لم يجد لفظة أخرى تؤدي ما يحس به قال: والله أن لقوله لحلاوة وأن أصله لعذق (ويروى لغدق) وأن فرعه لجناة.. وأن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر جاء بقول هو "سحر".

وفي استعمال كلمة "السحر" كان لسان الدين يستلهم أيضًا الموروث النقدي الأندلسي، حسبما بلغ إليه من تطور في القرن السابع، وخصوصًا لدى ابن سعيد المغربي الذي رأي أن ما يستحق اسم الشعر أحد نوعين: وهما المرقص والمطرب. والأول يتمتع بالجدة والغرابة، فلا يعتمد على محض التشبيه بل على "غريب التشبيه" أو غريب الصور، ويبلغ من تأثيره في المتلقي

أن يعبر عن إعجابه بالرقص.والثاني أثل تأثيرًا من الأول، فهو يبعث في النفس هزة ارتياح ونشوة طرب، ولذلك فهو "مطرب" لكنه لا يخرج المتلقي إلى حال الرقص، والتفاوت بين النوعين هو التفاوت في درجة الغوص على التشبيه والتمثيل، فأما ما يجيء بعد هذين النوعين، فقد يكون في رأي ابن سعيد من المقبول أو المسموع أو المتروك.

ولا يتركنا لسان الدين نتأول السبب الذي من أجله اختار مصطلح "السحر" للدلالة على تميز أحد نوعي الشعر لديه، بل هو يبسط ذلك شارحًا. فالسحر حين يسلط على شيء ما ينقل هيئته من حال إلى حال، وكذلك الشعر، فتحت تأثيره تتم تحولات ما كانت لتتحقق دونه: فهو الذي يشجع ويدعو إلى الأقدام، ويسهر وينوم، ويحبب السخاء إلى النفس، ويضحك حتى يلهي، "وهذه قوى سحرية ومعان بالإضافة إلى السحر حرية، فمن الواجب أن يسمى الصنف من الشعر الذي يخلب النفوس ويستفزها، ويثني الأعطاف ويهزها باسم السحر"، ويرى لسان الدين أن قوة الشعر في التأثير وفي إحداث التحولات تزداد إذا اقترن بالألحان، وهذا ليس نابعًا وحسب من شيوع التغني بالموشحات الأندلسية التي لم تكن تصلح إلا للغناء، بل هو صادر عن تجربة أثر الغناء بعامة في تعميق تأثير الشعر في النفوس.

هل هذا المعيار الذي وضعه لسان الدين قابل للتطبيق على المستوى النظري؟ كل شيء قد يبدو سهلًا، ولكن كيف يمكن للناقد أن يفرز ما هو سحر مما هو شعر؟ لقد أحس لسان الدين بصعوبة ذلك. وعبر عما أحسه بنوع من الاعتذار حين ذكر أن الفرق بين هذين النمطين "كثير الدقة واللطافة"، وأحال الأمر على قاعدة النسبية، وأن ما يراه أحد سحرًا لا يجده الآخر كذلك، وأضاف يقول: "أن أشخاص المحبوبات تقع بينها وبين النفوس

التي تكلف بها وتتعلق بسببها علاقات لا تدرك، ومناسبات يعجز وعي المدارك عنها فتترك، وكثيرًا ما عشق الغفل من الجمال لهذا السبب، وأخلاق نفوس البشر مثار العجب".

ولا يلبث لسان الدين- بعد هذا الاعتذار- أن يأخذ نفسه بتطبيق المعيار الذي وضعه، فهو يميز السحر من الشعر في سته من الفنون وهي المدح (والفخر لاحق به)،و الرثاء والنسيب والوصف (على تشعب مذاهبه)، والملح والحكم والجد. وسرعان ما أخذت الصعوبات تواجهه متلاحقة، فقد شاء أن يفتتح باب المدح بمختارات في مدح الرسول، وفتش وأطال التفتيش فلم يجد قصيدة واحدة أو قطعة من قصيدة يمكن أن تدرج تحت عنوان السحر، فلما أعياه الأمر اضطر إلى البحث عن العلة، فاهتدي إلى أن امتناع وجود "قسم السحر" في مدح الرسول، إنما يعود إلى أن الشعر يعتمد المحاكاة والتخييل، ووقار جناب الرسول صلى الله عليه وسلم يبهر النفس، ويمنع من استرسالها في ذلك، ولذلك كان أقصى ما يستطيعه الشاعر في ذلك المجال أن يعتمد على نصاعة اللفظ وقصد الحق وقرب المعنى وإيثار الجد. ولما انتقل إلى باب الفخر لم يجرؤ على أن يقسمه في صنفين: سحر وشعر، وترك تمييز ذلك للقارئ، لأنه أحس- بزعمه أن السحر والشعر يتنازعان هذا الباب بحيث لا يأمن من يميز بينهما من خلط أحدهما بالآخر.

ابن باجه الفليسوف الأندلسي**

قدري حافظ طوقان*

ابن باجة من الفلاسفة العرب الأعلام الذين ظهروا في الأندلس في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد، واشتهر بالطب والرياضيات والفلك، وكان محل تقدير العلماء والمؤرخين، فقد اعترف بفضله ابن القفطي، وابن أبي أصيبعة، وابن خلدون، والمقري، ولسان الدين الخطيب، وغيرهم وقالوا عنه إنه علامة وقته ومن أكابر فلاسفة الإسلام. ولقد بلغ الغاية في بعد الصيت والشهرة والذكر الواسع العريض ونال إعجاب ابن رشد وابن طفيل. جاء في كتاب (حي بن يقظان) عند التعرض لأهل النظر (أن ابن باجة كان ثاقب الذهن صحيح النظر صادق الرؤية...).

وضع ابن باجة كثيرًا من المؤلفات، في أرسطو وشروحه، والمنطق، والطب، والهندسة، والنبات والأدوية المفردة، والفلك، والنفس،والعقل. ولسوء الحظ ضاع معظمها وبقي منها رسائل وصفحات في ترجمات لاتينية وعبرية. وله كتاب عثر عليه أخيرًا في مكتبة برلين قال عنه د.عمر فروخ: "غير أن الدهر لم يشأن أن يقسو على ابن باجة كثيرًا فإنه قد حفظ لنا مخطوطة عظيمة الفائدة في مكتبة برلين العامة تقع في ٤٤٠ صفحة".

وهذا المخطوط قد غير أحكام العلماء على ابن باجة، وأزال الغموض

** العربي– العدد السادس عشر– مارس ١٩٦٠.

*كاتب فلسطيني راحل

عن بعض النقاط وألقى نورًا على تراثه وآرائه.

وابن باجة فيلسوف، بني فلسفته على الرياضيات والطبيعيات، وهذا ما أراد الفيلسوف الألماني كانط أن يسير عليه في فلسفته. ومن هنا يرى بعض الباحثين أن (ابن باجة خلع عن مجموع الفلسفة الإسلامية سيطرة الجدل، ثم خلع عليه لباس العلم الصحيح وسيره في طريق جديد...). وكذلك فصل الدين والفلسفة في البحث، فهو بذلك أول فيلسوف في العصور الوسطي نحا هذا النحو. ويقول د.فروخ: (... لما وقف ابن باجة– كما وقف من سبقه من فلاسفة الإسلام– أمام مشكلة الخلاف بين الشريعة والحكمة، نتجت له عبقريته أمرًا مهمًا جدًا. ذلك بأنه ليس من الضروري أن يهتم بأمر لم يستطع أحد من قبله أن يبحث فيه. من أجل ذلك لم يتعرض ابن باجة للدين بل انصرف بكليته إلى الناحية العقلية...).

وهو يرى في بحثه عن الحقيقة والعدل سعادة اجتمعت حول نفسه، وأن الحياة السعيد يمكن نيلها بالأفعال الصادرة عن الرؤية، (وتنمية القوى العقلية تنمية خالصة من القيود...). وقد بين هذا كله وأشار إلى الأفعال الإنسانية وأنواعها في كتابه (تدبير المتوحد).

وفي رأي ابن باجة أن الفرد لكي يعيش كما ينبغي أن يعيش الإنسان على نور العقل وهديه، عليه أن يعتزل المجتمع في بعض الأحايين.وهو يطالب الإنسان بأن يتولى تعليم نفسه بنفسه. وأنه يستطيع أن ينتفع بمحاسن الحياة الاجتماعية تاركًا مساوئها، وأن على الحكماء أن يؤلفوا من أنفسهم جماعات صغيرة أو كبيرة، وعليهم أن يبتعدوا عن ملذات العامة ونزعاتهم ويحاولوا أن يعيشوا على الفطرة ويظهر أن الآراء التي توصل إليها في اعتزال الناس والمجتمع قد أتت من المحيط والأوضاع التي نشأ فيها.

والذي يظهر لنا من حياته أنها لم تكن هادئة سعيدة، بل كانت حافلة بالفاقة والقلق والاضطراب، فلم يجد في عصره أنيسا يشاطره آراءه (وكان يرى نفسه أنه في وحدة عقلية...) سودت الحياة في نظره وجعلته يتمنى الموت ليحصل على الراحة الأخيرة.

ويعالج في كتابه هذا أعمال الإنسان ويفصل أنواعها للتمييز بينها، وأنها إنما تتمايز بالغرض الذي تنتهي إليه. وهو يري أن بين الإنسان والحيوان رابطة كالتي بين الحيوان والنبات والتي بين النبات والجماد. والأعمال البشرية المحضة والخاصة بالإنسان– دون سواه– هي الناشئة عن الإرادة المطلقة: أي عن إرادة صادرة عن التفكير، لا عن غريزة ثابتة في البشر ثبوتها في الحيوان، فلو أن رجلاً كسر حجرًا لأنه جرح به، فإنه يعمل عملاً حيوانيًا، وأما من يكسر حجرًا لئلا يجرح به سواه، فعمله هذا يعد عملًا إنسانيًا. ويمكن القول أن ابن باجة يرى أن أعمال البشر مركبة على عناصر حيوانية وإنسانية، وأن على (المتوحد) أن يجعل العناصر الإنسانية تتغلب على أعماله، وأن يجعل للتفكير والعقل التأثير الأول في حركاته ونواحي نشاطه. هذا إذا أراد ذلك (الإنسان المتوحد) أن يسمو بفضائله ويتميز بها. أما الذي يحارب فكرة وينقاد إلى شهواته، فهو ذلك الرجل الذي يفضله الحيوان السائر في طريق الضلال والظلام.

ولابن باجة رسالة الوداع، فقد كتبها قبيل رحلة طويلة وبعث بها إلى أحد أصدقائه من تلاميذه ليكون على بينة من آرائه فيما يتعلق بمسائل مهمة. وفي هذه الرسالة تتجلى رغبة (ابن باجة) في الإشادة بمقام العلم والفلسفة، ذلك لأنهما جديران بإرشاد الإنسان إلى الإحاطة الطبيعية وبمعرفة ذاته. وقد ضمن هذه الرسالة بعض آرائه الفلسفية، ومنها أن المحرك الأول في الإنسان

هو أصل الفكر وأن الغاية الحقيقية من وجود الإنسان ومن العلم هي القرب من الله والاتصال بالعقل الفعال الذي يفيض منه .و(ابن باجة) في الإشادة بمقام العلم والفلسفة، ذلك لأنهما جديران بإرشاد الإنسان إلى الإحاطة الطبيعية وبمعرفة ذاته. وقد ضمن هذه الرسالة بعض آرائه الفلسفية، ومنها أن المحرك الأول في الإنسان هو أصل الفكر وأن الغاية الحقيقية من وجود الإنسان ومن العلم هي القرب من الله والاتصال بالعقل الفعال الذي يفيض منه. و (ابن باجة) ينتقد الغزالي. ومن رأيه أنه خدع نفسه وخدع الناس حين قال في كتاب (المنقذ) (أنه بالخلوة ينكشف للإنسان العالم العقلي، ويرى الأمور الإلهية فيلتذ للذة كبيرة). وكذلك نقد ابن سيناء فيما ذهب إليه من أن انكشاف الأمور الإلهية والاتصال بالملأ الأعلى يحدث التذاذا عظيمًا ويقول أن هذا الالتذاذ هو للقوة الخيالية لا غير. وعلى كل حال يمكن الخروج بالقول أن (ابن باجة) أعطى الفلسفة العربية في الأندلس حركة ضد الميول الصوفية، وأن العلم النظري وحده قادر على الوصول بالإنسان إلى فهم ذاته وفهم العقل الفعال.

وقد تأثر ابن رشد بهذه الآراء، والآراء التي تتعلق باتحاد النفوس وكذلك كان لها أثر كبير عند الفرق المسيحية وفلاسفة الكنيسة مما جعل القديس توماس وألبرت الأكبر يؤلفان رسائل خاصة لأبطالها.

وبذلك يكون ابن باجة (قد مهد السبيل الجيد الصحيح في الشرق والغرب معًا...) ولعل هذا من أهم العوامل التي جعلت بعض معاصريه يحملون عليه، فقالوا إنه: "قذى في عين الدين وعذاب لأهل الهدى". وجاء في كتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان (وقد اشتهر ابن باجة بين أهل عصره بهوسه وجهوده واشتغاله بسفاسف الأمور، ولم يشتغل بغير الرياضيات وعلم

النجوم، واحتقر كتاب الله الحكيم وأعرض عنه. وكان يقول أن الدهر في تغير مستمر وأن لا شيء يدوم على حال، وأن الإنسان كبعض النبات والحيوان، وأن الموت نهاية كل شيء...".

هذه الأقوال التي نسبت إلى (ابن باجة) دفعت بعض منافسيه ممن أعماهم الحسد والجهل إلى أن يتهموهع بالزندقة وأن يقتلوه بالسم في سنة ١١٣٨م.

ولابن باجة أثر كبير في الغرب المسيحي، وفضل عظيم في ازدهار الفلسفة في المغرب. وقد تتلمذ عليه جماعات لمع أفرادها في ميادين البحث والإنتاج، فتأثر به وبنتاجه علماء اشتغلوا في الفلك والرياضيات والطب. فكان له ملاحظات قيمة على نظام بطليموس في الفلك، وقد انتقده وأبان مواضع الضعف فيه. وكان لهذه الملاحظات وذلك النقد أثر على جابر ابن الأفلح ودراساته في الفلك مما دفعه إلى إصلاح المجسطي في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد. ويؤيد مؤرخ العلم (سارطو) الأمريكي هذا كله، ويضيف إليه بأن البطروجي تأثر كذلك بآراء ابن باجة في الفلك حتى قاده ذلك إلى القول بالحركة اللوبية. وامتد أثر ابن باجة إلى الطب فاستشهد به ابن البيطار في كتاب (الأدوية المفردة) في مواضع كثيرة، واعتمد على رسالته في الطب.

وفوق ذلك كان أثر ابن باجة واضحًا في الطريق التي سار عليها ابن طفيل في كتابه (حي بن يقظان) كما كان أثره بالغًا في ابن رشد واتجاهه العقلي.

(..ويرى مونك أن نظرية ابن رشد في العقل والخلود التي أثار بها أوربا

النصرانية، إنما هي نظرية ابن باجة...)

وعلى الرغم من قلة المصادر التي تتناول آثاره أو حياته فإن الغربيين قد عرفوا فضله وأدركوا ما تنطوي عليه فلسفته من الرسائل القليلة التي اطلعوا عليها، قال رينان: "ولا ريب أن ابن باجة من أعاظم الذين عملوا على ازدهار عصرهم ومن الذين حرصوا أن تبلغ الفلسفة العقلية فيه المستوى الذي بلغته..".

والعلامة ديوبور يرى أن آراء ابن باجة في الطبيعة وفيما بعدها متفقة في جملتها مع ما ذهب إليه المعلم الثاني وأن (الشيء) الوحيد الذي له بعض الشأن هو طريقته في بيان تكامل العقل الإنساني ومبلغ الإنسان في العلم.

وقبل أن نختتم بحثنا في (ابن باجة) لابد لنا من القول أنه شاعر رقيق حوى شعره من دقة المعاني وسلامة المباني ما يدل على ذوق أدبي وشاعرية قوية، وإحساس مرهف.

فمن شعره:

قـــد أودعـــوا القلـــب لمـــا ودَّعـــوا حُرقًـــا

فظـل فـي الليـل مثـل الـنجم حيرانًـا

راودتـــــه يســـــتعير الصـــــبر بعـــــدهم

فقــال أنــي اســتعرت اليــوم نيرانًــا

وله:

ضـــربوا القبـــاب علـــى أقـــاحي روضـــة

خطـر النسـيم بهـا ففـاح عبيـر

وتركـــت قلبـــي ســـار بـــين حمـــولهم

دامـي الكـلام يسـوق تلـك العيـرا

هـــلا ســـألت أميـــرهم هـــل عنـــدهم

عــان يفـك وهــل سـألت غيــورًا

لا والـــــذي جعــــل الغصــــون معاطفًـــا

لهـــم وصـــاغ الأقحـــوان ثغـــورا

مــــا مرّبـــي ريـــح الصـــبا مـــن بعـــدهم

إلا شـــهقت لـــه فعـــاد معيـــرًا

نساء عالمات في الأندلس**

سلمى الحفار الكزبري

أن ما شاع عن دور المرآة في ذلك المجتمع إبان تلك الحقبة الطويلة من الزمن، وما ذكرته كتب التاريخ قد ركز على موهبتها الشعرية، وعلى ذكائها وظرفها بصورة خاصة. وفي هذه السطور أود التحدث عن النساء العالمات اللواتي أتت على ذكرهن وأثرهن الحميد في الأندلس أمهات كتب الأدب والتاريخ العربية، وبعض الكتب الصادرة في إسبانيا في هذا القرن العشرين بأقلام باحثين ومؤرخين مرموقين.

جميع المصادر التي لدينا تؤكد أنه كان للمرآة العربية الأندلسية دور مميز في ازدهار الثقافة وتطور المجتمع، ولا ريب في أن ظهور مواهب تلك النساء، من شاعرات ومدرسات وعالمات يعود لسببين رئيسيين أولهما البيئة الأندلسية المتطورة والسمحة التي وجدن فيها، وثانيهما الاستقرار السياسي والنهضة التي شملت حواضر الأندلس الكبيرة كقرطبة وإشبيلية وبلنسية وغرناطة وسرقسطة ورندة وحتى مختلف أرجاء الأندلس منذ القرن الثامن الميلادي، وحتى القرن الثالث عشر منه. تلك البحبوحة العامة في العيش، وذلك الاستقرار الأمني الطويل المدى، إلى جانب التطور الاجتماعي المذهل الذي حافظ على الديانة الإسلامية متمسكًا بجوهرها من غير أي تزمت وأي غلو كان السبب الذي حفز الناس إلى الأخذ بالعلم، والاهتمام بنشره، والعناية

** العربي– العدد٤٨٤– مارس ١٩٩٩م.

الفائقة بالفنون على أنواعها، وإنشاء المدارس والمكتبات العامة والخاصة واستقطاب العلماء والشعراء والفنانين من الشرق، أي من البلاد العربية كالحجاز والعراق وبلاد الشام. والدليل على ما أقول بما يخص النساء العالمات هو أن علية القوم في الأندلس استقدموا من الشرق بعض النساء العالمات لكي يدرسن أبناءهم وبناتهم اللغة والفقه والأدب العروض.

من تلك العالمات ذكرت لنا كتب التاريخ العربي الأندلسي (وهي كثيرة ومعروفة ومتوافرة كنفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب والأغاني للأصفهاني، والعقد الفريد لأحمد بن محمد بن عبدربه وغيرها كثير) اسم عالمة مرموقة حجازية المنبت اسمها "عابدة المدنية" (نسبة إلى المدينة المنورة) التي درست الفقه والبلاغة في قرطبة، وعاشت فيها قادمة من الحجاز، وقد اشتهرت بالفصاحة والفقه إذ كانت تروي عن أنس بن مالك الصحابي، كانت عابدة من الجواري المدنيات اللواتي كان الأمراء والوجهاء يحضرونهن من الحجاز بعد تأدية فريضة الحج، ولقد حظين في الأندلس بمكانة سامية حسدتهن عليها الحرائر لتفوقهن في العلم والفقه والحديث والأدب. ولقد تزوج "عابدة" بشر بن حبيب الأندلسي وزرق منها كل أولاده. أما الإماء اللواتي كن ينجبن للأمراء ولدًا فكن يصبحن زوجات لهم مكرمات.

كما اشتهرت في قرطبة العالمة "إشراق" التي دعيت إلى الأندلس وأقامت فيها وعلمت أبناءها وبناتها محفوفة بكل تكريم، و"إشراق" عرفت برواية الشعر وتفسيره فقال عنها المؤرخ سليمان بن نجاح: "أخذت عنها علم العروض، وقرأت عليها "النوادر" لأبي على القالي، و"الكامل" للمبرد".

ولا بد من ذكر امرأتين نبغتا بالعزف على العود وبالظرف والأدب هما "فضل" و "قمر" فلقد حرص أمراء الأندلس الأمويون وخلفاؤها ووجهاؤها

على رقي مجتمعهم وتقدم العلوم والفنون فيه دون إقصاء المرآة مما ثبت أركان ذلك الرقي، وذلك التقدم، لأن أي مجتمع في العالم، وعبر العصور لا يمكن له أن يحقق الازدهار الشامل دون مشاركة نسائه وإطلاق حرية العمل لهن حينما أثبتن قدراتهن في الإسهام والعطاء.

أن من واجب الباحث في هذا الموضوع أن يشير إلى واقع تاريخي مهم هو أن الفاتحين الأول للأندلس الذين استوطنوا فيها من عرب وبرابرة كانوا رجالًا فقط، بلا نساء في بداية الفتح وأنهم اختلطوا بالعرق الإسباني بسرعة لأن الإسلام يجيز للرجل تعدد الزوجات، وعندما استقر الحكم العربي في الأندلس أخذ الأمراء نساءً عربيات، وإماءً من الشرق حبًا منهم بتقليد ما كانت تفاخر به قصور الخلفاء العباسيين في بغداد، حيث كان للإماء فيها دور كبير في تنشيط الفنون وانتشار الأدب والشعر. يقول الأديب والمؤرخ الأستاذ أحمد أمين في كتابه "ظهر الإسلام": "أن الخطة التي وضعها حكام الأندلس الأمويون كانت تهدف إلى نقل ما كانت تفاخر به قصور الخلفاء في الشرق، ولا سيما العباسيين حيث كان للإماء فيها دور كبير في ازدهار الفنون والعلوم" فهنالك في بغداد، كان يشترط في الإماء اللواتي يشترونهن التمكن من اللغة وإجادة العزف والغناء، وقول الشعر إلى جانب الجمال، ولكن الفارق كان كبيرً بين معاملة العباسيين للإماء اللواتي كن يتدربن في بغداد ثقافيًا وفنيًا خاصًا، ويصبحن بعد ذلك محظيات أو وصيفات، أو زوجات للأمراء والنبلاء، وبين الإسبانيات اللواتي تزوجهن أمراء الأندلس ووجهاؤها فأسلمن وتعلمن اللغة العربية التي عمت شبه الجزيرة الأيبيرية على مدى بضعة قرون، وأنجبن جيلًا عربيًا أندلسيًا مطعمًا بالعرق الإسباني جمع بين حرارة الشرق وجاذبيته وجمال الغرب ورقته.

عندما نعود إلى الأجيال اللاحقة من النساء الأندلسيات اللواتي جئن خليطًا لعرقين قرنًا في إثر قرن، ذا صفات متميزة من الجمال الخلقي والخلقي نقف على نبوغ عدد كبير من النساء فنذكر "لبنة" العالمة في اللغة وفي الرياضيات التي احتضنها قصر الحكم الثاني يوم كانت جامعة قرطبة في عهده أعظم جامعة عربية لتدريس الرياضيات والفلسفة والطب والفلك والكيمياء والفقه والأدب، وأول جامعة علمية في القارة الأوربية كلها. كما نبغت آنذاك الشاعرة القصصية "رضية" التي أطلق عليها معاصروها لقب: "الكوكب الساطع"، ولقد قامت برحلة إلى الشرق العربي بعد وفاة الحكم الثاني، ولقيت في عواصمه استقبالًا عظيمًا وتكريمًا بالغًا. أما "عائشة بنت أحمد القرطبية" فلقد أحاطها الخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر بكل احترام واعترف بسمو مكانتها العلمية إذ كانت تملك مكتبة خاصة بها مؤلفة من أندر المخطوطات التي نقلت جزءًا كبيرًا منها بخطها. ومن اللواتي ذكرهن لنا التاريخ بالتمجيد "صفية بنت عبد الله" الكاتبة التي تفرغت لنقل المخطوطات، اشتهرت ببراعتها في جودة الخط وجماله، وفي الإنشاء.

وعندما انتقلت الخلافة من الحكم الثاني إلى ابنه هشام تسلمت أمانة السر في بلاطه امرأة تدعي "نظام" وهي، التي كانت حسبما ذكرت لنا المصادر العربية والإسبانية، متفوقة في تدوين الوثائق السياسية والإدارية، بخط جميل، على أسس نهج علمي برعت به، فحافظت على مركزها المرموق في البلاط حيث أحيطت بما تستحق من تقدير وإكرام.

وإذا انتقلنا من العاصمة "قرطبة" إلى إشبيلية نتوقف عند مدرسات وعالمات باللغة والأدب، والفن الموسيقي، نابغات، أسهمن في نشر التعليم فنذكر منهن: "مريم بنت يعقوب الأنصاري" التي كانت تطوف على بيوت إشبيلية

لتعليم بناتها وأبنائها الصرف والنحو والأدب في خلافة المهدي صاحب إشبيلية في القرن الحادي عشر.

أن أخبار أمثال هذه النساء العالمات في الأندلس الواردة في كتب التاريخ كثيرة جدًا ومبعثرة لم يسبق أن ألقيت عليها الأضواء، كما نتمنى، لجمعها في دراسة حديثة تطلع عليها أجيالنا الصاعدة وتستفيد منها. لقد ذكر "المقري" في "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب" عددًا كبيرًا من النساء اللواتي تفرغن للعلم والتعليم ونسخ المخطوطات وأكثر من ثلاثين شاعرة مجيدة، وذكر الأمير شكيب أرسلان في كتابه: "الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية" الدور المهم الذي قامت به المرآة في نشر الثقافة وتطوير المجتمع والسمو بالفن، ونشر المستعرب الدكتور "خوان فيزنيه **Juan Vernet**" أستاذ اللغة والأدب والتاريخ العربي في جامعة برشلونة كتابًا باللغة الإسبانية عنوانه: "المسلمون الإسبان" قبل ثلاثة عقود تقريبًا، وكتابًا أخر لا يقل أهمية عنه بعنوان: "بم تدين الثقافة لعرب إسبانية" ترجم إلى اللغة الفرنسية عام ١٩٨٥. والدكتور فيرنيه عالم ومؤرخ وكاتب معاصر مرموق من منطقة كاتالونيا متفرغ لإلقاء الأضواء علي الحضارة العربية في الأندلس منذ مطلع شبابه، ومرجع موثوق للبحث عنها في مؤلفاته المنشورة المتعددة. ولا يختلف اثنان من الكتاب والباحثين العرب والغربيين على أن الفكر العربي قد وجد في الأندلس أرضًا خصبة، وبيئة مشجعة على النمو والازدهار، وأن المرآة فيها قد وجدت منطلقًا لمواهبها، وحافزًا على استكمال شخصيتها لأنها تتأثر كثيرًا بالمحيط الذي تنشأ فيه وتعمل فترتقي فكريًا وثقافيًا وفنيًا عندما يرتقي، كما تنعزل وتطمس مواهبها، وتلجم قدراتها، عندما يتخلف عن الركب العلمي والحضاري.

ولادة بنت المستكفي.. غادة قرطبة[**]

د. بنت الشاطئ[*]

استقبلتها الدنيا في بيت خامل من بيوت الأمويين بقرطبة والشمس توشك أن تغيب، والسحب تتجمع في الأفق، منذرة بإعصار مارد، فلم يكد أحد يلتفت إلى أن أميرة أموية جديدة، من سلالة عبد الرحمن الناصر، قد ولدت لمحمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الناصر، وضاع صراخها– ساعة ولدت– وسط ضجيج المعارك التي كان يخوضها مسلمو الأندلس، من علويين وبربر وأمويين، ويرقبها عن كثب أعداء مترصدون، طال انتظارهم لذلك اليوم الذي يتمزق فيه ملك الدولة الأموية التي أرسى قواعدها بالأندلس "عبد الرحمن الداخل"، وأقام "الناصر" صرحها شامخا مهيبا، يرد بهيبته وشموخه بصر العدو كليلًا محسورًا.

حتى أهل الوليدة أنفسهم، لم يروا فيها أكثر من طفلة سيئة الحظ، تأخر بها مولدها فلم تشهد عصر عزة أجدادها ومجد أسرتها، فجاءت بها الأيام ولم يبق من ذلك الملك الشامخ العريض غير ذكريات وعبر، فكأنها وكأنهم أحلام.

وتفتح صباها وما من أحد يرجوها لخير أو ينتظر لها غدًا، ومن أين يأتيها الخير وهي تنزع بميراث الأبوة إلى والد لم تعرف له أموية الأندلس

[**] العربي– العدد ١٦– مارس ١٩٦٠.

[*] كاتبة وأستاذة جامعية مصرية راحلة .

مثيلاً في شناعة جهله وبشاعة فجوره وضعة نفسه وسقم سره وعلانيته! وأي غد يرجى لمثلها وقد خسف "بنو حمود" بأمراء بيتها، فلم ينج من محنة النفي أو التشرد أو الاعتقال والقتل، غير أبيها الذي أعفي من الاضطهاد احتقار لأمره وهوانا به على الاعتقال؟

وانزوت هناك.. في البيت الفقير الخامل المنبوذ تجتر ذكريات المجد الذي راح، وتقرأ من تاريخ أجدادها ما طواه الدهر، وتصغي مبهورة إلى أصداء شجية، من تلك القصائد والأغاني التي رجعتها قيثارة الزمن لبني أمية بالأندلس، حين كانت الدنيا لهم، وتفر من تعاسة دنياها إلى حيث تخلو بالأطفال الحزينة التي ما زالت تحوم حول الربوع المهجورة، وتطوف بأطلال المجد الغابر.

غير أن هذه الخلوة لم تكن لتسلم لها كلما أرادت فلطالما أزعجتها عنها صيحات الثائرين وصراخ المغلوبين من أهلها، فتشدها من مكانها إلى دوامة الأحداث حتى إذا سكنت الضجة حينا، أوت الصبية إلى مخدعها ممزقة الأعصاب مصدعة الكيان، تحاول بكل ما بقي لها من جهد أن تلم رؤاها وتخلو إلى كتبها وأطيافها، فلا تكاد تفعل، حتى تعود الضجة من جديد، فتجذبها إلى المسرح الدامي. حتى تشابه الأمر عليها فما عادت تدري أفي يقظة هي أم تلك رؤيا منام. وفي إحدى المرات، كان المشهد أبشع من أن تحتمله: لقد رأت غلمان قصر الخلافة يخرجون بطشت فيه رءوس ثلاثة غارقة في الدم ولم تستطع من مرقبها النائي أن تميز ملامح الرءوس التعسة حتى نادي المنادون أنها للخليفة سليمان الثاني، وأبيه سليمان بن عبد الرحمن الناصر وابنه عبد الرحمن، صرعهم جميعًا "علي بن حمود" في مجلس واحد، اقتحم القصر عام ٤٠٥ وصرخت الصبية المسكينة تنادي أباها

فضاعت صرختها مع الريح، دون أن تبلغ سمع أبيها الذي كان عاكفًا على كأسه، قد أعفي نفسه مشقة التفكير فيما كان وما سوف يكون، وأبعد عنه أشباح أهل بيته الذين يسومهم "بنو حمود" سوء العذاب!

ومن أعماق يأسها هتفت: أين أنت يا عبد الرحمن لكن صدى صوتها ارتد إليها ذبيحًا ممزقًا.

فعبد الرحمن الذي هتفت باسمه ليرد إليها قواها الضائعة، قد اختفى من قرطبة كلها والتمسه أعوان ابن حمود فلم يقفوا له على أثر.. ولم يكن في بني أمية إذ ذاك، من يخشى ابن حمود خطره، غير ذلك الفتي الطامح الذكي، عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الناصري، الذي عرفته قرطبة، زينة فتيانها كياسة وظرفًا وكرم نفس وعلوم همة!

وهذا هو قد مضى.. بلا وداع.

ثم لاح شعاع نحيل من الضوء، كأنه مشعل حزين أضاءه الزمن في حلكة ذلك الليل، ليسجل مشهد احتضار الدولة الأموية بالأندلس.

وعلى ضوء ذلك الشعاع، شهدت قرطبة فتاها عبد الرحمن يدخلها مستخفيًا بعد سنين من التشرد والاغتراب، وكان سلطان بني حمود قد وهي وآذن بزوال، فلم تك إلا أشهر معدودات، حتى بويع عبد الرحمن بن هشام بالخلافة، ودخل قصر آبائه في شهر رمضان سنة ٤١٤، في غفلة من الدهر.

وأهل عيد الفطر فوقفت قرطبة كلها خاشعة، ترنو مبهورة إلى الأميرة "ولادة" إذ تظهر في قصر الخلافة لأول مرة، بارعة الحسن، ساحرة الطرف، تخطف بسنا جلالها الأبصار!

وعجبوا لها! أتكون هذه بنت محمد بن عبد الرحمن؟ كيف تخلف قانون الوراثة فيها، فلم تأخذ عن أبيها غباء عقله، وضخامة جسمه، وبلادة حسه؟

ترى، هل بلغ من هوانه على قانون الوراثة نفسه أن أسقطه من حسابه، وتخطي بابنته "ولادة" إلى أجداد لها كرام عظام؟

أو أن ميراث الأمومة فيها غلب ميراث الأبوة، لفرط تفاهته وضآلة أثره؟!

غير أن الشعاع، سرعان ما انطفأ!

ثار الثائرون بالقصر، فاستغاث الخليفة المستظهر بالله "عبد الرحمن بن هشام" بوزرائه وجنده، فلم يغثه منهم مغيث. وأسرع إلى جواده، وهم بالخروج من القصر، فحيل بينه وبين النجاة هنالك ارتد على عقبه، وترجل عن فرسه، واختفى في مخبأ بحمام القصر، فعاث الثوار بدار الملك وسبوا نساءه، وحملوهن إلى منازلهم علانية!

وكانت "ولادة" ترقب الأحداث غير بعيدة، فما ارتابت في أن ذلك آخر العهد ببني أمية وهذا الفتى المرجو فيهم، الذي جاد به زمان بخيل، يوشك أن يلقى مصرعه!

ثم ما راعها إلا أن هتف الثوار باسم أبيها! لكنها كذبت سمعها ولم تستطع أن تصدق! فأبوها أضعف من أن يشارك في أمر جاد، وأهون من أن يطمح ببصره إلى الخلافة أو ما دون الخلافة، وما عرفت عنه –وهي أدري الناس به– إلا التعطل والبلادة والخواء والخمول!

ولكن يا ويلها! هذا أبوها بشحمه ولحمه يمضي إلى دار الملك مبهوتا ثقيل الخطو.. ولم تكذب بصرها هذه المرة بل أصغت بكل جارحة فيها إلى النبأ المذاع: قتل المستظهر على رأس ابن عمه، وأعلنت خلافة محمد بن عبد الرحمن، ولقب بالمستكفي بالله!

وكاد القهر يقتلها، وهي ترى أباها الخليفة، يسلم أمره إلى بنت سكري المرورية، الغانية اللعوب، ويبيح لكل من شاء، أن يتلقب بما شاء ويأخذ ما شاء من مراكز السلطة ووظائف الخلافة كيما يفرغ هو لشهواته، ويخفف من أعباء الحكم!

ولم تعجب "ولادة" حين جاء أهل قرطبة، في ربيع الأول سنة ٤١٦، فخلعوا ذلك الخليفة المأفون الذي "لم يجلس في الإمارة أسقط منه ولا أنقص!".

وتركوه، وكأنما استكثروا عليه أن يقتل أو يعتقل.. وولوا عليهم أحد العلويين ثم خلعوه هو الآخر، وبايعوا أبا بكر بن هشام بن محمد الأموي، فكان ذلك آخر عهد الأندلس ببني أمية!

طرد أبو بكر بعد عامين، ونادى المنادي "في أسواق قرطبة وأرباضها، ألا يبقى رجل من بني أمية بها، ولا يتركهم عنده أحد".

وبقيت "ولادة" في قرطبة وقد أعفتها أنوثتها من الإخراج والتشريد.

بقيت، لترى في ربوع الزهراء لمحة مستعارة من بهاء المجد المطوي، وذكرى حية للأسرة القرشية العريقة التي كتبت للعروبة والإسلام، تاريخًا أغر في ذلك المغرب البعيد.

وطوت "ولادة" في أعماقها ذلك السجل المشحون بالفواجع والأمجاد، وخرجت إلى المجتمع بادية الزهو بشبابها الناضر وحسنها الباهر، ونسبها العريق الكريم.

وكتمت شجوها وهي ترى قرطبة التي أشبعت أهلها قتلًا وتشريدًا، تصطفيها ملكة غير متوجة.

ووقف التاريخ يرقب هذه الغادة الأموية على عرشها الفريد، تنحني لها جباه الوزراء، ويرتل لها الشعراء آيات الضراعة والولاء.

وعاد من جديد، ففتح كتاب بني أمية– وقد ظن أنه فرغ منه– ليضيف إليه صفحات غراء، لأزهي عصر أدبي في الأندلس، كانت "ولادة" صاحبته وصانعته وملهمته.

ومن جديد، عادت معازف قرطبة تغني لبنت المستكفي:

ودَّع الصـــــــبر محـــــــب ودعـــــــك
ذائـــع مـــن ســـره مـــا اســـتودعك
يقـــــرع الســـــن علـــــى أن لـــــم يكـــــن
زاد فـــي تلـــك الخطـــأ إذ شـــيعك
يـــــا أخـــــا البـــــدر ســـــناء وســـــني
حفـــــظ الله زمانـــــا أطلعـــــك
أن يطـــــل بعـــــدك ليلـــــي فلكـــــم
بـــت أشـــكو قصـــر الليـــل معـــك!

وعاشت غادة قرطبة حياتها الحافلة، وأمهلها الأجل طويلاً حتى أملت على التاريخ الأدبي ما شاءت أن تمليه.

ثم مضت، وتركت في سمع الزمان دويًا.

تركت قصة حياتها المثيرة، وأخبار مغامراتها الحائرة، وشعرها الجريء، وديوان ابن زيدون ورسالته الهزلية التي كتبتها إلى الوزير أبي عامر ابن عبدوس، حين رنا ببصره إليها، وتطاول إلى منافسته في حبها.

وتركت طابعها، وظلها، وأثرها، في التاريخ السياسي والأدبي لقرطبة، طوال نصف قرن.

وحار المؤرخون في أمرها، وبدت لهم حينا ممتنعة بجلال نسبها وعزة جمالها وطهرها، وآخر مبتذلة مستهترة سهلة الحجاب، مجاهرة باللذات.

وهذا ابن بسام يقول فيها: "كانت في نساء أهل زمانها واحدة أقرانها، حضور شاهد وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر.

وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصير، وفناؤها ملعبًا لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة محضرها، إلى سهولة حجابها وكثرة منتابها تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب وطهارة أثواب، على أنها- سمح الله لها وتغمد زللها- أوجدت إلى القول فيها السبيل، بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها..."

ولم يحاول أحد منهم -فيما أعرف- أن يفسر هذا التناقض في سلوكها، أو يلمح وراء ظاهرها المرح، سرها المطوي المضمر.

لم يحاول أحد، أن يربط تاريخها بمأساة أبيها ومصارع آلها، أو يجد في شخصيتها ما يلقي ضوءًا على ما بدا لهم من استهتارها وعدم مبالاتها بالأوضاع والأعراف!

ولو حاولوا، لبان لهم أن حياتهم هكذا، لم تكن إلا أثرًا طبيعيًا محتومًا للصراع العنيف بين قوة شخصيتها وشناعة ظروفها؟!

لقد شهدت ما شهدت من مآس وفواجع، وقرأت ما قرأت من أمجاد أسرتها، وكانت ذكية القلب والعقل، راشدة المدارك، مرهفة الحس، واسعة الأفق، عميقة الثقافة.

لكنها كانت أنثي، والأنوثة عجز.

وكانت بنت "المستكفي" الذي بلغ من ضعة نفسه أمام خسف بني حمود بأهل بيته، أن "استجاز طلب الصداقة، وراح يطوف بالفلاحين أوان ضمهم لغلاتهم، يسألهم أن يعطوه من زكاتها!".

وما كان لمثلها أن تطمع في تاج أسرتها، وبينها وبينه أنها أنثي، وأنها بنت المستكفي الذي كانت أيامه كلها شؤما على بيته، وعلى العرب والإسلام جميعًا!

وتحت وطأة ذلك الصدام العنيف بين أنوثتها الذكية وظروفها التعسة، كان اليأس المر يداريه المرح الظاهر والبهجة المصطنعة، والسخرية بالأوضاع اللئيمة التي ضنت عليها بكرم الأبوة ونعمة الاستقرار، ومجد الإمارة، ثم لم تبخل بقلوب العشاق، وعقول المفتونين من الكبراء والوزراء.

ويقال أنها أحبت ذا الوزارتين، أمير الشعراء أبا الوليد بن زيدون، ثم

هجرته لما سجن واغترب وأحبت الوزير أبا عامر بن عبدوس، وما أحبت هذا ولا ذاك، ولا كان لها قلب يصلح للحب بعد كل الذي شهدت من فواجع وكابدت من محن، ولو كان في طاقة بشريتها أن تستبدل بقلبها الممزق الجريح قلبًا سليمًا خاليًا، لأعيًا بشريتها بعد ذاك أن تجعل من هذا القلب، مأوى لابن زيدون وقد كان من أقطاب الثورة التي أطاحت بعرش آبائها، وشردت رجالها، ورعت صباها، وسلبتها عزة حجابها!

وابن عبدوس! كيف يخطر بباله أن تستجيب لحبه، ومسامر قرطبة تتندر بكلمتها فيه، حين مرت به يومًا وقد نشر كميه ونظر في عطفيه وحشر أعوانه إليه، فنقلت بصرها بينه وبين بركة آسنة أمام داره، ثم قالت: له "أبا عامر:

أنـــــت الخصـــــيب وهـــــذه مصـــــر

فتـــدفقا، فكلاكمـــا بحـــر!".

وتركته لا يحير حرفًا، ولا يرد طرفًا.

كلاً.. إنما هو اليأس الكافر أغراها بأن تسخر بالأوضاع وتلهو بأقطاب العصر والألوان، وتتسلى بمرآهم وهم يتساقطون صرعى سحرها، ويتضاءلون أمام سلطانها، ويذوقون بسببها وعلى يديها بعض ما ذاق رجالها من كيد الوشاية ولؤم المؤامرة، ومحنة الاعتقال والتشريد!

وحين كان "ابن زيدون" يجرع في سجنه، أو في منفاه غصص القهر والحرمان، ويبعث إليها لوعة وأسى وحنينًا، كانت هي في نديها الحافل بقرطبة، تمارس لعبتها المفضلة، وتصغي —في اشتفاء —إلى جواريها وهن يغنين من شعر ابن زيدون فيها:

أضــــحي التنـــائي بـــديلًا مـــن تـــدانينا

ونـــابَ عـــن طيـــب لُقْيانـــا تجافينـــا

بنْــــتُمْ وبنَّـــا فمـــا ابتلَّـــت جوانحنـــا

شـــوقًا إلـــيكمْ ولا جَفَّـــت مآقينـــا

نكـــــاد حـــــين تُنـــــاجيكُم ضـــــمائرُنا

يقضـــي عليْنـــا الأســـى لَـــوْلا تأسَّـــينا

حالـــــتْ لفقـــــدكُمُ أيامُنـــــا فَغَـــــدتْ

سُـــودا، وكانـــتْ بكُـــم بيضًـــا ليالينـــا

لسْـــــنا نُسَـــــمَّيك إجـــــلالاً وتكرمـــــةً

وقـــدرُكَ المُعتلـــي عـــن ذاك يُغنينـــا

يـــا جنَّـــة الخُلـــد أبـــدلْنا بسَلْسَـــلِها

والكـــوثر العـــذْب زقُّومًـــا وغســـلينا

أنّـــا قرأنـــا الأســـى عنـــد النَّـــوى سُـــورا

مكتوبـــة، وأخـــذنا الصَّـــبر تلقينـــا

لـــم نجـــف أفْـــق جمـــال أنـــت كوكبـــه

ســـالينَ عنـــهُ، ولـــم نهجـــره قالينـــا

ولا اختيـــــارًا تَجنَّبنـــــاه عَـــــن كثـــــب

لكـــنْ عَـــدَتْنا علـــى كـــرْهٍ عوادينـــا

لا أكـــؤس الـــرَّاح تُبْـــدي مـــن شـــمائلنا

ســـيّما ارْتيـــاحِ ولا الأوتـــارُ تُلهينـــا

ومـــا استَعَضـــنا خلـــيلاً عنـــكِ يصـــرفُنا

ولا اســـتفَدنا حبيبًـــا عنـــكِ يســـلينا

ولـــو صَـــبَا نحْونـــا مـــن علـــو مطلعـــه

بدرُ الدُّجي لم يكنْ حاشاك يَسْبينا

وبقي الصدى ملء سمع الزمان، فلم يخرس أبدًا

وخرجت "ولادة" من الدنيا، من غير أن تتزوج

وكانت في حساب التاريخ : "غادة قرطبة، التي فتنت الوزراء والشعراء بسحر جمالها وأنس محضرها، أما ذكاء خاطرها وحرارة نوادرها فآية من آيات فاطرها".

لكنها في حساب الحياة: بنت المستكفي وحفيدة الناصر، التي شهدت مصرع آلها واحتضار أسرتها، فجمعت أشلاء ذاتها المبعثرة، وخاضت المعركة بأنوثتها الذكية اليائسة ليصلى نارها أولئك الذين خربوا بيتها ومزقوا حجابها وشردوا رجالها، لتضيف إلى مجد الأمويين بالأندلس، عصرًا أدبيًا خالدًا هو عصر "ولادة بنت المستكفي"!

صبحية ملكة قرطبة[**]

سنية قراءة[*]

كل شيء هناك كان الجلال يتوجه، والجمال يضفي عليه الرواء.. وكيف لا يكون الجمال الفريد طابع ضاحية "الزهراء" التي أنشأها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر في عاصمته قرطبة ببلاد الأندلس وأقام فيها قصوره الزاهرة الشامخة التي أجرى حواليها الماء من كل جانب فجعلها متعة للعين وبهجة للوجدان.

لقد شاد الناصر في بلاد الأندلس ملكًا عربيًا قل أن يجود الزمان بمثله، وترك "للحكم" ولده من بعهد تراثًا أحس الخليفة الشاب أن واجبه الأول أن يكون حارسه المتيقظ الأمين الذي ينبغي ألا تغفل عنه عينه. وكما حصن الناصر حدود بلاده وقواها بجيوشه، كذلك سار ابنه "الحكم" في الطريق نفسه حتى عم الرخاء بلاد الأندلس كلها وتوحدت بقاعها ومقاطعاتها جمعاء، ولم يبق في يد أمراء الإقطاع من الفرنجة سوى مقاطعتي (ليون وكتالونيا) ورغم هذا م يغفل عنهما بل كان يترقب الفرصة للانقضاض ليتم طرد الفرنجة نهائيًا من الأندلس وأن أمير المؤمنين الحكم بن عبد الرحمن الناصر بعد هذا الإجهاد في سبيل توطيد أركان الملك، لينصرف بعض الشيء إلى هوايته المحببة، وهي القراءة والإطلاع، إذا كان شغوفًا بالعلم مقبلاً عليه، وقد

[**] العربي– العدد ١٥٣– أغسطس ١٩٧١م.

[*] كاتبة واعلامية مصرية راحلة .

كفل له أبوه العظيم كل وسائل العلم وأسبابه، فزود له القصر بمكتبة فخمة حوت أكثر من أربعمائة ألف مجلد في مختلف العلوم والفنون والآداب.

وتعود أن يقتطع من أوقات عمله بضع ساعات، ينصرف فيها وحده إلى مكتبة القصر للدراسة والإطلاع، وكان يتخير مكانًا قصيًا في نهاية قاعة المكتبة يجلس فيه وقد بعد بأفكاره وتصوراته عن الدنيا ومن فيها.

وذات صباح عبق، خلا إلى نفسه في هذا المكان المنعزل بقاعة المكتبة، في تلك اللحظات الوادعة تسللت إلى داخل المكتبة جارية رشيقة القد، حلوة التقاطيع ساحرة الملامح، ثم توقفت أمام صيوان يحوي النادر من كتب الأدب وخير ما جادت به قرائح الشعراء، وكأنها تعودت أن تفعل ذلك كل يوم.

وفتحت الجارية كتابًا وراحت تقلب صفحاته.

وراح يتأملها وهو يسائل نفسه عمن تكون هذه الصبية الحسناء، أنه لم ير هذا الوجه الصبوح قبل الآن، وأن أشد ما يثير دهشته أن يجد بين ساكنات قصره العديدات من يهمها الإطلاع، فمن تراها تكون هذه الفتاة الغريبة؟!

وأعجب في نفسه بهذه القارئة وتمنى لو أنها كانت إحدى أميرات قصره. وكم أحب أن يفاجئها، ولكن تواضعه أبي عليه ذلك، إذ أحس بغريزته، ومن طريقتها في التسلل، أن الفتاة وصلت إلى قاعة المكتبة وهي واثقة أن أحدًا لم يرها، ويجب أن تظل عند ظنها هذا حتى تنتهي من قراءة المجلد الذي راحت تتصفحه في شغف ونهم كبير.

وعاد إلى قراءته وحاول جاهدًا أن يصرف أفكاره عنها بعد أن صرف عينيه، وفي غفلة منه، وبينما هو منصرف إلى بضعة سطور استرعت انتباهه،

عاد ينظر في سرعة، فإذا بالفتاة قد اختفت تمامًا وبالخفة نفسها التي جاءت بها!

ووجد الحكم نفسه يترك أكداس كتبه يسرع إلى حيث كانت تقف الصبية الحسناء فوقف في المكان نفسه، وراح يستعرض المصنفات والأسفار ليعرف في أي كتاب كانت تقرأ، ولكنه لم يستطع أن يعرف ذلك أبدًا فقد أعادت الشابة كل شيء إلى أصله بطريقة جعلت الحكم يوقن أنها كنت مدربة على مثل هذا العمل وأنها زاولته مرارًا قبل اليوم وأنها ولاشك قد تعودت التردد على مكتبة القصر.

وارتاح إلى هذه الفكرة التي وصل إليها وقد استقر بخلده أنها ليست غريبة عليها وأنها لابد ستعود إلى المكان نفسه أن لم يكن غدًا فبعد غد.

وأن لم يكن بعد غد فبعد أسبوع أو شهر أو عام بأكمله، المهم أنها ستعود ويراها.

ومر صباح وصباح، ثم صباح ثالث وعروس الحلم الجميل لم تحضر.

وفي الصباح الرابع، وقبل الموعد المبكر الذي تعود أن يدخل فيه إلى قاعة المكتبة دخل كعادته.. وإذا به يراها أمامه!!

وتقدم من الفتاة التي أجفلت ساعة رأته، وأسرعت فوضعت الكتاب الذي كانت تحمله بيدها على نضد أمامها، ونكست رأسها وهي تنتظر اللوم والتقريع، لأنها اجترأت ودخلت مكتبة القصر دون استئذان، وإذا بالخليفة العظيم يتقدم منها وقد تهلل بالبشر وجهه، فعاودتها بعض ثقتها وهدوئها وأحست بروح من الاطمئنان دخلت نفسها مع كلماته الوادعة وهو يسألها ماذا كانت تقرأ؟

وإذا بها تقول باستحياء: أنها كانت تطالع كتابًا عن شاعر النبوة "حسان بن ثابت".

وبهت أمام جواب الفتاة، وراعه أن تقبل شابه مليحة غضة الإرهاب بارعة الحسن على مثل هذه الدراسة، وحلا له أن يختبر مدى صدقها فيما ادعته، ولم يكد يناقشها في شعر حسان حتى كانت أسرع منه وأحسن جوابًا، فأصغي إلى الفتاة وأصغي، وإذا به في النهاية يريد أن ينهيه عند هذا الحد، ليعرف من تكون تلك المتسللة الحسناء التي أثارت دهشته وإكباره وإعجابه؟!

ونكست الفتاة رأسها أمام سؤاله الذي أنزلها من سماوات كانت تحلق فيها وهبط بها إلى مستوى أصبح من اللازم عليها أن تكشف عنه، وتعترف له في صراحة أنها جارية من جواري قصره العديدات، وأنها تعيش في فيض نعمه وكريم عطائه!

وأبى الحكم أن يصدق ما سمع، فصاحبة مثل هذا العقل المتفتح الذي استنار بضوء العلم لا يمكن أن تكون جارية من جواريه العابثات اللاهيات، وأقبل عليها يشجعها أن تتكلم وأن تصارحه بحقيقتها فهو يعطيها الأمان ويرحب بها أن لم تكن من أهل القصر لتتردد على مكتبته في أي وقت تشاء، ولذا بالصبية تؤكد لأمير المؤمنين أنها جاريته ومملوكته وأنه هو وحده صاحب الأمر والتصرف فيها، وإذا كان قد أغضبه أن تجرؤ جارية مثلها على دخول المكتبة فهي تسأله العفو، فلن تعود إلى مثل هذه الفعلة أبدًا.

وهتف مستنكرًا ما سمع من الصبية، وراح يؤكد لها أنه معجب بسعة إطلاعها وبشغفها بالعلم الذي رفعها في عينيه إلى مكانة عالية، وجعل يحاول

أن يعيد إليها هدوءها ويشعرها بأنها قد أسعدته فعلاً وأثارت إكباره وإعجابه.

وراح يتفحص الفتاة في دهشة وإعجاب وإكبار، وسألها في نبرة المشوق إلى تعرف اسمها وإذا بها تقول له إنها جاريته ومملوكته الأمينة "صبيحة".

صبيحة، أنها صبيحة فعلاً، ومليحة بلا جدال، وأن حديثها الطويل مع أمير المؤمنين جعله يكتشف فيها ألوانًا من السحر لم يعهدها من قبل، لا في نساء القصر ولا في جواريه، ووجد نفسه يردد كالمذهول هامسًا "صبيحة" أنك صبيحة فعلاً، وسوف يسعدني أن تكوني طلعة كل صباح حلو أرجوه، وأن أرى وجهك هذا دائمًا يشرق علي، وتكون رؤيته فاتحة خير وسعادة لأمير المؤمنين.

وأجفلت الفتاة أمام الكلمات التي وصلت مسامعها، وراح قلبها يدق في قلق واضطراب وهي حائرة لا تدري أكان ما تسمعه حقيقة أم تراها كانت تعيش في وديان من الخيالات والأحلام.

مد الحكم يده وأمسك بيد الفتاة التي كانت ترتعد، ثم سار بها في هدوء خارج قاعة المكتبة.

شهور تسعة مرت وصبيحة تعيش في حلم وردي تمنت لو تعيش مخلدة فيه إلى الأبد!

وإذا بأمير المؤمنين يسمع ذات صباح أن جاريته الأثيرة قد وضعت له ابنه الأول "هشام"!

كاد يطير فرحًا بالنبأ السعيد الذي سمعه، وأسرع يعدو نحو جناح

صبيحة حبيبة القلب ليتأكد من صحة ما كان يسمع ويرى، وقد حققت له أعز أمنية كان يرجوها، وهي إنجاب الوريث، ولما وجد أنه أمام حقيقة ماثلة، كاد يبكي من الفرح، وأقبل على صبيحة يضمها إلى صدره مرة ويضم وليدها إلى صدره مرات ومرات وهو يردد: أن أمك لن تكون جارية بعد اليوم، بل هي زوج أمير المؤمنين وشريكته في ملك الأندلس العريق.

أن صبيحة اليوم لتشعر أنها في مكانة لم تكنها بالأمس: أنها ملكة!

وملكة الأندلس بالذات!

والأندلس جنة الله في أرضه، كانت محوطة بالدسائس ترقبها العيون الحاقدة من فرنجة وأمراء اقطاع، وأنها لتحس بهذا وتشعر به وتعرف أنها قد وضعت في مكان يجب أن تكون جديرة به وأن تشغله عن مقدره وتفوق.

وراحت ترقب وتدرس في تمعن الدراسة الواعية لتكون صاحبة الرأي السديد، وعرف لها زوجها أمير المؤمنين فضلها وذكاءها فاعتمد عليها كل الاعتماد، وراح بدوره يراقبها ليرى كيف ستفلح في إدارة دفة الأمور، حتى إذا وثق منها وارتاح إلى حسن إدارتها لم يجد حرجًا من تركها بعد ذلك لتكون صاحبة الكلمة المسموعة والأمر النافذ في كل شيء، ثم.. انصرف هو إلى هوايته السابقة وهي القراءة والإطلاع.

وبدأت صبيحة تمارس شئون الحكم عن جدارة ومقدرة وتمكن، فكانت تجتمع كثيرًا بوزير الدولة عثمان بن جعفر المصحفي وتلم منه بدقائق الأمور، حتى وعتها جيدًا وألمت بكل صغيرة وكبيرة.

لم تتدخل صبيحة في تصريف سياسة الدولة المدنية فحسب، بل راحت تشرف على مسيرة الأمور الحربية، فحركت الجيوش من هنا وهناك

وراحت تضاعف من عدد بعض القوات في جهات خاصة، وتقلل من عددها في جهات أخرى، إذ استطاعت أن تعرف إلى أي الجبهات توجه الاهتمام، وإلى أي الميادين تتجه منها العين الراعية، حتى لا تدع بذلك فرصة أي فرصة "لشارلمان" وأمراء الإقطاع المتربصين أن يجدوا ثلمة ينفذون منها إلى تحقيق ما كانوا يطمعون فيه وهو القضاء على الملك العربي في بلاد الأندلس.

ومع مسيرة الأيام وتعاظم شئون المسئوليات التي كان على صبيحة أن تواجهها وتعدد مهام الدولة واتساع رقعتها، رأت الملكة الواعية الحذرة أن تستعين بكاتب سر يقوم بتحرير ما تراه، ويرصد في سجلات خاصة محاضر اجتماعاتها بالوزير المصحفي، فكان أن عرضت رغبتها هذه على الوزير فوافقها عليها وشجعها على الإسراع في تنفيذها، وإذا بها تطلب من بعض خاصتها أن يجدوا لها الرجل المناسب الذي تعتمد عليه فيما كانت تعتزم إتمامه من أعمال.

وهكذا دخل "محمد بن عبد الله بن علي" إلى قصر أمير المؤمنين بضاحية الزهراء ليعمل في خدمة الدولة، وليكون تحت تصرف الملكة ينفذ ما تكله إليه من مهام.

ومحمد بن عبد الله بن علي يوم دخل القصر في قرطبة كان يخطو نحو الثالثة والعشرين من عمره، شابًا ممتلئًا بالقوة، يفيض قلبه بالأمل الذي أحس أنه سوف يحققه ويحقق طموحه أيضًا، وقد بدأ يسير هذه الخطوات ليكون في خدمة الملكة.

كان واسع الأفق جيد الإنشاء، فرأى بثاقب بصره أن خير عمل يستطيع أن يقوم به ليساعد نفسه على تكاليف الحياة الباهظة أن يقوم بتحرير

المظلمات التي كانت ترفع من أصحاب الحاجات إلى أمير المؤمنين الحكم، فبز أقرانه في هذا الميدان وفاقهم جميعًا وعرف في قرطبة كلها بجودة إنشائه، وسرعة إصابته للهدف الذي كان يرجوه الشاكي في أسلوب متقن يستوعي الانتباه.

ووجدت الملكة صبيحة فيه غايتها التي كانت ترجوها، وأعجبها فيه وفاؤه وشديد إخلاصه وتفانيه وأكثر من هذا تفهمه الدقيق لكل صغيرة وكبيرة كانت تعرض في اجتماعاتها مع الوزير المصحفي، حتى لقد كان يذكرها هي ووزيرها بما كان من أمور قررت في جلسات سابقة ويشرح دقائقها، ثم.. وفي هدوء بدأ يتجاسر على عرض وجهات نظره التي قبلت على الفور وجعلت نظرة الملكة تتحول إلى الشاب وترى فيه عونًا يجب ألا يهمل.

ومرت الأيام، وتلتها شهور بعد شهور، ونجمه يعلو ويزداد تألقًا والتماعًا، حتى بدأ يطغي على غيره من النجوم، فلا عجب أن بدأت الألسن تلوكه وتتحدث عنه، وبدأ كارهوه ينظرون إليه نظرات الريبة والحسد، وهو عن الجميع لاه غير مهتم بما كانوا يتقولون عليه، إذا كانت له غاية واحدة هي أن يظل في الطريق الذي أحبه ليصل إلى تحقيق أمانيه التي كانت دائرة أفقها تتسع مع الأيام.

لقد خبر القصر ومن فيه، وعرف أن هناك أكثر من حزب وأكثر من فئة تتطاحن على السلطة من وراء ستار، وتسعى كل من هذه الفئات المتنازعة إلى الإطاحة بغريمتها ليخلو لها الجو.

ولكن الجميع كانوا يخشون صبيحة ويخشون بطشها، إذ خبرتهم جميعًا قبل أن يعرفهم محمد بن عبد الله بن علي، ومن أجل هذا لم يتجاسر

واحد منهم على أن يحاول التقرب إليها بسعاية أو وشاية.

وأمام هذا الوعي المتيقظ الذي تميزت به صبيحة، بدأت مكانة محمد بن عبد الله بن علي تتوطد وتزداد رسوخًا، وقد رأت الملكة إمعانا منها في القضاء على مؤامرات الحاسدين وإسكاتا لأصواتهم، أن تعلي من مكانة كاتبها وكاتم إسرارها، فكان أن عينته وكيلاً عنها يشرف على أموالها وضياعها، ثم أبت بعد هذا إلا أن تعزز هذه المنحة الكريمة بمنحة أخرى إذ أقنعت زوجها أمير المؤمنين أن يكل إليه مباشرة شئون أملاك ولي العهد، وبعد هذا كله أوحت إلى أمير المؤمنين أن يجعله على خزائن الأندلس لعلمه الواسع بالشئون المالية.

وبالرغم من أن الملكة صبيحة قضت نهائيًا على أحلام الوشاة الطامعين من المماليك وبعض رجال الحاشية، فإن سعاياتهم لم تكف، ونيران حقدهم لم تخمد لها جذوة على محمد بن عبد الله بن علي الذي كان من الذكاء وسعة الأفق وواسع الحيلة بحيث استطاع أن يمتلك القلوب جميعًا برقته وحسن صلاته بالناس، ومحاولاته العديدة في التقرب بهداياه السخية إلى كبار رجال الحاشية.

وتعددت وكثرت هدايا محمد لمن كان يرغب في تدعيم صلتهم به من أصحاب الحل والعقد، وعن طريق هذه الهدايا الكثيرة الباهظة الثمن بدأ حساد الشاب الملحوظ المكانة يهاجمونه، فإذا بهم يبعثون الشكاوى إلى أمير المؤمنين يتهمون فيها محمدًا في نزاهته، ويؤكدون له أن رجلاً له مثل راتبه المحدد لا يمكن أن يتسع إيراده لتقديم مثل هذه الهدايا.

وأطلع الخليفة على الشكايات المكذوبة ولم يلبث أن بدأ الشك

يساوره في أمر محمد بن عبد الله بن علي، وراح في وحدته يستعرض تصرفات الشاب، وإذا به يعجب كيف سكت عليه طوال هذه المدة ولم يلحظ كثرة نفقاته وبذله وعطاياه، ثم ما لبث أن أنحى على نفسه باللائمة لأنه فرط ولم يراقب حيث يفرض الأمر المراقبة والحذر الشديدين، عليه أن يفاجئ محمدًا ويدهمه في مقر عمله وسجلات حساباته مفتوحة قبل أن تمتد إليها يد التحوير والتزوير. وكان أن طلب من وزيره المصحفي أن يعينه على القيام بهذه المهمة الدقيقة، وأن يحاول عند المراجعة أن يستكملها من كل نواحيها حتى لا تفلت منهما أي صغيرة مهما صغرت، حتى يستطيع أن يلقن الخائن درسًا يكون عبرة لغيره، ويكون فيه بعد هذا ما يجعل الجميع يفهمون أن أمير المؤمنين "الحكم" متيقظ لكل شيء، وأنه لا تفوته حركة ولا عمل من أعمال رجاله وخاصة من يشذون منهم عن الطريق المستقيم.

وفوجئ محمد بن عبد الله بن علي وهو في مقر عمله بدخول أمير المؤمنين والوزير المصحفي عليه، ثم بطلبهما العاجل أن يقدم ما لديه من حسابات، فأسرع الشاب في هدوء يقدم ما طلباه معززًا بالمستندات والدليل والبرهان.

ووجد أمير المؤمنين نفسه أمام رجل من أخلص رجاله، يتميز فوق ذكائه بالأمانة والدقة ومراعاة الله في كل صغيرة وكبيرة من تصرفاته، وإذا به يقدم عليه شاكرًا، ويأبى إلا أن يرد على الشامتين الحاقدين ألسنتهم الثرثارة إلى الأبد، فكان أن رفع درجة كاتب الملكة وجعله حاكمًا عامًا لإقليم إشبيلية.

وأسرع محمد بن عبد الله بن علي بالسفر إلى مقر عمله الجديد حيث راح يباشر سلطاته بكل حزم، فكان الحاكم الواعي الأمين الساهر على

مصالح الدولة والذي لا تفوته صغيرة ولا كبيرة.

ووصلت أنباء حاكم إشبيلية الجديد إلى أمير المؤمنين الذي حملها بدوره إلى صبيحة، وفي حوار دار بينهما وجدت الملكة أن هناك بعض الأمور الخاصة الدقيقة في حاجة إلى من يباشرها ويرعاها، ولما كانت تثق في محمد بن عبد الله بن علي وكذلك كان يثق فيه أمير المؤمنين فقد اتفقا سويًا على أن يكلا إليه حل هذه الأمور الدقيقة، فبعثا بكتاب سري أبلغاه فيه أن يسافر إلى مراكش في رحلة تستغرق بضعة أشهر.

يعود بعدها ليرفع إليهما تقريرًا بكل ما عرض له، على أن يكون له في ذلك رأي حاسم، ربما وجدًا فيه المخرج والحل الوحيد، خاصة وقد درس المشكلة بنفسه وعرفها عن كثب وتتبع أطوارها تتبع الخبير.

وأدى الحاكم الشاب مهمته على خير ما كان يرجى منه، ثم رجع إلى قرطبة، فإذا به يجد كل شيء قد أصبح معدًا، لا لعودته إلى إشبيلية بل لبقائه في قرطبة وإلى الأبد، إذ رأي أمير المؤمنين وملكته أمام إخلاص محمد أن يكلا إليه أمر رعاية ولي العهد "هشام" وتثقيفه وتبصيره بكل الأمور التي يجب أن يلم بها عندما يحين الوقت ويصبح أمير المؤمنين.

وبدأت السنون تمر وبدأت معها سلسلة من الأمراض تهاجم أمير المؤمنين فاعتلت صحته وساءت حالته، وأحس لا بالضعف والخور بل بدبيب الفناء يدب في أطرافه، ووجد أن الحكمة توجب الإسراع في التفكير لا في أمر نفسه بل في أمر ابنه هشام من بعده، فهشام حدث صغير، ولو مات أمير المؤمنين فجأة فإن عرش بلاد الأندلس سوف يكون من نصيب شقيقه "المغيرة"، وأمير المؤمنين يحب ويتمنى أن يكون العرش لولده، وأنه ليسارع

ويصارح الملكة صبيحة بكل هذا ويطلب رأيها الحاسم السريع.

وأشارت صبيحة الذكية البعيدة النظرة بضرورة إتباع خطة حكيمة، وهي استدعاء أمراء البلاط وإشراف الدولة وكبار الحاشية وحكام الأقاليم إلى مجلس عام يرأسه أمير المؤمنين، فيعرض عليه ولاية العرش من بعده ويطلب إليهم التصديق على أن تكون لابنه الصغير هشام، ثم يعزز هذا العرض بأن يطلب منهم في حالة الموافقة على رأيه أن يحرروا وثيقة بذلك، وأن يمهروها بتوقيعاتهم إقرارا منهم بكل ما ذكر.

وكانت خطة الملكة صبيحة خطة بارعة ماكرة، فأمير المؤمنين حين يعرض مثل هذا الأمر لن يجد من يجسر على معارضته.

وأسرع أمير المؤمنين الحكم ينفذ خطة زوجته، وانعقد المجلس الذي وافق بالإجماع على الرأي الذي عرضه أمير المؤمنين، ولم يكد ينفض هذا الاجتماع التاريخي حتى أسرعت صبيحة الذكية تنفذ بقية خطتها، أمرت بنسخ عدة صور من هذا الإقرار الذي يثبت في سجلات القصر الرسمية، ثم وزعته على حكام الأقاليم، ليكونوا على علم بما اتفق عليه الرأي بخصوص هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر.

وذاع النبأ في الأندلس كلها وعرف العامة قبل الخاصة أن أمير المؤمنين الحكم قد أخذ البيعة لولده، فباركوا هذه الخطوة التي سوف تضمن الاستقرار للبلاد والهدوء للرعية.

ومات الحكم بن عبد الرحمن الناصر أخيرًا، وكانت صبيحة وحدها إلى جانب فراشه رابطة الجأش ثابتة الجنان.

وهكذا أصبحت صبيحة كل شيء في الأندلس، أصبحت المسئولة عن

أقدار هذه الدولة العربية الكبيرة، فكان من ألزم واجباتها أن تبادر إلى تصريف الأمور، فعمدت أول ما عمدت إلى تطهير جو القصر من الدسائس والدساسين، وأسرعت تبعد الطامعين وأشباههم ومن يتبعونهم، حتى يكون الجو نقيًا صالحًا للعمل بعد ذلك، ثم اتجهت إلى الشعب فأقبلت تدرس أموره وتتعرف مطالبه، لتهب له ما كان يبغي وتحقق كل ما كان يريد، فلا عجب أن أجمع الشعب على حبها والالتفاف حول عرشها.

وعلمت صبيحة بعد هذا أن أمراء الإقطاع من الفرنجة المتربصين بملك العرب في الأندلس ظنوا أن الفرصة قد أصبحت دانية لهم، وأن الأمور لابد قد اضطربت بعد موت الحكم، وأن إسناد إمارة المؤمنين إلى ولده الصغير قد أضعفت الدولة وجعلها في موقف لا تستطيع أن تثبت فيه أمام هجوم العدوان أن أراد أن يزلزل سلطان ذلك الصبي الصغير الذي كانت تصرف أموره امرأة، ظنوا أنها لن تكون في ثبات زوجها، ولم يدر بخلدهم أنها كانت ومنذ أصبحت صاحبة الحظوة في البلاد هي القوة الفعالة والأداة المحركة لكل الأمور.

وبدأت صبيحة تستعد لمواجهة الخطر الخارجي، وقررت أن تكون حاسمة في تصرفها، سريعة في تنفيذ الرأي الذي كانت ترى فيه الصواب، فكان أن عينت رجلها وكاتبها محمد بن عبد الله بن علي قائدًا للجيش الذي وجهته إلى حرب الفرنجة والقضاء على أطماعهم.

وخرج الجيش العربي تحفة آمال شعب ورجاء أمة.

خرج الجيش يقوده محمد بن عبد الله بن علي الذي صحبه الحظ في كل أطوار حياته، وأبي إلا أن يسير معه وهو يخطو هذه الخطوة الحاسمة

ليدعم لنفسه مكانة جديدة ومركزًا مرموقًا كان يتوق إليه.. وسار إلى ميدان اللقاء، واستطاع أن ينتزع النصر من أيدي أعدائه، وأن يحطم أحلامهم ويقضي على أمانيهم.

وعاد القائد المنتصر إلى قرطبة تسبقه أنباء انتصاراته، عاد يحمل الأسلاب والغنائم وبنود العدو التي حطمها، فارتفعت مكانته في قلب الملكة وفي قلوب الشعب ونال الحظوة، ومن هنا بدأت أطماعه الحقة تصحو من بعد غفوة، وتتجه إلى ناحية جديدة، لعله خشي قبل انتصاره هذا أن يطرقها أو يقترب منها.

لقد قام بدور الكاتب المتواضع في البلاط، فاستطاع أن ينال الحظوة والمكانة ويثبت جدارته ومقدرته وتفوقه، ثم قام بعدها بدور مدير الشئون المالية للملكة وابنها، فكان عند حسن الظن به، ثم ولي حكم إشبيلية، فكان الحاكم الجدير بالثقة الشديد الولاء لسيده، ثم خرج في سفارة مهمة إلى مراكش أنجزها على خير وجه، وعاد بعد هذا ليجد طريق المجد أمامه مفروشًا. فلماذا لا يسير نحو تحقيق أحلامه؟ لماذا لا يكون وزير الدولة الأول ورجلها الذي تلقى على كاهله أدق الأمور وأخطرها، ليتصرف فيها بحكمته؟!

وخطا الشاب الطموح خطوته الجريئة نحو الغاية التي يرجوها، واستطاع بقوة مكانته التي حققها مجهوده وجهاده أن ينال مكانة المصحفي ويصبح وزير الدولة الأول.

ولكن هل وقفت أطماعه عند هذا الحد واكتفي بما نال؟

ذلكم كان السؤال الذي كان الشاب وحده يعرف الجواب عليه، وقد عرف كيف يخفيه في أعماق نفسه التي كانت تضطرم بالأماني وتتوهج

بالآمال، ولم يعد يكفيها ما كانت تصل إليه بل كانت تتطلع يومًا بعد يوم إلى مزيد من المجد والسؤدد والفخار.

واتجه الشاب الطموح إلى الشمال الإفريقي الذي عاد سلطانه إلى بني الأغلب وقد انتقل الفواطم إلى مصر، ورأي أن يربط قدره بقدر تلك البلاد، وأن يتقدم لخطبة أسماء ابنة الأمير الأغلبي زعيم القبائل هناك وسيد العشائر والحاكم المتصرف صاحب المجد والسلطان، ولما وجد الإصغاء والموافقة من الأمير الأغلبي، أسرع يطلب الإذن من الملكة لتقره على ما فعله وتبارك هذا الزواج.

وكانت صبيحة عند حسن ظن رجلها بها، وقد أسعدها أن تسمع منه هذا النبأ وتعرف منه الخطوة الجريئة التي بدأ يخطوها نحو غاياته التي لم تكن تخرج في شيء عن السياسة المرسومة للدولة بصفة عامة، وهي توطيد صلاتها بحكامها في الولايات الخارجية التابعة لحكم الأندلس وخاصة الشمال الإفريقي، ومبالغة من الملكة في إكرام الوزير الأول محمد بن عبد الله– أمرت بأن تقام ليالي العرس في قصر الخلافة بضاحية الزهراء، وأن تكون بالغة الفخامة وعلى نفقتها الخاصة، ليشعر الجميع بأنها لا تكرم رجلها في شخصه، بل تكرم فيه معاني الإخلاص والوفاء.

وراحت عجلة الزمان تدور والشاب الطموح يتدرج صاعدًا نحو المجد في هدوء وثقة واعتدال، لقد أصبح كل شيء في الدولة، وأن ما وصل إليه ليبدو في عينيه اليوم صغيرًا تافها إذ كانت أمانيه أبعد مدى مما وصل إليه.

ترى هل كان محمد بن عبد الله بن علي الذي لولا رعاية الملكة صبيحة له ومساندتها لشخصه ما وصل إلى ما وصل إليه، هل كان لمثله بعد أن فعلت

صبيحة معه ما فعلت أن يقدم على الغدر بها وخيانة ابنها والوثوب إلى عرشه.

إن الرجل لم يفكر في هذا أبدًا، ولكنه فكر في السلطة كل السلطة فعلًا، لقد أراد السلطة بأي شكل وبأي طريقة كانت، ولكنه ولكي يصل إلى تحقيق غرضه يجب أن يحسب ألف حساب للملكة التي كانت تمسك بكل أزمة الأمور في يديها.

وكان محمد بن عبد الله بن علي يحس بدقة مركزه، ويعرف مدى ما تتمتع به الملكة صبيحة من منعة وقوة وسلطان ولكن.. هل كان كل هذا يقف في وجهه ويحول دونه وتحقيق طموحه وهو الذي أصر على أن ينال ما يريد ولو كلفه ذلك حياته؟!

كان محمد بن عبد الله بن علي يشعر أنه خلق للكفاح والنضال، ومن أجل هذا أصر على أن يمضي قدمًا في سبيله ولو حدث فعلًا ما كان يخشاه وهو التصادم بالملكة التي تصر على أن تكون صاحبة الكلمة النافذة في كل شيء.

وراع الملكة ذات يوم أن كشف رجلها الأمين وجهه الحقيقي الذي ظهر مروعًا مخيفًا، وإذا بها تراه في صورة وحش آدمي طامع نال ما نال من المكانة وولغ من الدماء، ثم إذا به يهددها بأنها إذا لم تقبل مطالبه وشروطه فسوف يقضي عليها هي...!! ناسيًا أفضالها العديدة عليه.

واستعرضت الملكة صبيحة الموقف، ووجدت أنها في موقف حرج جديد ينذر بقيام حرب أهلية وبتصدع الجبهة الداخلية وتصادم أصحاب الأغراض، وهذا- ولا شك- يعرض أمن الأندلس للخطر، ويعطي الفرنجة المتربصين الفرصة أن يهاجموا البلاد ويقضوا على الملك العريض الذي شيده

العرب وأقاموه بالجهد والكفاح والنضال، ورأت أن تتصاغر ظاهريًا وأن تسرع بالاتصال سرًا ببعض أمراء الشمال الإفريقي من الأغالبة ليسرعوا إليها فينقذوها من خادمها السابق الذي أصر على أن يكون سيدا لسيدته الملكة صبيحة ولولدها الصغير أمير المؤمنين هشام بن الحكم.

ولما كانت عيون محمد بن عبد الله بن علي تترصد خطوات الملكة صبيحة وتراقبها أدق مراقبة، فقد وصل إلى علمه كل ما كانت تنتويه، وعرف خطتها كاملة، وحال دون استنجادها بالأمراء الأغالبة في الشمال الإفريقي، ثم أسرع بدوره يرد على محاولتها هذه بمحاولة أخرى أكثر جرأة وإقدامها، فعزل أمير المؤمنين الصغير في قصره، وأحاطه بالجند والحراس، وراح يهيب بهشام أن ينصرف إلى عبادته وألا يشغل نفسه بشيء بعدها، ثم عاد ليكشف وجهه مرة أخرى أمام الملكة، مؤكدًا لها أنه أقوى منها وأن عليها أن تسلم وأن تنسحب من طريقه وإلا وطئتها قدماه!

وأبت الملكة صبيحة أن تتصاغر، وأن تهين كبرياءها أمام أحد خدمها السابقين، وأصرّت على الكفاح والنضال من أجل ابنها ومن أجل سلطتها، وأحبّت أن تلجأ إلى حكم الشعب في شأن الغاصب الجريء الذي يتطلع إلى ما ليس من حقه أن ينال، وإذا بمحمد بن عبد الله بن علي يسارع برد الضربة إليها بإضعافها، فاتصل بأمير المؤمنين الذي أبغض السياسة وكره شئون الحكم وأحب الخلود إلى العبادة، فكان أن استكتبه إقرارًا بأنه لا يصلح أبدًا لإدارة شئون الملك، وأنه يتنازل عن كل سلطاته إلى وزيره الأكبر محمد بن عبد الله بن علي يشرف على الأمور وحده، ودون شريك، وأن يكون هو وصيه من دون سائر الناس أجمعين!

فكانت الضربة قوية كادت تذهب بعقل الملكة التي وجدت نفسها

أصبحت مجرّدة من كل شيء.

وبدأت الملكة التي كانت يدها تهز صولجان إمارة المؤمنين في بلاد الأندلس يومًا، بدأت تعيش حياة الدعة والهدوء في الوقت الذي أخذ خلاله نجم محمد في التألق والتعاظم، وإذا به يلقب نفسه بالملك المنصور، ثم إذا به بين عشية وضحاها كل شيء، ولكنه لم يقدم على تنصيب نفسه أميرًا للمؤمنين.

وعاشت الملكة صبيحة ما تبقى لها من حياة بعد ذلك تجتر الذكريات وتستشعر الراحة، لأنها سلمت بالواقع وخلصت البلاد من شر الفتن والحروب الداخلية كي تظل الجبهة متماسكة قوية أمام العدو المتربص من الفرنجة الناقمين.

وعاشت ما شاء الله أن تعيش، حتى وافاها أجلها المحتوم في اليوم الذي قدره الله فذهبت مبكيا عليها من شعب أحبها وأخلص لها، ولم ينس أيامها الغر الميامين.

حكمت الأندلس العظيمة وأدارت سياستها ودفة الشئون فيها، وكانت بهذا من المسلمات الخالدات.

الفهرس